

بعض مشكلات الفلسفة

تأليف وليم چيمس

ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى

مراجعة الدكتور زكى نجيب محمود

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

هذه ترجمة كاملة لكتاب :-

SOME PROBLEMS OF PHILOSOPHY

By

WILLIAM JAMES

محتويات الكتاب

الصفحة	
٧	مقدمة المترجم
٣٢ - ١٣	الفصل الأول : الفلسفة ونقادها
	الفلسفة وأولئك الذين يكتبونها ٠٠٠ ما تعنيه
	الفلسفة ٠٠٠ قيمة الفلسفة ٠٠٠ أعداء الفلسفة
	واعترضاتهم ٠٠٠ الاعتراض القائل بأن الفلسفة ليست
	عملية ٠٠٠ هذا الاعتراض في ضوء التاريخ ٠٠٠ الفلسفة
	هي تفكير الانسان ٠٠٠ أصل وسائل الانسان الحالية
	في التفكير ٠٠٠ العلم فلسفة متخصصة ٠٠٠ الفلسفة هي
	ما تبقى من مشكلات لم يجد لها العلم حلا ٠٠٠ لا حاجة
	بالفلسفة الى القطعية ٠٠٠ وليست الفلسفة منفكة عن
	الواقع ٠٠ الفلسفة ميتافيزيقا ٠
٣٩ - ٣٣	الفصل الثاني مشكلات الميتافيزيقا
	نماذج من المشكلات الميتافيزيقية ٠٠٠ تعريف
	الميتافيزيقا ٠٠٠ طبيعة المشكلات الميتافيزيقية ٠٠٠
	المذهب العقلي والمذهب التجريبي في الميتافيزيقا ٠٠٠
٤٧ - ٤١	الفصل الثالث : مشكلة الوجود
	شوبنهاور وأصل المشكلة ٠٠٠ طرائق متنوعة في
	دراسة المشكلة ٠٠٠ طرائق العقليين والتجريبيين ٠٠٠
	نفس كمية الوجود يجب أن يستجديها الجميع ٠٠٠ البقاء
	يعنى الخلق ٠
٦٩ - ٤٩	الفصل الرابع : المدرك الحسى والتصوّر
	أهمية التصورات
	ما بينهما من اختلاف ٠٠٠ النظام التصورى ٠٠٠
	المعرفة التصورية ووجهة النظر التجريبية ٠٠٠ مضمون

الصفحة

التصورات ووظيفتها ٠٠٠ القاعدة البرجماتية ٠٠٠ أمثلة
على ذلك ٠٠٠ أصل التصورات هو نفعها ٠٠٠ الاستخدام
النظري للتصورات ٠٠٠ فى العلوم الأولية ٠٠٠ وفى علم
الطبيعة أيضا ٠٠٠ التصورات تأتي بقيم جديدة ٠٠٠
الخلاصة .

٨٧ - ٧١ الفصل الخامس : المدرك الحسى والتصور سوء استعمال التصورات

المذهب العقلى ٠٠٠ نقائص الترجمة التصورية ٠٠٠
الاحساس لا يقهر ٠٠٠ لم كانت التصورات قاصرة ؟ ...
أصل النزعة العقلية ٠٠٠ القصور فى النزعة العقلية ٠٠٠
أمثلة من الألفاظ التى تقدمها الترجمة التصورية ٠٠٠
موقف الفلاسفة من المصاعب الجدلية ... الشكك وهيجل
٠٠٠ رأى « برادلى » فى المدرك الحسى والتصور ٠٠٠ نقد
« برادلى » ٠٠٠ ملخص .

٩٩ - ٨٩ الفصل السادس : المدرك الحسى والتصور لـواحق

امكان الابتكار ٠٠٠ الأنظمة التصورية مناطق متميزة
من الحقيقة الواقعية ٠٠٠ التماثل الذاتى للموضوعات
الفكرية ٠٠٠ التصورات والمدركات الحسية متحدة ٠٠٠
اعتراض ورد عليه .

١١٥ - ١٠١ الفصل السابع : الواحد والكثرة

التعددية ضد الواحدية ٠٠٠ أنواع الواحدية ٠٠٠
الواحدية الصوفية ٠٠٠ واحدية الجوهر ... نقد الجوهر
٠٠٠ التحليل البرجماتى للوحدانية ... أنواع الوحدانية
٠٠٠ الوحدة بالتسلسل ٠٠٠ وحدة الغرض والمعنى ٠٠٠
وحدة الأصل ٠٠٠ الخلاصة .

١٢٤ - ١١٧ الفصل الثامن : الواحد والكثرة قيم ونقائص

النظرية الواحدية ٠٠٠ قيمة الوحدانية المطلقة ٠٠٠

الصفحة

النظرية التعددية ... نقائصها ٠٠٠ مزاياها ... الواحدية
والتعددية والابتكار .

الفصل التاسع : مشكلة الجودة ١٢٥ - ١٣٠

الجدة فى الادراك الحسى ٠٠٠ العلم والجدة ٠٠٠
التجربة الشخصية والجدة ٠٠٠ الجدة واللامتناهى ٠٠٠

الفصل العاشر : الجودة واللامتناهى ١٣١ - ١٣٩

وجهة النظر التصورية

نظرية التقطع ٠٠٠ نظرية الاستمرار ٠٠٠ نقائص
« زينون » نقائص « كنط » ٠٠٠ غموض بيان « كنط » عن
المشكلة ... حل « رينوثييه » ... هذا الحل يحبذ الجدة ...

الفصل الحادى عشر : الجودة واللامتناهى ١٤١ - ١٥٨

وجهة النظر الحسية

اللامتناهى فى صورة كائنات قائمة ٠٠٠ تعريفه
البرجماطى ٠٠٠ اللامتناهى النامى ٠٠٠ يجب اعتبار
اللامتناهى النامى متقطعا ٠٠٠ اعتراضات ٠٠٠ متصل
العدد ٠٠٠ اللامتناهى الجديد ٠٠٠ اللامتناهى الجديد
متناقض ٠٠٠ الأعداد المابعد المتناهى ... فوائدها وعيوبها
٠٠٠ حل « رسل » لنقائص « زينون » ٠٠٠ نقد هذا
الحل ٠٠٠ التحول التصورى للتجربة الحسية يجعل
اللامتناهى مشكلة ٠٠٠ هذا التحول يترك مشكلة الجدة
حيث كانت .

الفصل الثانى عشر : الجودة والعلية ١٥٩ - ١٧٣

وجهة النظر التصورية

مبدأ العلية ٠٠٠ دراسة « أرسطو » للعلية ٠٠٠
الاسكولاستيكية والعلية الفاعلية ٠٠٠ الاتفاقية ٠٠٠
« ليبينز » ٠٠٠ « هيوم » ٠٠٠ نقد « هيوم » ... الوضعية
٠٠٠ النظرية الاستنباطية فى العلية ... تلخيص ونتائج.

الصفحة

الفصل الثالث عشر : الجودة والعلية ١٧٥ - ١٨٣

وجهة النظر الحسية

النقائص في وجهة النظر الحسية لا تؤيد الشك ...
التجربة الحسية للعلية ... في التجربة الحسية تجتمع
العلية الغائية والعلية الفاعلية ... وتنشأ الابتكارات
... العلية الحسية تضع مشكلة ... وهي مشكلة العلاقة
بين الذهن والمنح ... نتائج .

ملحق : ١٨٥ - ١٩٤

الايان وحق الاعتقاد ... كيف نتصرف مع الاحتمالات
... عالم متعدد أو متحسن .

مقدمة المترجم

وليم جيمس

نشاطه الفكرى من مؤلفاته

عالم من علماء النفس وفيلسوف ، ولد سنة ١٨٤٢ ومات سنة ١٩١٠ . وهو رائد الفلسفة البرجماتية (١) . نشأ فى بيئة مثقفة ، فكان والده ينتمى الى ذلك الرعيل الأول من الحكماء الذين تكتنفهم هالة من غموض ، والذين كانت تزخر بهم أمريكا فى مستهل نشأتها . فهم صوفيون يمتازون باستقلال الشخصية وعمق النظرة ، وهم رهبان فى الحياة العملية ، يعتزّون بفرديتهم اعتزازا لا يفوقه حد ، يقدسون الكرامة ويثبون معانى الاء والشهامة فى نفوس أبنائهم .

وكثيرا ما عانم « وليم جيمس » الاضطراب فى تعليمه وثقافته ، وذلك لتنقل أسرته بين أمريكا والقارة الأوروبية مرارا عديدة . ومع ذلك فقد اجتمعت له ثقافة واسعة محيطة بفضل مجهوده فى القراءة وشغفه بالبحث . وقد التقت فى شخصيته خصال الفنان وصفات العالم وورع التقي المتدين ، وانصهرت جميعها فى بوتقة فكره ، فتمخض عنها فيلسوف عميق النظرة ، جديد الفكرة .

وفى سنة ١٨٧٢ عيّن « وليم جيمس » مدرسا للفسيولوجيا بجامعة

(١) راجع تفاصيل حياة « وليم جيمس » وفلسفته فى كتاب : وليم جيمس
— للدكتور محمد فتحى الشنيطى . القاهرة ١٩٥٧

« هارفارد » ، وظل يحاضر في طلابه أربعة أعوام . بيد أن شغفه كان متجها الى تعمق أسرار النفس وكشف حجبها والوقوف على طاقاتها وامكانياتها . ولذلك سرعان ما انصرف الى علم النفس ، ولكنه أقبل عليه من طريق جديد ، طريق العلم التجريبي . وعلى يد « وليم جيمس » لم يعد علم النفس علما فلسفيا أو علم الفلاسفة العقلية بل غدا علما تجريبيا .

وفي سنة ١٨٧٨ تزوج « وليم جيمس » فبدأت في حياته مرحلة من الاستقرار العائلي بعد مرحلة القلق والارتجال الأولى ، وكان أول ثمرة لهذا الاستقرار كتابه « أصول علم النفس » وهو كتاب ضخيم صدر سنة ١٨٩١ في مجلدين كبيرين . وكان هذا الكتاب فتحا جديدا في ميدان الدراسات النفسانية ، بسط فيه « جيمس » وجهة نظره في دراسة علم النفس دراسة مستندة الى التجربة ومبنية على المعارف البيولوجية والفسيولوجية ، ووجه فيه العناية في ميدان علم النفس بالوظائف ، وتناول التفكير والمعرفة باعتبارهما أداتين نستعين بهما في نضالنا في الحياة . ودافع « جيمس » في دراسته النفسية عن ارادة الانسان الحرة .

وحين أتم « جيمس » كتابه في علم النفس بدا وكأن اهتمامه قد فتر في هذا المجال . ومع أنه كان أول من أنشأ معملا تجريبيا لعلم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية فقد سئم العمل في المعمل ، وأحس أنه لا يوائم طبيعته ولا يلائم مزاجه ، وكان « جيمس » قد أدرك أن علم النفس يبدو موضوعا ضامرا نحيلا أمام مشكلات الفلسفة والدين .

وما لبثت تأملاته أن اتجهت الى طبيعة الله ووجوده ، وخلود النفس وحرية الارادة وقيم الحياة . وقد امتازت دراساته في هذا الميدان بالتجديد

والانطلاق . وذلك لأنه كان ميالا الى التأمل العملى بعيدا عن الخوض
فى المناقشات الجدلية .

فحين استهل تأملاته فى الله ، اتجه اتجاهها مباشرة الى التجربة الدينية
يستطلع فيها طبيعة الخالق ، يمم وجهه نحو البحث النفسانى ليعرف معنى
الخلود بعد الموت .. والى ميادين الاعتقاد والعمل ليثبت حرية الارادة ،
وليدحض النزعة الحتمية .

كان « جيمس » باحثا منقبا فى هذه المبادئ جميعا ، يسير فى مسالك
وعرة تحف بها الأشواك . تراءى له أن البقاء بعد الموت لا دليل عليه .
ولكن وجود الله تسجله التجربة الدينية . فالله هو المنقذ فى الملمات ، وهو
الذى يفرج عنا فى الأزمات . والحرية تراخ فى اوتباط الأشياء بحيث أن
المستقبل لا يتعيّن تعيينا لا مفر منه بالماضى والحاضر . وعلى ذلك فالحرية
تنقذ التاريخ من الهبوط الى محض تكرار سقيم . وقد ظهرت آراء
« جيمس » هذه فيما كتب من مقالات وما ألقى من محاضرات ، وجمعت
فيما بعد فى مؤلفات هامة : « ارادة الاعتقاد » وقد ظهر سنة ١٧٩٧ .
و « خلود النفس » سنة ١٨٩٨ . و « أحاديث الى المعلمين فى علم النفس
والى الطلاب فى المثل العليا للحياة » سنة ١٨٩٩ . و «تنوع التجربة الدينية»
وقد صدر سنة ١٩٠٢ . ويلوح أن هذه الفترة ، كانت فترة دينية فى حياة
« جيمس » الفكرية . فكانت دراساته فيها تتصل من قريب أو من بعيد
بهذا الجانب أو ذاك من جوانب المشكلة الدينية .

ويعد كتابه « تنوع التجربة الدينية » غوصا الى أعماق الحياة
الباطنية وكشفها لحجبها ، وتخليصا للناس من ذلك العبء الثقيل الجاثم
على أنفاسهم ، أعنى عبء العقائد الدينية المتحجرة ، واطلاقا لهم من أسر

هذا النطاق الضيق المحصور الى ميدان واسع فسيح فيه خلاصهم .. فليس ثمة مجال تنعزل فيه النفوس بعضها عن البعض الآخر من مجال الدين الغارق في اللفظية المتورط في الشكلية . وليس ثمة ميدان تغلق على الناس فيه أبواب الفهم فيسئ بعضهم الظن ببعض الآخر ، من ذلك الجو الخائق الذي يكتنفهم في معمعة الجدل الدينى العقيم ^(١) . ان هذه الحواجز التى تفرض على الناس تجعلنا نقطر أسى وحسرة : وقد كان « جيمس » أول من تجح في هدم هذه الحواجز . واتجه اتجاها مباشرا الى صميم التجربة الدينية في عمقها وصفائها .

وقد كان له في هذا المضمار أثر بالغ في مجتمع مزقته الكراهية وأوغر صدور أبنائه بالحق تعدد الأديان واختلاف المذاهب . وحسب « جيمس » أنه كان داعية الى التعاون المتبادل ، وكان رسولا الى المحبة الخالصة والتعاطف بين الناس . وكان مناديا بالاخاء والاخلاص والتوادر رغم اختلاف الأديان وتباين العقائد .

وفي كتابه عن « البرجماتية » عرض واضح لمنهج جديد في التفكير والعمل مستند الى التجربة الأصلية التى حمل لواءها « جيمس » متأثرا بأستاذه في الطبيعيات « أجاسيز » ، وقد ضممتها كتابه « التجربة الأصلية » . فالبرجماتية تتوخى أن تدخل في الفلسفة المنهج العلمى التجريبى الذى انعقد له لواء النصر وثبتت صحته وتحققت فاعليته في كثير من الميادين العلمية ، وذلك بفضل حرصه على التحقيق الفعلى الواقعى لكل فكرة أو نظرية .

(١) ليس فى هذا حملة على الدين فى نقائه وصفائه ، فـجيمس أول من يؤمن بالدين إيمانا نقياً . بيد أنه يضيق ذرعاً بالجدل اللفظى الذى تحتشد به خطب الوعاظ وتحفل به كتب المبشرين فى مختلف مذاهب المسيحية .

والبرجماتية لا تعنى الا بتوضيح المذاهب الفلسفية وتبسيطها لتعود بها جميعا الى مضامينها الواقعية ، ولكنها لا تقف منها موقف الحكم . فالحكم النهائي يظل دائما أمرا شخسيا . فليس غريبا اذن أن يصل المنهج البرجماتى بأصحابه الى نتائج مختلفة غاية الاختلاف .

لقد كان « جيمس » قلبا نابضا فى أعماق الفلسفة الأمريكية المعاصرة . وفى سنة ١٩٠٧ ، ألقى آخر محاضراته فى الفلسفة فى جامعة « هارفارد » . وفى ربيع العام نفسه ذهب الى جامعة كولومبيا فى نيويورك ليلقى محاضراته عن البرجماتية . وكأنما رسول جديد ، قد هبط المدينة ، فقد تراحم الناس بالمناكب لرؤيته والاستماع اليه . وكان بذلك موضع حفاوة وموطن تكريم فى كل مكان حل به ، وكان لهذه الزيارة وقع جميل فى نفسه .

وقد كان أمله أن يصل الى رأى حر فى جميع المشكلات الفلسفية التى طالما أضجرتها وأبرقتة . وقد بدأ تنفيذ هذا المشروع فى الفصول التى جمعت بعد وفاته فى هذا الكتاب الذى نهضنا بترجمته : بعض مشكلات الفلسفة . ولكن القدر عاجله قبل أن يحقق حلمه . وفى هذا الكتاب نظراته الفلسفية وقد اكتمل لها النضج وتحقق الاشراف .

محمد فتحى الشنيطى

القاهرة — نوفمبر ١٩٦٢

الفصل الأول

الفلسفة ونقادها

يرجع الفضل في تقدّم المجتمع الى تفاوت أفراده فيما بينهم في مختلف ميادين الحياة ، وارتفاع أقدار بعضهم عن المتوسط الانساني المألوف ، حتى ان ما يتمثل فيهم من أصالة كثيرا ما يجذب اليهم الأنظار وكثيرا ما يبدو فيه النفع لقومهم بحيث ينزلونهم منزلة القادة ، فيصبحون بناء مثل عليا جديدة ؛ يغبطهم الغير أو يرمقونهم بنظرة اعجاب .

الفلسفة وأولئك الذين يكتبونها

وعلى ما هنالك من تنوّع في هذا المضمار ، يتمخض كل جيل عن أفراد يعنون عناية فذة بالنظر . هؤلاء الأفراد يجدون مادة للحيرة والعجب فيما لا يجد غيرهم . ويتكر خيالهم تفسيرات يؤلف بينها . وهم يختزنون تعاليم زمانهم ، وينطقون بالبشائر والنذر ، وينظر اليهم الناس نظرتهم الى حكماء .

والمعنى اللغوي للفلسفة هو محبة الحكمة ، وهي عمل هذه الطبقة من المفكرين . ذلك العمل الذي ينظر اليه الغير نظرة ملؤها الاعجاب حتى من جانب أولئك الذين لا يفهمون هؤلاء المفكرين ، أو لا يعتقدون في صحة ما يذيعون من آراء .

ما تعنيه الفلسفة

ومن ثمّ تغدو الفلسفة تراثا للجنس البشرى ، وتتنظم في مجموعها

حشدا هائلا من التعاليم . واذا أخذنا الفلسفة بهذا المعنى لم يعد ثمة مبرر لاجراج العلوم الخاصة كالكيمياء أو الفلك من دائرتها . على أن عامة المفكرين قد أجمعوا على تنحية العلوم الخاصة ، لأسباب يتعين علينا شرحها ، وما يبقى بعد ذلك فهو صالح لكى يدرس تحت اسم الفلسفة ويقوم على تدريسه كل انسان اتسعت آفاق اهتماماته .

ولو كان هذا الكتاب الذى أضعه بين أيدي القراء كتابا مدرسيا ألمانيا ، لبادرت بتزويد القارئ بتعريفى المجرد للموضوع ، الذى تم لى تحديد مجاله بعد تمرسى به . ثم شرعت فى بسط « التصور والتقسيم » و « المشكلة والمنهج » (١) . ولكن لما كان ذلك لا يستسيغ فهمه المبتدئون ، وهو غير ضرورى بعد قراءة الكتاب ، فان توخى الاختصار يقتضينا أن نهمل هذا الفصل بتمامه ، وان كان مفيدا للقراء المبتدئين كمجمل لما يليه من فصول .

ومع ذلك فسأتمهل لحظة أمام مسألة التعريف هذه . فلقد غدا اسم الفلسفة بعد أن انحصر مجالها نتيجة لتنحية العلوم الخاصة ، أدل على أفكار لها نطاق عام فحسب . فأصبحت المبادئ التى تفسر الأشياء جميعا دون ما استثناء ، والعناصر المشتركة بين الآلهة والبشر والحيوانات والأحجار ، وأول تساؤل عن بداية الكون وآخر استفسار عن نهايته ، وشروط معرفة الأشياء كلها ، وأعم قواعد الفعل الانسانى . أصبحت هذه المسائل تزودنا بالمشكلات التى توصف بأنها مشكلات فلسفية على الحقيقة . والفيلسوف هو الشخص الذى فى جعبته الكثير ليقوله بصدد هذا .

(١) وردت هذه العبارات بالألمانية فى الاصل الانجليزى . « المترجم »

ويرد تعريف الفلسفة في الكتب المدرسية عادة على النحو التالي :

« معرفة الأشياء في عمومها بعلمها البعيدة ، بقدر ما يستطيع العقل الطبيعي أن يصل الى مثل هذه المعرفة » . ويعنى هذا أن الفلسفة يجب أن تهدف الى تفسير العالم تفسيراً اجمالياً لا الى وصف تفاصيله . ومن هنا تكون النظرة الى شيء ما نظرة فلسفية بقدر ما يتحقق فيها من اتساع الأفق ومن الارتباط بوجهات نظر أخرى ، وبقدر استنادها الى مبادئ بعيدة شاملة لا الى مبادئ قريبة أو بسيطة . ان كل نظرة محيطية للعالم فهي فلسفة بهذا المعنى ، حتى لو كانت نظرة مبهمة . انها موقف فكري تجاه الحياة . ولقد أدلى الأستاذ « ديوى » ^(٢) بوصف رائع لتكوين جميع الفلسفات القائمة في عصرنا حين قال : ان الفلسفة أخرى أن تكون تعبيراً عن موقف معين ، عن غرض معين وعن مزاج معين متصل بالعقل والارادة ، منها بنظام نستطيع ضبط حدوده ضبطاً واضحاً ^(٣) .

(٢) جون ديوى John Dewey (١٨٥٩ - ١٩٥٢) - أشهر فليسوف أمريكي معاصر ، علم من أعلام البرجاطية ، يؤمن بالديموقراطية ويعتز بما في الانسان من طاقة وفاعلية . له نشاط زاخر في مختلف الميادين الفكرية : في الحركة والميتافيزيقا وعلم النفس وعلم الجمال والدين والسياسة والأخلاق والتربية . ويعد بحق ثقة وحجة في كل ميدان من هذه الميادين . ومن أهم كتبه - على سبيل المثال لا الحصر - كيف نفكر (١٩١٠) ، «الديموقراطية والتربية» (١٩١٦) ، «بناء الفلسفة من جديد» (١٩٢٠) ، «التجربة الطبيعية» (١٩٢٥) ، «البحث عن اليقين» (١٩٢٩) ، «الفن كتجربة» (١٩٣٣) .

ارجع الى :

M.H. Thomas : A Bibliography of John Dewey, 1852-1939.

T. Ratner : The Philosophy of John Dewey, 1940.

« المترجم »

(٣) قارن مادة الفلسفة في قاموس «بالدوين» الفلسفة وعلم النفس .

Baldwin; Dictionary of Philosophy and Psychology, (P. 6-1).

قيمة الفلسفة

ان معرفة المواقف الرئيسية المتنافسة ازاء الحياة ، كما نمت وتطورت في سياق تاريخ الجنس البشرى ، والوقوف على الأسباب التى يستند اليها كل موقف منها . كل هذا يجب أن يعدّ جزءا جوهريا من التربية الحرة . وقد تعدّت الفلسفة في معنى من معانيها ، اسما جامعا لروح التربية تعبر عنه كلمة المعهد أو الكلية في أمريكا .

وفي الوسع دراسة الأشياء بطريقة متزمتة جافة أو بطريقة فلسفية . ففى مدرسة فنية صناعية يمكن أن يصل المرء الى أن يكون آلة من المرتبة الأولى في أداء عمل معين ، ولكنه يفتقد دماثة الطبع التى تتم عنها كلمة الثقافة الحرة . وقد يظلّ فظنا منكبا على موضوع واحد ضيق الحدود ، عاجزا عن افتراض شيء آخر مختلف عما يراه ، مفتقرا الى الخيال ، مختنقا ، بعيدا عن البيئة العقلية .

ان الفلسفة تبدأ بالدهشة كما قال أفلاطون وأرسطو ، وهى قادرة بذلك على أن تتخيل كل شيء مختلفا عما هو عليه . فهى ترى المألوف كما لو كان غريبا والغريب كما لو كان مألوفا . وتستطيع أن ترقى بالأشياء الى أعلى وتهبط بها الى أسفل . ان الفلسفة تحيط بكل موضوع وهى توقظنا من سباتنا القطعى ^(٤) وتقوّض من آرائنا المطبوخة . ولو رجعنا

(٤) «سباتنا القطعى» ترجمة عبارة Dogmatic Slumber ومعناها الاستسلام لآراء انتقلت اليها عن السلف ، فلم نعبأ بالبحث فيها وتحليلها . ويجمل بنا هنا أن نفسر كلمة «قطعية» Dogmarism فقد كانت تطلق فى الأصل على كل فلسفة تتشبث بحقائق موضوعية للأشياء ، وعلى ذلك كانت على نقيض الشككية عند اليونان Scepticism . وفى العصور الوسطى كانت تدل على عقائد الكنيسة الصارمة التى لا بد من التسليم بها دون التفكير فيها أو مناقشتها . وقد غدا هذا الاصطلاح عند الفيلسوف الالماني «كنط» دالا على القضايا المتبايزية =

الى التاريخ لرأينا أن الفلسفة كانت على الدوام مرتعا خصبا لأربعة اهتمامات انسانية مختلفة : العلم والشعر والدين والمنطق .

وقد بحثت الفلسفة بالاستدلال الشاق عن نتائج لها قيمتها العاطفية . فالاحتكاك بالفلسفة وادراك تفوذها يعود بالخير على طلاب العلوم والآداب معا . فالفلسفة بشعرها تناجي الأذهان الأدبية ، ولكن منطقها يقوم عودها ويدأوى طراوتها . والفلسفة بمنطقها تناجي الأذهان العلمية ولكنها تنعشها بمجالاتها الأخرى ، وتنقذها من الآلية الفنية الجافة غاية الجفاف . وعلى ذلك فطلاب الآداب والعلوم ينبغي أن يلتمسوا عند الفلسفة روحا منتعشا بالحياة ، وهواء طليقا وأساسا عقليا أصيلا .

« أئمة فلسفة فيك أيها الراعي ؟ » : — هذا السؤال الذي ألقاه « تشيستون » ، هو السؤال الذي ينبغي أن يلقيه كل انسان على الآخر . فالانسان بدون فلسفة فيه يغدو أبأس الناس وأشقاهم في المجتمع .

لم أذكر فيما ذكرت شيئا عما يمكن أن ندعوه التمرس بالدراسات

= التي انتهى اليها أصحابها دون نقد عقلي سابق تستند اليه . وبذلك غدت «النقدية الكنتية» عدوا لدودا «للقطعية» ، وجرت مثلا عبارة «كنط» في كتابة «المقدمات» : «لقد أيقظني هيوم من سبباتي القطعي اذ نبهني لقيمة التجربة وضرورة النقد» . ويذكر «داجوبرت رونز» في قاموسه الفلسفي أن «القطعية» تدل في أيماننا هذه على التسليم بمبادئ عامة والتشبهت بها مع اغفال صلتها والتجربة .

ارجع في ذلك الى ص ٢٣٥ - ٢٣٦ من :

A. Lalande : Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie. (Paris 1936).

Dagobert Runes : Dictionary of Philosophy.

(N.Y. 1942)

« المترجم »

الفلسفية كما تتمرس بالرياضات البدنية (٥) . فثمة قوة فكرية خالصة نجنيها من تعريف أعلى تصورات الفيلسوف وأشدّها تجريداً ، ومن التمييز بين التصورات .

أعداء الفلسفة واعتراضاتهم

وبرغم المزايا التي عددناها فإن لدراسة الفلسفة أعداء يرعوا في تنظيم صفوفهم ، وهم لم يبلغوا من كثرة العدد ما بلغوا في أيامنا هذه . والمسئول عن ذلك الى حد ما ، ما حققه العلم من انتصارات حاسمة ، وما يلوح في نتائج الفلسفة من تميّع ، هذا اذا ضربنا صفحا عن فظاظة عقل الانسان المركوزة فيه ، والتي تجعله يولع ولعا خبيثا بأن يلوك كلمات طويلة المقاطع ومجردات . فان « الرطانات الاسكولاستيكية » و « جدليات العصور الوسطى » ترادف عند كثير من الناس كلمة فلسفة .

وقد قورن الفيلسوف في تأملاته الغامضة المفتقرة الى اليقين في أعماق طبيعة الأشياء وعملها : « رجل أعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قبعة سوداء لا وجود لها هناك » ، وقد وصف عمله بأنه : « اساءة استخدام مقصودة لمصطلحات ابتكرها الانسان خصيصا لهذا الغرض » (٦) .

وقد يكون هذا العداء للفلسفة معقولا ، ولكن بدرجة محدودة جدا . وفيما يلي سأتناول بعض الاعتراضات الجارية على التعاقب ، اذ في الاجابة عليها طريقة ملائمة للنفاد الى لبّ موضوعنا .

(٥) في الأصل The gymnastic use of Philosophic study

« المترجم »

(٦) وردت هذه العبارة بالالمانية في سياق الأصل الانجليزي . « المترجم »

الاعتراض القائل بأن الفلسفة ليست عملية

الاعتراض الأول : بينما يحقق العلم تقدما مطردا ، ويفضى الى تطبيقات ذات نفع بالغ ، لم تسجل الفلسفة تقدما ما ، وليس لها تطبيقات عملية .

الرد عليه : هذا الاعتراض لا يقوم على أساس عادل . ذلك لأن العلوم ذاتها فروع من شجرة الفلسفة . وبقدر ما نجيب على الأسئلة اجابة دقيقة ، يقدر ما تعتبر هذه الاجابات اجابات علمية . وان ما يطلق عليه الناس اليوم « فلسفة » ، هو ما بقى من أسئلة ظلت دون ما اجابة . وفي هذه اللحظة نرى علمين ، هما علم النفس وعلم الحياة ، ينفصلان عن جذع الأم ويستقلان ويتخذان لهما جذورا مستقلة تجعل لكل منهما اختصاصه . ان الفلسفة أعم ، فهي لا تستطيع — كقاعدة — أن تتبع التفاصيل المحتشدة في أى علم من العلوم الخاصة .

هذا الاعتراض فى ضوء التاريخ

ونظرة الى الوراثة نلقينا على تطور الفلسفة تسعفنا هنا . فالفلاسفة الأوائل فى كل بلد من البلاد كانوا حكماء يحملون دوائر معارف فى عقولهم وهم عشاق للحكمة ، ويكون لهم أحيانا اهتمام أخلاقى أو دينى يغلب على نظرهم للأشياء ، وأحيانا لا يكون لهم هذا الاهتمام .

كانوا مجرد أناس يتطلعون الى ما وراء الحاجات العملية المباشرة ، ولم يكن اختصاصهم منصبا على مشاكل جزئية قدر ما هو منصب على المشكلات العامة ، ولقد كان للصين وفارس والهند مثل هؤلاء الحكماء ؛ بيد أن حكماء اليونان هم الحكماء الوحيدون الذين كان لهم تفوذهم ، الى عهد قريب جدا على مجرى الفكر الغربى . لقد دامت الفلسفة اليونانية

الأولى حوالى مائتى وخمسين عاما على التقريب أى منذ سنة ١٦٠٠/ق . م الى ما بعدها ، وكان طاليس وهرقليطس وفيثاغورس وديموقريطس رياضيين ورجال دين وساسة ، وعلماء فلك وطبيعة ، فقد كان العلم — على حاله فى زمانهم — فى متناول أيديهم . وقد واصل أفلاطون وأرسطو السير على الدرب ، ووسّع كبار فلاسفة العصور الوسطى نطاق هذه الدراسات فى مجال التطبيق . فاذا اتجهنا الى القديس « توماس الاكوينى » فى كتابه « المجمع » ، وقد كتب فى القرن الثالث عشر ، وجدنا آراء تكاد تحيط بكل شىء ، تهبط من الله الى المادة مارة فى طريقها بالملائكة والبشر والشياطين . وتتوالى المسائل فى هذا الكتاب ليأخذ كل منها نصيبه من الدراسة ، فتشمل العلاقات التى تكاد تربط بين الأشياء جميعا أحدها والآخر ، بين الخالق ومخلوقاته ، والعارف والمعروف ، والجواهر والصور ، والعقل والبدن ، والاثم والخلاص . فثمة فى هذا الكتاب لاهوت ، وعلم نفس ، ومذهب للواجبات والأخلاق ، فى جميع تفاصيله ، بينما يستقيم للطبيعة والمنطق مبادئها الكلية .

والانطباع الذى تخلفه قراءة هذا الكتاب فى قارئه ، هو أن ثمة منابع عقلية أعلى من الانسان . والحق أن منهج القديس توماس فى تناوله للواقع ، أو ما افترض أنه الواقع فى كليته ، يختلف عن المنهج الذى تألفه . فهو يقيس كل شىء ويبرهن عليه ، اما من مبادئ عقلية ثابتة أو من الكتاب المقدس . نأخذ مثلا على ذلك أنه فسّر صفات الأشياء وما يعتريها من تغيرات بمبدأين هما مبدأ الصورة ومبدأ الهيولى كما علمنا أرسطو . فالهيولى عنصر كمتى قابل للتحدّد منفعل ، والصورة مبدأ كفى موحد محدّد فعّال . وكل نشاط له نهاية ، والأشياء لا يؤثّر بعضها فى البعض

الآخر الا حين يتم بينها احتكاك . وأنواع الأشياء وأجناسها محددة العدد واختلافاتها منفصلة (٧) .

ومع بداية القرن السابع عشر سئم الناس المناهج الأولية التي جرى عليها المدرسيون . وقضت أبحاث « سوارز » (٨) على قيمة هذه المناهج . بيد أن فلسفة ديكارت الجديدة التي خلعت تعاليم المدرسين عن عرشها ، وانتشرت في أوروبا انتشار النار المتأججة ، ظلت محتفظة بالطابع الأنسيكلوبيدى . فنحن في أيامنا هذه نذكر « ديكارت » على أنه فيلسوف الميتافيزيقا الذى قال : « أنا أفكر اذن فأنا موجود » ، والذى فصل الفكر عن المادة باعتبارهما جوهرين متعارضين ، والذى أمدنا ببرهان

(٧) يزودنا «ريكابى» Rikaby . فى كتابه : الميتافيزيقا العامة .

General Metaphysics (Longmans, Green & Co.)

بتفسير شعبى للدراسات الجوهرية فى فلسفة القديس توماس الطبيعية .
ويذهب توماس هاربر Th. J. Harper فى كتابه : ميتافيزيقا المدرسة
Metaphysics of School - الى أدق التفاصيل .

(٨) فرانثيسكو سوارز Francisco Suarez (١٥٤٨ - ١٦١٧) . وتقوم فلسفته على أسس أرسطية مسيحية . وقد عرض مذهبه فى كتابه «مجادلات فلسفية» Disputationes Metaphysicae ، فكان كتابا جامعا لآرائه فى الميتافيزيقا والنفس والمعرفة والوجود واللاهوت

ويذهب «سوارز» الى أن اللاهوت لا يعد جزءا من الفلسفة ، بل هو علم أسمى يستمد مبادئه من الوحي الالهى . والانسان فى نظره مخلوق حر مسئول عما يصدر عنه من أفعال بمحض اختياره . ويكون الانسان على احاطة بالمبادئ الأصلية من القانون الالهى حين يحسن استخدام عقله . وعلى ذلك فالقانون الالهى يغنى - بعد معرفة الانسان له على هذا النحو - قانونا طبيعيا للأخلاق ، والأخلاق عند «سوارز» تزود التعاليم المسيحية الاخلاقية بأساس عقلى .

راجع تفصيل ذلك فى ص ٣٠٢ - ٣٠٣ من

Runes : The Dictionary of Philosophy, (N.Y. 1942).

« المترجم »

محدد عن وجود الله . ولكن معاصريه ظنوا به أكثر من ظننا اليوم بهربرت
سبنسر الذى نعهده الباحث التطورى الكونى الذى فسّر باعادة توزيع المادة
والحركة ويقوانين التصادم ، حركات الأفلاك الدائرية ، ودورة الدم ،
وانكسار الضوء ، وجهاز البصر ، والفعل العصبى ، وانفعالات النفس ،
والصلة بين الذهن والبدن .

وقد مات ديكارت سنة ١٦٥٠ وبصدر كتاب لوك « مبحث فى العقل
البشرى » سنة ١٦٩٠ ، اتجهت الفلسفة لأول مرة اتجاها يكاد ينصب اهتمامها
فيه على مشكلة المعرفة ، وغدت بذلك فلسفة نقدية . وبالرغم من أن مدرسة
« لينز » الذى كان مثالا للحكيم الذى يحيط بالمعارف كلها فى نظرة شاملة
— ظلت محتفظة بطابع الكلية والشمول — ، فقد نشر « وولف » ، وهو من
أتباع « لينز » ، أبحاثا منظمة فى جميع الموضوعات طبيعية وأخلاقية على
حد سواء — فان هيوم الذى أعقب « لوك » أيقظ « كنط » من سباته
القطعى . ومنذ عهد « كنط » وكلمة فلسفة صارت تدل على التأملات العقلية
والأخلاقية أكثر من دلالتها على النظريات الطبيعية . وكانت الفلسفة الى عهد
قريب تدرس فى معاهدنا تحت عنوان « الفلسفة العقلية والأخلاقية »
أو « فلسفة العقل البشرى » فحسب ، للتمييز بينها وبين الفلسفة الطبيعية .
يبد أن العرف القديم أفضل وأكمل . فان معرفة المميزات القائمة للعالم
الذى ولدنا فيه تستوى ، يقينا ، فى الأهمية مع معرفة العلة التى تجعل أنماطا
من العالم ممكنة — على أية حال — امكانا مجردا ، يبد أن هذه المعرفة
الأخيرة تناولها الكثيرون ، منذ عهد « كنط » ، على أنها المعرفة الوحيدة
التي تستأهل أن نطلق عليها اسم المعرفة الفلسفية . وعامة الناس يحسون
بأن السؤال التالى : ماذا تشبه الطبيعة ؟ لا يقل شأنا عن سؤال « كنط »
كيف تكون الطبيعة ممكنة ؟ وعلى ذلك ينبغى للفلسفة ، لكيلا تفقد توقير

الانسان لها ، أن تدخل في اعتبارها التكوين القائم للواقع . وثمة دلالات في
آيانا هذه على عودة الفلسفة الى موقفها القديم وهو موقف أقرب الى الطابع
الموضوعي ^(٩) .

الفلسفة هي تفكير الانسان

ان الفلسفة ، في أملى معنى لها هي تفكير الانسان فحسب : تفكيره في
العموميات أكثر من تفكيره في الخصوصيات . بيد أنه سواء أكان الأمر أمر
عموميات أو خصوصيات ، فالانسان يفكر دائما متبعا نفس المناهج . فهو
يلاحظ ، ويميز ويعمم ويصنف ويبحث عن العلل ، ويسوق الأمثلة ويضع
الفروض . والفلسفة مأخوذة على أنها شيء متميز من العلم أو الشئون
العملية لا تتبع منهجا خاصا بها ، فان تفكيرنا كله في آيانا هذه قد خرج
تدرجيا من التفكير الانساني البدائي . والتغيرات الوحيدة الهامة التي
طرأت على طريقته ، (متميزا من الأمور التي يعتقد فيها) ، هي قسط
أعظم من التردد قبل تأييد ما كان مقتنعا به من قبل ، وعادة البحث عن التحقق
من صحة معتقداته كلما أمكن ذلك ^(١٠) .

وقد يكون من المفيد في تثقيفنا أن نتبع في عجالة سريعة أصول عاداتنا
الحاضرة في التفكير .

اصل وسائل الانسان الحالية في التفكير

قال « أوجست كونت » مؤسس الفلسفة التي أطلق عليها اسم الفلسفة

(٩) للاطلاع على دفاع رائع في هذا الصدد ، أحيل قرائي الى كتاب
« بولسن » : المدخل الى الفلسفة .

Poulsen : Introduction to Philosophy. (translated by Thilly) 1895. p.p. 19-44.

(١٠) قارن في ذلك الفصل الرابع من : G.H. Arwis : Artistotle, (1864)

الوضعية (١١) • ان النظرية الانسانية فى أى موضوع من الموضوعات تتخذ دائما ثلاثة صور على التعاقب (١٢) : ففي المرحلة الدينية تفسر الظواهر بأنها تتولد عن الأرواح ، وفى المرحلة الميتافيزيقية تستبان قسماتها الجوهرية فى فكرة مجردة ، وتقف هذه الفكرة المجردة وراء الظواهر كما لو كانت تفسيراً لها . وفى المرحلة الوضعية توصف الظواهر فحسب من حيث تزاملها وتعاقبها . وبمجرد صياغة « قوانينها » لا يكون هنالك داع للبحث عن تفسير لطبيعتها أو لوجودها . وعلى ذلك فيمكن أن نعد « الروح القائدة » شيئاً دينياً ، و « مبدأ الجذب » موضوعاً ميتافيزيقياً ، بينما « قانون المربعات » نظرية وصفية فى حركة الأفلاك .

وتفسير « كونت » موغل فى الحسم والقطع . فعلم الأجناس يظهر لنا أن أولى محاولات الانسان للبحث عن النظريات كانت نظريات يمتزج فيها العنصر الدينى بالعنصر الميتافيزيقى فالأشياء العامة المألوفة لا تحتاج الى تفسير خاص . وانما الأشياء التى تستدعى الانتباه وحدها ، أعنى الأشياء الغريبة ، وبخاصة الموت والنكبات والأمراض هى التى تستلزم تفسيراً . وثمة طاقة غامضة تحرك الأشياء الى العمل ، وكلما كانت الأشياء أقطع ، كان حظها من الروح أكثر من غيرها . وقد كان شيئاً عظيماً أن يملك الانسان الروح . ان السحر السمبىتاوى هو الاسم الجامع لما كان يلوح أنه الفلسفة البدائية . فأنت تستطيع أن تؤثر فى أى شىء بأن تتحكم فى شىء آخر متصل به أو مشابه له . فاذا رغبت فى أن تصيب عدواً بمكروه ، فاما أن يكون لديك

(١١) أوجست كونت : دروس فى الفلسفة الوضعية • (باريس ١٨٣٠ -

١٨٤٢) A. Comte : Cours de Philosophie Positive. (Paris 1830-1842)

(١٢) راجع فصلاً عن «الوضعية» فى كتاب : المعرفة • للمترجم ص

٩٨ - ١٠٥ ط ٠ ث القاهرة ١٩٥٧

صورة له أو خصلة من شعره أو أى شىء ينتمى إليه ، أو تكتب اسمه . وأنت اذا أصبت البديل بمكروه فسيئآلم عدوك بالتبع . فاذا شئت أن تهطل الأمطار فما عليك الا أن تذر الأرض ، واذا رغبت فى أن تعصف الرياح فما عليك الا أن تصفر — .. الخ . واذا رغبت فى أن تنمو البطاطس فى حديقتك فما عليك الا أن تضع حجرة شبيهة بالبطاطس فى المكان الذى تريدها أن تنمو فيه . واذا شئت أن تشفى مريضا من الصفراء فما عليك الا أن تعطيه عقارا أصفر يلوّن الأشياء بهذا اللون ، أو أعطه خشخاشا اذا أصابه الصداع ، ذلك لأن أوعية حب الخشخاش لها شكل الرأس . هذه النظرية « نظرية البصمات » لعبت دورا عظيما فى الطب فى بدايته الأولى . والتنبؤات والتكهنات على اختلاف ألوانها تدخل هنا فى هذا الميدان الذى تختلط فيه الفراسة بالسحر والعلم البدائى اختلاطا لا يتميز فيه الواحد منها من الآخر . والنظريات السمبتاوية لا زالت قائمة الى يومنا هذا ، وثمة مدرسة معاصرة فى الفلسفة العملية — وهى مدرسة جديدة فى جملتها — تعتبر الأفكار هى الأشياء . وشعار هذه المدرسة هو : استثمار الفكرة التى ترغب فيها وأيتها ، فستجلب لك من كل مكان كل الأفكار المشابهة لها لتدعيمها . وبذلك تتحقق رغبتك فى النهاية (١٣) .

وقد بدأت الطرائق الألصق بالوضعية تسود شيئا فشيئا فى دراسة الأشياء

(١٣) قارن «برنتيس ملفرد» Prentice Unegrs وآخرين من «مدرسة الفكر الجديد» . وفى السحر السمبتاوى البدائى راجع :

J. Jastrow : Fact and Fable in Psychology. Analogy

الفصل الخاص بالتمثيل

F.B. Jevons : Introduction to the History of Religion

الفصل الرابع

J.G. Frazer : The Golden Rough, i, 2.

R.R. Marett : The Threshold of Religion passim.

A.O. Lovejoy : The Monist. xvi, 357.

وأخذت العناصر المشتركة بين الظواهر تبرز وتضع أساس التعميمات المنصبة عليها . ولكن كان من الضروري لهذه العناصر أن تكون من البداية متصلة اتصالاً وثيقاً باهتمامات الإنسان وحياته .

كان الحار والبارد والرطب والجاف في الأشياء يفسّر سلوكها . فبعض الأجسام دافئ بطبعه ، وبعضها الآخر بارد . والحركات اما طبيعية أو عنيفة . والأفلاك تتحرك في دوائر ، ذلك لأن الحركة الدائرية هي أكمل الحركات طرّاً ، وفسّرت الرافعة بأن ثمة كمية أعظم من الكمال كائنة في حركة ذراعها الطولي (١٤) . والشمس تذهب شتاء الى الجنوب لتنجو من البرد وللأشياء الثمينة الجميلة خصائص استثنائية . ولحم الطاووس يقاوم العفن . وحجر المغناطيس ينفذ الحديد الذي يحمله باقتراب ماسة أقوى مفعولاً منه .

قد تبدو لنا أمثال هذه الأفكار مثيرة للضحك ، ولكن هبّ أننا لم تصلنا آثار عن أسلافنا الذين اشتغلوا بالعلم ، فكيف يا ترى كان في وسعنا أن نضع يدنا على مشاهد في الطبيعة نصطفيها لتعيننا على فهم الأشياء ؟

فالي بداية القرن السابع عشر لم يكن أبسط انتظام في الأشياء يجذب انتباه الناس بعيداً عن الصفات التي اتهموا إليها في الأصل . وقليل من بيننا من يدرك قصر عهد ذلك الذي يعرف باسم « العلم » . فمنذ ثلاثمائة وخمسين عاماً لم يكن أحد يكاد يعتقد في نظرية « كوبرنيكس » في الكواكب . ولم تكن المجموعات البصرية قد اكتشفت بعد . وكان الناس يجهلون دورة الدم ، ووزن الهواء ، وتوصيل الحرارة وقوانين الحركة . لم تكن هنالك

(١٤) راجع في العلم عند اليونان .

W. Whewell : History of the Inductive Sciences.

الجزء الأول الكتاب الأول

G.H. Lewes : Aristotle, passim.

ساعات ، ولم يكن هنالك مقياس للحرارة ، ولم يكن هنالك جاذبية عامة ..
وكان العالم قد بلغ من العمر اذ ذاك خمسة آلاف سنة . كان الاعتقاد أن
الروح هى التى تحرك الكواكب ، وكانت الكيمياء القديمة والسحر والتنجيم
متسلطة على عقائد الناس .

وقد بدأ العلم الحديث بعد سنة ١٦٠٠ فقط ، بدأ مع « كبلر »
و « جاليليو » و « ديكارت » و « توريشلى » و « بسكال » و « هارفى »
و « نيوتن » و « هوجنز » و « بويل » . انتقلت المكتشفات التى اشتهرت
بها حياة خمسة رجال من الواحد منهم الى الآخر على التعاقب ؛ ثم غدت
جميعها بين أيدينا : فلا بد أن « هارفى » أنبأ « نيوتن » ، و « نيوتن »
بدوره أنبأ « فولتير » ، و « فولتير » أنبأ « دالتون » ، و « دالتون » أنبأ
« هكسلى » ، و « هكسلى » أنبأ قراء هذا الكتاب .

فالرجال الذين بدأوا هذا العمل لتحرير العقل البشرى كانوا فلاسفة
بالمعنى الأصيل لكلمة فلسفة ، أعنى كانوا حكماء أعلاما .

العلم فلسفة متخصصة

ذكر لنا « جاليليو » أنه أتق في الفلسفة من السنوات عددا أكبر من
الشهور التى آتقها في الرياضيات . و « ديكارت » كان فيلسوفا جامعاً
بأمل معنى للكلمة . بيد أن خصب التصورات والأفكار الحديثة جعلت
المجالات الخاصة في المعرفة تنمو وتزدهر الى درجة احتشدت معها
بالتفاصيل ، بحيث لم يعد في طاقة الأذهان أن تستوعبها . وعلى ذلك بدأت
العلوم الخاصة كالميكانيكا والفلك والطبيعة تنفصل عن أمها .

ولم يكن لأحد أن يسبق الى التنبؤ بهذا الخصب الفذ الذى حققته
تلك العبقريات في أبسط جوانب الرياضيات . ولم يكن لأحد أن يحطم

بذلك التحكم في الطبيعة الذي أفضى اليه البحث عما يجرى فيها من تغيرات . والقوانين تصف هذه التغيرات ، وجميع القوانين الحاضرة في الطبيعة لها نموذجها في النسبة التي اكتشفها « جاليليو » بين سرعة الضوء وزمنه $\frac{c}{z}$ والنسبة بين المسافة ومربع الزمن $\frac{1}{z^2}$ وقد كانت مكتشفات « بسكال » في نسبة الارتفاع الى الضغط الجوى ، و « نيوتن » في النسبة بين السرعة ^(١٥) والمسافة ، و « بويل » في العلاقة بين حجوم الغازات وضغطها ^(١٦) واكتشاف « ديكارت » للنسبة بين جيب الزاوية (ج) وجيب تمامها (جتا) في الشعاع المنكسر ، كانت كل هذه المكتشفات الثمرات الأولى لاكتشافات « جاليليو » . فلم يكن هنالك مجال للتساؤل عن وسائل ، ولم يكن هنالك اتجاه نحو علة حسية أو عاطفية . في هذه الطريقة الجديدة في تناول الطبيعة ، كان المجال منفسحا أمام وصف التغيرات المتلازمة بعد أن تم بنجاح استخلاص المبدأ العام من دراسة الكميات الخاصة المتغيرة . ولم تلبث النتيجة أن اتضحت في التمييز بين دائرتين في المعرفة الانسانية : دائرة يطلق عليها « العلم » وتطبق في ميدانها أدق القوانين ، ودائرة أخرى هي الفلسفة العامة ، ولا تطبق فيها قوانين . ونتيجة ذلك ، الاتجاه الوضعي في التفكير ، وانطلاق الصيحة : « لتسقط الفلسفة » أطلقتها حناجر عدد لا يحصى من المشتغلين بالعلم . وكانوا ينادون : أعطونا وقائع قابلة للقياس ، أعطونا ظواهر لا يتدخل العقل فيها ، ودون كائنات أو مبادئ تزعم أنها تفسرها . ومن هذا النمط في التفكير نبع الاعتراض بأن الفلسفة لم تسجل أى تقدم .

« المترجم »

(١٥) ترجمة acceleration

« المترجم »

(١٦) الحجم x الضغط = كمية ثابتة

الفلسفة هي ما تبقى من مشكلات لم يجد لها العلم حلا

ومن الجليّ أنه لو كانت كل خطوة تخطوها الفلسفة الى أمام ، وكل مسألة تجد لها اجابة دقيقة تنضاف الى ذخيرة العلم ، لانهصر مجال الفلسفة فيما يرسب من المسائل التى لم تجد حلا . والواقع أن هذا هو بالضبط ما يحدث ، فقد غدت الفلسفة اسما جامعا لمسائل لم نصل بعد الى اجابات بصدها ، اجابات تشفى غلّة كل الذين أثاروها . وليس يقتضى هذا أن بعض المسائل لن تتقدم بتاتا لأنها ظلت ألغى عام لا تجد جوابا ؛ فقد لا يساوى ألفا عام فقرة واحدة فى رواية المغامرات العظيمة التى ندعوها تاريخ العقل البشرى . فان الفضل فى ذلك التقدم الفذّ الذى حققته الأعوام الثلاثمائة الأخيرة راجع بالأحرى الى العثور فجأة على طريق تدرس فيه طائفة من المسائل التى لم يمكن تناولها تناولا رياضيا . ولكن الزعم بناء على هذا بأن الفلسفة الوحيدة الممكنة يتحتم أن تكون فلسفة ميكانيكية أو رياضية ، والاستخفاف بكل بحث فى أنماط المسائل الأخرى ، ان هذا ليعنى أننا ننسى ما هنالك من تعدد بالغ فى المجالات التى تكمن وراءها — دون شك — الحقيقة الواقعية . فلا ريب أن الفلسفة تجد طريقها الى المسائل الفكرية ، وقد وجدت طريقها من قبل فى هذا المجال الى حد ما . بل ان العلم قد سجّل فى بعض المجالات تقدما أقل مما سجلته الفلسفة ؛ فان أهم تصورات العلم لن يندهش لها أرسطو أو ديكارت لو بعثا الى الحياة من جديد . فتأليف الأشياء من عناصر ، وتطورها ، والاحتفاظ بالطاقة ، وفكرة حتمية شاملة ؛ قد يلوح لهما هذا كله أمرا مألوفا . وقد تكون الأشياء الصغيرة كالмикروسكوبات والأضواء الكهربائية والتليفونات وتفاصيل العلوم ، وجزئياتها أشد اثارة لاتباهما . ولكنهما اذا فتحا كتابا من كتب المتألفين ، أو زارا قاعة من قاعات الدراسة الفلسفية ، فقد يكون لذلك

وقع غريب عندهما . فان موقف عصرنا كله ، ذلك الموقف المثالي أو النقدي قد يبدو فيه جدّة وطرافة لهما ، وسيستغرقان وقتا طويلا قبل أن ينفذا الى لَبّه (١٧)

الاعتراض الثاني :

الفلسفة قطعية ، وتزعم أنها تقرر أحكامها في الأشياء على أساس العقل الخالص ، على حين أن الطريقة الوحيدة المجدية للوصول الى الحقيقة هي الاستعانة بالتجربة العملية . فالعلم يجمع الوقائع ويصنّفها ويحلّلها ، وهو من ثمّ يسبق الفلسفة سبقا بعيد المدى .

الرد على الاعتراض :

لا حاجة بالفلسفة الى القطعية

هذا الاعتراض صحيح من الوجهة التاريخية . فقد استهدف عدد كبير من الفلاسفة وضع مذاهب مغلقة ، بنيت بناء أوليّاً ، تدعى العصمة ؛ وهي اما أن تقبل أو ترفض ككل . والعلوم من جهة أخرى — اذ لا تستخدم الا الفروض ، وتسعى دائما لتحقيقها بالتجربة والملاحظة — تفتح الطريق الى التصحيح المتصل ، والنمو المتّرد .

وقد اشتدت في أيامنا هذه ورطة القطعيين الذين يدعون الكمال لمذاهبهم ، فلم يعودوا يجدون آذانا صاغية لهم في الأوساط المثقفة . ان الفرض وتحقيقه هما كلمتا السر في العلم ، وقد رسخا رسوخا متأصلا في العقول الأكاديمية .

(١٧) يجد القارئ كل ما قلته في هذا الموضوع ، وأكثر مما قلت ، معروضا في مقال ممتاز كتبه «جيمس وارد» عن : «تقدم الفلسفة» . انظر في ذلك :

Mind, vol. 15. no. Iviii : "The Progress of Philosophy".

ولما كان الفلاسفة هم وحدهم الذين يفكرون في الأشياء بأشدّ الوسائل عقلية ، فانهم يستطيعون أن يستخدموا أى منهج أيّا كان بحرية . ويجب على الفلسفة — على أى وجه — أن تكمل العلوم وأن تدمج مناهجها . ولسنا ندرى لم لا تنتصح الفلسفة بهذه السياسة وتنتهى الى القضاء على كل قطعية قضاءً نهائياً ! وتغدو فلسفة فروض في طرائقها ، شأنها شأن أشدّ العلوم تجريبية .

الاعتراض الثالث :

الفلسفة تنأى عن الحياة الواقعية وتستبدل بها المجردات ، والعالم الواقعي عالم متنوّع متعدّد مؤلم . وقد اعتاد الفلاسفة في الأغلب أن يتناولوه على أنه عالم نبيل بسيط كامل ، متغاضين عن تعقّد الوقائع ، متسامحين في ضرب من التفاؤل عرّض مذاهبهم لآزدراء عامة الناس ، ولسخرة بعض الكتاب « كقولير » و « شوبنهاور » . والفضل في نجاح « شوبنهاور » نجاحاً شعبياً راجع الى أنه كان أول الفلاسفة حديثاً عن الحقيقة المجسّمة العملية المتمثلة في مآسى الحياة وأوزارها .

الرد على الاعتراض :

وليس الفلاسفة منفكة عن الواقع

هذا الاعتراض صحيح أيضاً من الوجهة التاريخية . ولكن ليس ثمة سبب واضح لكون الفلسفة تظل بعيدة على الدوام عن الواقع . فقد تتغير طرائقها ، بتطورها تطورا ناجحاً . والتجريدات الدقيقة النبيلة قد تفتح الطريق الى صروح متينة واقعية عند التأكد شيئاً فشيئاً من المواد والمناهج اللازمة لبناء هذه الصروح . فضلاً عن أن الفلاسفة قد يحتكون بوقائع الحياة احتكاك الروائيين الواقعيين الوثيق بها .

والخلاصة أن :

الفلسفة ميتافيزيقا

والخلاصة أن الفلسفة في مفهومها الأصلي تعنى أتمّ معرفة بالعالم ؛ فهي تنطوى على نتائج العلوم كلها ، ولا يمكن أن تتعارض معها . وهى تهدف ببساطة الى أن تجعل من العلم ما يدعوه « هيربرت سبنسر » : « منهجا لمعرفة متحدة اتحادا تاما » (١٨)

والفلسفة في معنى أحدث تدل على « الميتافيزيقا » ، وتعنى ما يتعارض مع العلوم . والمعنى الأقدم هو الأفضل ؛ وكلما أصبحت نتائج العلوم أكثر قابلية للاتساق ، وكلما اتخذت شروط العثور على الحقيقة في مختلف أنواع المسائل طابعا منهجيا أكثر اتضاحا ، كان أملنا في عودة كلمة فلسفة الى معناها الأصلي . حينئذ ينتظم جسم واحد كلا من العلوم والميتافيزيقا والدين ، وتتبادل العون فيما بينها .

ولما كان هذا الأمل ما برح في اللحظة الحاضرة بعيدا عن التحقيق . فأننى سأتوخى في هذا الكتاب أخذ الفلسفة في النطاق الضيق ، أعنى الميتافيزيقا ، وأترك الدين ونتائج العلوم جانبا .

(١٨) انظر في ذلك الفصل الرائع الذى كتبه «سبنسر» فى كتابه : المبادئ

الأول وعنوانه «تعريف الفلسفة» H. Spencer : First Principles

الفصل الثاني

مشكلات الميتافيزيقا

نماذج من المشكلات الميتافيزيقية

ليس من الممكن أن نصل الى تعريف دقيق لكلمة (ميتافيزيقا) . وأفضل سبيل للإلمام بمعناها هو أن نذكر بعض المشكلات التي تتصدى لها . فهي تعنى بمناقشة مسائل متنوعة غامضة مجردة ، عامة ، تثيرها العلوم والحياة في عمومها دون أن تجد لها حلا . وقد تركت هذه المسائل جانبا كما هي ، وهي مسائل كل منها واسع عميق ، ومتصل بالأشياء في جملتها أو بالعناصر النهائية لها .

فلا تنتظر مني إذن تعريفا ، ودعني أعرض عليك حيثما اتفق بعض نماذج من هذه المسائل :

ما هي الأفكار وما هي الأشياء ؟ وكيف يكون الاتصال بينها ؟ ماذا نعني حين نقول الحقيقة ؟ أهنالك خامة مشتركة تصنع منها جميع الوقائع ؟ كيف كان هنالك عالم ، وهل كان ممكنا ألا يكون هنالك عالم ؟ ما هو النوع الحقيقي للحقيقة الواقعية ؟ ما الذي يربط الأشياء جميعا في عالم واحد ؟ هل الوحدة أم التعدد أشد جوهرية ؟ هل للأشياء جميعا أصل واحد ؟ أم أصول كثيرة ؟ هل كل شيء مقدور ، أم أن بعض الأشياء — ارادتنا مثلا — حرة ؟ هل العالم لا متناه أم متناه في جملته ؟ هل أجزاؤه متصلة أم أن هنالك فراغا ؟ ما الله ؟ كيف يتحد الذهن والبدن ؟ وهل يؤثر

كل منهما في الآخر ؟ كيف يؤثر شيء ما في شيء آخر ؟ كيف يتغير شيء ما أو ينمو من شيء آخر ؟ هل المكان والزمان من الوجودات أم ماذا ؟ وفي المعرفة : كيف ينفذ الموضوع الى الذهن ؟ أو كيف ينفذ الذهن الى الموضوع ؟ ونحن تتم لنا المعرفة بواسطة الأفكار العامة : فهل هذه الأفكار حقيقية أيضا ؟ أو أن الأشياء الجزئية وحدها هي الحقيقية ؟ وما الذى نعنيه بكلمة شيء ؟ و « مبادئ العقل » — هل هي فطرية أو مكتسبة ؟ هل الجمال والخير ينتميان الى رأى الشخصى وحده ؟ أم أن لهما مشروعية موضوعية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فماذا تعنى هذه المشروعية الموضوعية ؟

تلك (عينات) لذلك النمط من الموضوعات التى تسمى بالموضوعات الميتافيزيقية . وقد قال « كنت » ان الأسئلة الميتافيزيقية الجوهرية الثلاثة هى : ماذا يمكننى أن أعرف ؟ وماذا ينبغى علىّ فعله ؟ وماذا عسائ أن آمل ؟

تعريف الميتافيزيقا

ونظرة نلقيها على أسئلة من هذا النمط تكفى لضبط تعريف للميتافيزيقا كذلك التعريف الذى ذهب اليه « كرستيان وولف » (١٩) حين دعاها « العلم بما هو ممكن » متسيزا بذلك من العلم بما هو قائم بالفعل . ذلك لأن أغلب المسائل تتصل بالواقع الحاصل . وقد يذهب المرء الى أن الميتافيزيقا تبحث فى علّة الأشياء كلها ، وجوهرها ، ومعناها وتتائجها ..

(١٩) « كرستيان وولف » Christian Wolff (١٦٧٩ - ١٧٥٤) . من أئمة المفكرين الألمان فى عصر الاستنارة . ومن حملة مشاعل المذهب العقلى . وقد كان أستاذًا للرياضيات . وهو يعرض الفلسفة عرضا مذهبيا صارما ، ويعتقد أن للمذهب العقلى أصولا منطقية خالصة لانزاع بصدها . « المترجم »

أو قد يدعوها المرء : العلم بأعم المبادئ المنصبة على الحقيقة الواقعية ،
(سواء آكانت هذه المبادئ قد جرت عليها تجاربنا أم لم تجر) ، في
صلتها بين الواحد منها والآخر وبينها وبين ملكاتنا في المعرفة . والمبادئ
هنا قد تعنى اما كائنات « كالذرات » و « النفوس » ، أو قد تعنى قوانين
منطقية ، مثل : « الشيء اما أن يوجد أو لا يوجد » أو وقائع معممة مثل :
« الأشياء لا يكون لها نشاط الا بعد أن توجد فقط » . ولكن المبادئ بالغة
الكثرة ، والعلم المنصب عليها بعيد عن أن يكون مستكملا ، بحيث ان مثل
هذه التعريفات ليس لها الا قيمة زخرفية .

ويتحقق العمل الجاد في الميتافيزيقا في المسائل المنفردة المنفصلة . فلو
أمكن توضيح هذه المسائل توضيحا تاما ، لبدأ على الحقيقة الحديث عن
الميتافيزيقا من حيث انها علم موحد . وقد توخينا في كتابنا هذا أن نتناول
بعض مسائل منفصلة وتركنا بعضها الآخر دون أن نمسه .

طبيعة المشكلات الميتافيزيقية

هذه المشكلات هي في أغلبها مشكلات واقعية ، أعنى أن أقلها فحسب
هو الذى ينجم عن سوء استخدام الألفاظ في عرضها ، فمثلا : ان الأشياء
مؤلفة من خامة واحدة أو غير مؤلفة من خامة واحدة ، أو انها اما أن يكون
لها أصل واحد أو لا يكون ، واما أن تكون محددة من قبل تحديدا تاما
أو لا تكون كذلك .. الخ ، هذه المتناوبات^(٢٠) التى قد يكون من المستحيل
الحسم بينها .. ولكن حتى نبرهن على ذلك تظل تواجهنا مواجهة مشروعة ،
ولا بد أن يهتم بعضنا بها ، ويحيط بالحلول التى تفضى اليها ، وحتى

(٢٠) ترجمة Alternatives . أمران أحدهما ينوب عن الآخر ، لا بد لنا
من أن نختار أحدهما ونترك الآخر

«المترجم»

إذا لم يصف هو نفسه حلولا جديدة . ويجب أن تصنف آراء المثقفين
بصددها وتناقش مناقشة توضع فيها الأمور في نصابها . مثال ذلك : كم رأى
ممكن فيما يتصل بأصل العالم ؟ يقول « سبنسر » ان العالم لا بد اما أن
يكون أزليا أو خلق ذاته بذاته أو خلقته قوة خارجية . وعلى ذلك ففى نظر
« سبنسر » هناك ثلاثة احتمالات فقط : هل هذا صحيح ؟ إذا كان الأمر
كذلك فأية نظرة من النظرات الثلاثة تبدو أكثرها اتفاقا مع العقل ؟ ولم ؟
ففى لحظة نجد أنفسنا فى صميم الميتافيزيقا . ينبغى أن نكون ميتافيزيقيين ،
حتى ولو قررنا مع « سبنسر » أن ليس هنالك أصل من الأصول يمكن أن نصل
اليه بالفكر ، وأن المشكلة كلها ليست مشكلة حقيقية .

وقد تكون بعض الفروض مضطربة غامضة فى ظاهرها لأنها متناقضة
فى ذاتها . فإذا كانت اللانهاية تعنى مثلا : « ما لا يمكن أبدا أن يكتمل
بتركيبات متعاقبة » فان فكرة شئ يتألف من اضافة متعاقبة لأجزاء عددها
لامتناه ، وهو مع هذا مكتمل ، هذه الفكرة متناقضة . وثمة فروض أخرى ،
مثل : ان كل ما فى الطبيعة يساهم فى غرض أسمى واحد ، قد لا نستطيع
أن نبرهن على صحتها . وبعض فروض أخرى مثل : هل الفراغ موجود ؟
قد تتيح حلا ممكنا .

ومن ثم فتصنيف الفروض ضرورى شأنه فى ذلك شأن تصنيف
المشكلات . ويجب أن نقر أن كلا التصنيفين لازم فى فروع المعارف الجادة
التي تتألف منها ثقافتنا^(٢١) . يجب ، باختصار أن يكون هنالك ميتافيزيقيون .
فلنكن نحن أنفسنا ميتافيزيقيين برهة من الزمان .

(٢١) راجع هنا « بول چانيه » فى كتابه : مبادئ الميتافيزيقا الدرسان
الأول والثانى .

Paul Janet : Principes de Métaphysique, etc. 1897, Leçons 1,2.

المذهب العقل والمذهب التجريبي في الميتافيزيقا

فحين نستعرض تاريخ الميتافيزيقا ، لا نلبث أن ندرك أن ثمة نمطين متميزين من التفكير قد ملا هذا التاريخ بالصراع الناشب بينهما . فلندع هذين النمطين النمط العقلي والنمط التجريبي . وثمة عبارة « لكوليريدج » (٢٢) ، كثيرا ما يستشهد بها ، وهى أن كل انسان يولد اما أفلاطونيا أو أرسطيا . ويعنى « كوليريدج » بالأرسطى التجريبي ؛ وبالأفلاطونى العقلى . ومع أن التعارض بين هذين الفيلسوفين اليونانيين قائم بالمعنى الذى يقصده « كوليريدج » فاننا نجد أنهما كليهما من العقليين اذا قورنت فلسفة كل منهما بذلك اللون من الفلسفة التجريبية الذى نما وتطور عند ديموقريطس وبروتاغوراس . وكان الأخرى « بكوليريدج » أن يختار واحدا من هذين كنموذج للفيلسوف التجريبي بدلا من أرسطو . والعقليون أصحاب مبادئ ، والتجريبيون أصحاب وقائع . ولكن لما كانت المبادئ كلية والوقائع جزئية ، فربما كان الأفضل فى وصف هذين الاتجاهين ، القول بأن التفكير العقلى يمضى من الكل الى الأجزاء ، بينما التفكير التجريبي يسير من الأجزاء الى الكل . فأفلاطون زعيم العقليين يفسر تفاصيل الطبيعة بمشاركتها فى «المثل» التى تعتمد جميعها على المثل الأعلى أعنى الخير ، وبروتاغوراس وديموقريطس كانا تجريبيين ، لأن الأخير يفسر العوالم كلها — بما فى ذلك الآلهة والبشر والأفكار والأشياء ، كلها على

(٢٢) «صمويل تيلر كوليريدج» S. T. Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤). من أعلام الشعراء فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ، وكان معاصرا للشاعر « وردزورث » وصديقا له . يميل الى النزعة المثالية ، وكان من أوائل الكتاب الذين نقلوا أفكار الفلسفة المثالية الألمانية الى انجلترا . وثمة مؤلفات له لها طابع فلسفى : « السير الأدبية » ، « دعوة الى التأمل » ، « اعترافات نفس باحثة » . وكان لدراسات « كوليريدج » نفوذ كبير على أتباع المثالية فى أمريكا . « المترجم »

حد سواء — ، بتأليفها من عناصر ذرية . وبرتاغوراس يفسر الحقيقة التي كانت في نظر أفلاطون نظاما مطلقا من المثل بأنها اسم جامع لآراء الناس .
ويفضل العقليون أن يستخلصوا الوقائع من المبادئ . ويؤثر التجريبيون تفسير المبادئ باستقراءها من الوقائع . وإذا تساءلنا : هل الفكر في خدمة الحياة ؟ أم الحياة في خدمة الفكر ؟ مال التجريبيون الى الفرض الأول ، ومال العقليون الى الفرض الثاني . والله في نظر أرسطو وهيكل نظرية خالصة . والمذهب العقلي مذهب إعجاب وإشادة . فنظرياته متفائلة عادة ، تسند عالم التجربة بصروح مثالية صافية نقية . ويعد أفلاطون وأرسطو والمدرسيون وديكارت واسبينوزا وليبنيز وكنط نماذج لهذا النحو من التفكير . فهم يتوخون الغائية المطلقة لمذاهبهم ، ويعتقدون أن الحقيقة الخالدة تعطر جوانب هذا البناء الهندسي النبيل الجميل .

وهذا المزاج الذي يتجه الى الغائية غريب على أصحاب المذاهب التجريبية . وقد يكون هؤلاء قطعيين في نهجهم الذي يتبعونه في بناء مذاهبهم على « الوقائع الراسخة » . ولكنهم قد عقدوا العزم على التشكك في أى لحظة في النتائج التي يصلون اليها بمنهجهم هذا . وهم يستهدفون الدقة في التفاصيل أكثر من استهدافهم للاستكمال . وهم قانعون بأن يكونوا جامعي جزئيات ، وهم على ذلك أقل طموحا من العقليين . وفي الكثير من الأحيان يتناولون ما هو أعلى على أنه لا يعدو أن يكون حالة للشيء ، اللهم الا ما هو أدنى . ولكنهم يظنون — عادة — أكثر احتكاكا بالحياة الجارية . وهم أقل ذاتية ، ويغلب على فكرهم الطابع العلمى بالمعنى القضاى لهذه الكلمة . ويعد سقراط ولوك وباركلى وهيوم ومل ولانج ، وديوى وشيلر وبرجسون ، وكثيرون غيرهم من المعاصرين ، يعد هؤلاء نماذج للتجريبيين . والواقع أننا نجد من المفكرين من تختلط عندهم النزعة

العقلية بالنزعة التجريبية ، وقليل من الفلاسفة يمكن « وضعه » في طبقة واحدة متميزة . والفيلسوف « كنت » يمكن أن يكون من الفلاسفة الذين مزجوا الاتجاهين . وكذلك شأن « لتز » و « رويس » . وكاتب هذه السطور تضعف عنده النزعة العقلية ، ويتبدى في هذا الكتاب ميله ميلا قويا الى التجريبية ، ولذلك فسيوضح في ثنايا هذا الكتاب (٣٣) اصطدام عنيف بين هاتين الطريقتين في النظر : التجريبية والعقلية .

والآن سأدخل في صميم الموضوع بمناقشة مشكلات خاصة كنماذج للبحث الميتافيزيقي ، ولكي لا أخفي أي هيكل من هياكل الصوامع الفلسفية ، سأبدأ بأسوأ مشكلة ممكنة : أعني مشكلة الوجود أو مسألة كيف أن شيئا ما خرج الى الوجود .

(٢٣) قارن « وليم جيمس » :

W. James : "The Sentiment of Rationality in the "Will to Believe" Longmans, Green & Co. 1894". I, 63. f. ; Pragmatism, (ibis) chap. i ; A pluralistic Universe (ibid), chap. i.

الفصل الثالث

مشكلة الوجود

شوبنهاور وأصل المشكلة

كيف حدث أن كان هناك عالم موجود بدلا من عدم كان يمكننا أن نتخيله في مكانه ؟ وفي وسعنا أن نعتبر ملاحظات شوبنهاور في هذه المسألة ملاحظات كلاسيكية . يقول شوبنهاور : « انه — بصرف النظر عن الانسان — ليس ثمة موجود يتساءل عن وجوده . وحين يغدو الانسان واعيا لأول مرة يسلم بوجود ذاته تسليمه بشيء لا يحتاج الى تفسير . ولا يستمر الأمر على ذلك طويلا ، ذلك لأنه مع نشأة التأمل يبدأ التساؤل والتساؤل أم الميتافيزيقا ، وهو الذي جعل أرسطو يقول : ان الناس — الآن ودائما — يسعون الى التفلسف بسبب الدهشة . وكلما كان الانسان أدنى في مرتبة التفكير كان تساؤله أقل عن لغز الوجود .. ولكن كلما زاد وعي الانسان اتضاحا بدت له المشكلة أعظم ما تكون . والواقع أن تلك الهمة التي لا تهمد والتي تجعل ساعة الميتافيزيقا دائبة العمل دون توقف ، تتمثل في الفكرة القائلة بأن عدم وجود هذا العالم يستوى صحة مع وجوده . بل أبعد من ذلك ، أننا لا نلبث أن نتصور العالم شيئا عدم وجوده ليس فحسب قابلا للتصور ، بل هو مفضل كذلك على وجوده ، بحيث ان دهشتنا تمضي في سر متأمة في ذلك القدر الذي يدعو عالما الى الوجود ، ويوجه تلك القوة الجبارة التي تولده وتحفظه ، نحو نشاط متعارض مع مصالح

العالم نفسه . فالتعجب الفلسفى لا يلبث أن يغدو دهشة حزينة ، وتبدأ الفلسفة مثلها مثل افتتاحية « دن جيوفانى » بأخف الأوتار » (٢٤) .

ولا يتطلب الأمر من الانسان أكثر من أن يخلق نفسه فى صومعته ، ويشرع فى التأمل فى واقعة وجوده ، وفى شكل جسمه الغريب فى الظلام (وهذا ما يجعل الأطفال يصرخون رعبا وفزعا كما يقول ستيفنسن) ، وفى خلق الانسان وشخصيته المضحكة . وينسرب التعجب الى أدق التفاصيل كما يعضى الى الواقعة العامة وهى واقعة الوجود ، ويرى أن الالف وحده هو الذى يحد من تأمله . ولا يتمثل الغموض فحسب فى أن شيئا ما يجب أن يوجد ، بل فى أن هذا الشيء نفسه الموجود بالفعل يجب أن يكون موجودا . والفلسفة تحدج النظر ، ولكنها لا تصل الى حل معقول . ذلك لأنه لا وجود لقنطرة منطقية نعب عليها من العدم الى الوجود .

طرائق متنوعة فى دراسة المشكلة

وقد بذلت أحيانا محاولات لتنجية السؤال أكثر مما بذلت للإجابة عليه . فأولئك الذين سألوا هذا السؤال استباحوا لأنفسهم دون وجه حق ، أن يسيطروا على الوجود كله ما هنالك من تعارض بين الوجود وعدم الوجود ، بينما هذا التعارض قاصر فحسب على الموجودات الجزئية . فهذه الموجودات الجزئية لم تكن من قبل ، ثم هى موجودة الآن . ولكن الوجود فى عمومهِ أو فى شكل من أشكاله كان دائما . وليس يحق لنا أن نربط بين هذا الوجود ككل وبين عدم سابق بعلاقة . فسواء كان الوجود هو الله أو هو ذرات

(٢٤) انظر :

Schopenhauer : 'The World as Will and Representation Appendix 19 "On the Metaphysical need of man.abridged.

مادية فهو في ذاته أولي وأزلي . ولكنك اذا نعت أى موجود بالأزلية فان بعض الفلاسفة يتأهبون دائما ليواجهوك في زجر بالتناقض القائم في زعمك . فهم يتساءلون : هل الأزلية الماضية قد اكتملت ؟ لئن كان الأمر كذلك ، فلا بد أنه كانت له بداية ، اذ سواء أكان خيالك يجتازه الى أمام أو الى خلف ، فان لهذا الوجود مضمونا واحدا ومادة خاما واحدة يمكن قياسها ، واذا كان مجموع القياس ينتهي الى نهاية في طريق فانه ينبغي أن ينتهي الى نهايته في الطريق الآخر . وبعبارة أخرى ما دمنا نرى الآن نهايته ، فلا بد أن ثمة لحظة ماضية شاهدت بدايته . واذا كان له مع ذلك بداية فمتى كان ذلك ولم ؟ فأنت تجد نفسك من جديد أمام العدم ، وأنت لا ترى كيف أن هذا العدم قد انتقل فصار وجودا . هذا الاحراج الذى يضعك في مأزق الاختيار بين أن تعود الى الأصل الذى وان كان يدعى لا متناهيا ، فهو ينتهى مع ذلك عند حد ، وبين مطلق أول ، لعب دورا عظيما في تاريخ الفلسفة .

وقد قامت محاولات أخرى لترويض هذه المسألة . فقد ذكر بارمنيدس وزينون أن العدم ليس موجودا ، وأن الوجود وحده هو الموجود . وعلى ذلك فما هو كائن فهو بالضرورة موجود ، فالوجود باختصار ، ضرورة . وآخرون اعتبروا فكرة عدم الكينونة *non-entirety* ليست فكرة حقيقية ، وقالوا : انه طالما أن الفكرة لا حقيقة لها فهي غائبة ، ومن ثم فليس يمكن أن نصل الى مشكلة أصلية بصدها ، وأخطر من ذلك كله وأفظع أن. الدهشة من الوجود اعتبرت مرضا أو حالة من حالات البحث المرضى. *Grübelucht* ، من قبيل ذلك التساؤل : « لم كنت أنا نفسى ؟ » أو « لم كان المثلث مثلثا ؟ » .

طرائق العقليين والتجريبيين

وقد بحث الفلاسفة العقليون هنا وهناك عن تبديد لهذا الغموض .

فبعض أشكال الوجود أكثر طبيعية ، بحيث نقول : انها حتما موجودة ، وهي أكثر ضرورة من غيرها .

وقد يزعم التجريبيون أنصار التطور — ويعد هربرت سبنسر خير من يمثلهم — أن كل ما تحقق له أقل قدر من الواقع ، فكان أشد الأشياء ضعفا ووهنا وأقربها الى البدائية وأدقها على الإدراك هو الذى يأتى فى يسر الى الوجود ، ويكون أول ما يعقب العدم . وتتوالى بعد ذلك مراتب أسمى من الوجودات رويدا رويدا ، فتتضاف بعضها الى بعضها تدريجا حتى يجتمع للعالم كل مقوماته فينمو ويزدهر .

وفى نظر فلاسفة آخرين أن الحد الأقصى لا الحد الأدنى هو البادئ فى الوجود . فاسبينوزا يقول : « ان كمال الشيء لا يمنعه من أن يوجد بل على العكس ان كماله هو دعامة وجوده » (٢٥) . ومن السبق الى الحكم الزعم بأن الوجود أشق على الأكبر منه على الأصغر ، وأن أيسر اليسر ألا يكون هنالك شيء . فان ما يجعل الأشياء صعبة فى اتجاه ما ، هى تلك العوائق الدخيلة التى تقف فى سبيلها . وكلما كان الشيء أصغر وأضعف كانت هذه العوائق أقوى . وبعض الأشياء تبلغ من العظم والشمول ما يجعل الوجود متضمنا فى عين طبيعتها . وهذا الاتجاه فى التفكير هو الذى نلمسه فى الدليل الأتولوجى على وجود الله ، ذلك الدليل الذى تلقاه عند القديس « أنسلم » ، والذى يدعى أحيانا بالدليل الديكارتى ، والذى نرى « كנט » يلحظه و « هيجل » يستأنف الدفاع عنه .

ان ما تتصوره ناقصا فهو مفتقر الى الوجود افتقاره الى غير ذلك من الصفات . ولكن اذا كان الله الذى نعرفه تعريفا واضحا بأنه أسمى كمال

(٢٥) كتاب اسبينوزا « الأخلاق » :

Ethics, part i, prop xi, scholium

Enns Perfectissimum ، يفتقر الى شيء ما ، فانه سيتناقض مع ذات تعريفه . ولن يمكن لله أن يفتقر الى الوجود . فهو الضرورة أقصى ما تكون Enns necessarium والواقع أعلى ما يكون Enns Realissimum ، كما أنه الكمال أسمى ما يكون (٢٥) (أ) .

ويقول « هيجل » في تعالى اللوردات : « قد يكون غريبا أن الله لم يكن حظه من الثروة عظيما بحيث يملك مقولة الوجود وهي أفقرها جميعا وأشدّها تجريدا » . واتجاه « هيجل » هنا في نفس اتجاه « كنت » حين يقول : ان دولارا في الواقع لا يحتوى على شيء واحد أكثر مما يحتوى عليه دولار في الخيال . ويسعى « هيجل » بطريقة أخرى — في مستهل كتابه في المنطق — ليربط العدم بالوجود . فمادام الوجود في التجريد لا يعنى شيئا خاصا فهو لا يتميز اذن من العدم . ويبدو أن « هيجل » قد ظن في غير وضوح أنه قد وفق الى تأليف هوية تجمع بين الفكرتين ، نستعين بها في الانتقال من الواحدة الى الأخرى .

وثمة محاولات أخرى أشد غرابة أيضا ، تنمّ عن نزعة عقلية . فأنت في وسعك في الرياضة أن تستنبط من (صفر) العملية التالية : $1 = \frac{1-1}{1-1} = \frac{\text{صفر}}{\text{صفر}}$ وتستطيع في الطبيعة أن تقول انه اذا كان لكل وجود ، فيما يلوح ، تكوين مغناطيسي ، وعلى ذلك فكل جزء ايجابي منه له جزءه السلبي ، وحينئذ نصل الى المعادلة البسيطة التالية : $1 - 1 = \text{صفر}$. والزائد والناقص هي علامات على المغنطة في الطبيعة .

(٢٥) (أ) ارجع في ذلك الى :

St. Anselm : Proslogium etc. Translated by Doane. Chicago, 1903.

Descartes : Meditations, p. 3.

Kant : Critique of Pure Reason. Transcendental Dialectic

"On the Impossibility of an ontological proof. etc."

وليس من المرجح أن يجد القارىء فى أى حل من هذه الحلول مقنعا .
وقد أجمع الفلاسفة المعاصرون ، ومنهم من نزع نزعة عقلية على أن أحدا لم
يتمكن من تبديد الغموض الذى يكتنف الواقع تبديدا معقولا . فسواء
أكان العدم الأسمى قد انتقل الى الله واختفى فيه ، كما يختفى الليل فى
النهار بينما يغدو الله من ثمة المبدأ الخالق للموجودات الأدنى ، أو ما اذا
كانت جميع الموجودات قد اندست وتشكلت فى هذا الوجود . وجملة
الوجود عينها يطالب بها الفيلسوف ويستجديها فى نهاية الأمر .

نفس كمية الوجود يجب أن يستجديها الجميع

ان تفتيت الصعوبة لا يعنى القضاء عليها . فاذا كنت من أتباع المذهب
العقلى استجديت كيلو جراما من الوجود دفعة واحدة ، واذا كنت تجريبيا
فانك تستجدى ألف جرام يعقب الواحد منها الآخر ، ولكنك تستجدى
الكمية نفسها فى الحالين ، وأنت تفك السائل المستجدى أيا كان زعمك .
وأنت تترك اللغز المنطقى دون أن تمسه : كيف حدث أن كان هنالك
شئ ما ، جاء دفعة واحدة أو على دفعات وهل من الممكن فهم هذا فهما
عقليا (٢٦) .

البقاء يعنى الخلق

اذا كان الوجود قد نما تدريجيا ، فان كميته لم تكن بالتأكيد واحدة
دائما وربما لا تكون واحدة بعد ذلك . وقد بدت هذه النظرية لمعظم الفلاسفة
متناقضة . فلا الله ولا المادة الأولى ، ولا الطاقة تتيج لنا أن نفترض كونها

(٢٦) يمكن للإنسان أن يقول فى لغة اصطلاحية أكثر ، ان الواقع
أو الوجود أمر «ممكن» أو مادة «صدفة» بقدر ما يتصل ذلك بعقلنا . وشروط
ظهوره شروط غير يقينية ، ولا يمكن التنبؤ بها ، حين يفلت الماضى والمستقبل .

قابلة للزيادة أو النقصان . والرأى المستقيم هو أننا ينبغي أن نحفظ بأى ثمن بكمية الواقع ، وأنا يجب أن ننظر الى ما يطرأ على تجاربنا فى الظواهر من نقص أو زيادة على أنه مظاهر سطحية لا تمس الأعماق .

وأيا ما كان ، فنحن نرى فى التجربة أن الظواهر تأتى وتروح وأن هناك جديداً يجرى وقديماً يزول . ويبدو العالم — على الأقل فى الواقع التقريبى — فى عملية نمو على الحقيقة . وعلى ذلك يعاودنا السؤال التالى : كيف تدخل تجاربنا المتناهية فى الوجود من لحظة الى لحظة ؟ أبالقصور الذاتى ؟ أبالخلق المستمر ؟ وهل تأتى التجارب الجديدة من التجارب القديمة ؟ ولم لا تذوب جميعاً مثلما تذوب الشموع ؟

من يستطيع أن يقص علينا فى عجلة قصة الوجود ؟ ان مسألة الوجود هى أكثر مسائل الفلسفة عتمة وأشدّها حلكة . فنحن جميعاً فى هذه المسألة نسأل ونستجدى . وليس ثمة مدرسة فلسفية تستطيع أن تتحدث بصددّها عن مدرسة أخرى بازدراء كما أنها لا تستطيع أن تفخر بالسبق أو التفوق فى هذا المضمار . ذلك أننا جميعاً هنا سواء . فالواقع يشكّل المعطى الحسى ، الذى لا نستطيع أن نتعمّق تحته ونفسّره أو نرى ما وراءه . فقد تشكّل بذاته على نحو ما ، ومهمتنا متصلة اتصالاً أوثق بالتساؤل عن طبيعته منها بالتساؤل : من أين أتى أو كيف أتى ؟

الفصل الرابع

المدرک الحسی والتصور

أهمية التصورات

المشكلة التي سنعرض اليها فيما يلي ، والتي تلائم سياقنا هي التمييز بين الأفكار والأشياء . فنحن نعرف « الأشياء » عن طريق حواسنا ونسميها « صورا ممثلة » ، كما أطلق عليها بعض الكتاب تمييزا لها من الأفكار أو « التصورات » التي قد نحصل عليها حين تعطل حواسنا .

ما بينهما من اختلاف

ولقد نشأت أنا نفسي معتادا على المقابلة بين كلمتي « المدرک الحسی » و « التصور » ، . بيد أن التصورات تنبع من المدرکات الحسية ثم تعود اليها مرة ثانية . وهما على ذلك متداخلان ، وتعتمد حياتنا عليهما كليهما دون ما تمييز بينهما ، حتى انه غالبا ما يكون من العسير علينا أن نزود المبتدئين بفكرة سريعة واضحة عن الاختلاف المشار اليه .

ففي الانسان يمتزج الاحساس بالتفكير ، ولكنهما يتنوعان تنوعا يجعل لكل منهما استقلاله . ان التفكير الخالص عند ذوى قربانا من ذوات الأربع يكون عند أدنى حد له . ولكن ليس ثمة سبب يحملنا على افتراض أن حياتها المباشرة أخصب أو أجذب من حياتنا الشعورية . فالشعور لا بد أن يكون — أصلا — مكثفيا بذاته ، ويبدو التفكير كما لو كان وظيفة تنضاف الى الشعور لتهيئتنا للتكيف بيئة أوسع من تلك التي تعيش فيها

العجاوات . ولا بد أن تكون بعض أجزاء تيار الشعور عند الحيوان وعند الإنسان على حد سواء ، أشدّ وأقوى وأكثر إثارة من سائر أجزائه . ولكن بينما لا تعدو استجابة الحيوانات الدنيا للاحاساسات القوية مجرد حركات مناسبة ، فإن الحيوانات العليا تتذكر هذه الاحساسات ، ويستجيب الإنسان لها استجابة عقلية مستخدماً الأسماء والصفات والأفعال حتى يتحقق من معرفتها حيثما التقى بها . وأعظم اختلاف بين المدركات الحسية والتصورات (٢٧) هو أن المدركات الحسية مستمرة والتصورات متقطعة ، وهى ليست متقطعة فى وجودها ، لأنّ التصور كفعل يعد جزءاً من تدفق الشعور . ولكنها منفصلة بعضها عن البعض الآخر فى تعدّد معانيها .

وكل تصور يعنى تماماً ما يعنيه بمفرده ولا شئ غير ذلك ، وإذا كان المتصور عاجزاً عن معرفة ما إذا كان يعنى هذا المعنى أو ذاك ، فإن هذا يدل على قصور فى تصوّره . والتدفق الحسى بما هو كذلك لا يعنى شيئاً . وهو لا يعدو أن يكون ما هو عليه فى الواقع المباشر . ولا يهم إذا كنا نجترى من هذا التدفق رقعة صغيرة فهى فى ذاتها كبيرة مليئة ، يحتشد فيها عدد لا حصر له من المشاهد والسمات التى يستطيع التصور أن يستخلصها ويعزلها ويستغرقها دائماً . ويظهر لنا التدفق الحسى الديومى والتوتر والتعقيد والبساطة والاهتمام والاثارة والسرور أو أصدادها .

(٢٧) سأسبّح لنفسى فى الصفحات القادمة استخدام كلمات مرادفة لهاتين الكلمتين (المدرك الحسى والتصور) . فأسعمل كلمة «فكرة» أو «تفكير» أو «فهم» على أنها مرادفة لكلمة «تصور» . وسأستعرض فى معظم الأحيان عن كلمة «مدرك حسى» بكلمة «احساس» أو «شعور» أو «حس» ، وأحياناً بعبارة «تجربة حسية» أو بعبارة «التدفق المباشر» للحياة الواعية . فمنذ «هيكل» والمدرك ادراكاً بسيطاً يسمى «بالمباشر» والمدرك ادراكاً غير مباشر يرادف «المتصور»

وتدخل فيه معطيات من حواسنا جميعا ويشملها تياره فيشارك كل منها فيه بنصيب يتفاوت قلة وكثرة . ومع ذلك فهذه الأجزاء كلها تجتمعها وحدة لا انفصام فيها . وليست حدودها في هذه الحالة أكثر تميزا منها في مجال الرؤية ، فالحدود هي الأشياء التي تتداخل ، ولكن هنا لا شيء يتدخل ، اللهم الا أجزاء التدفق الحسى ذاته ، وهذه يطغى عليها ما تعمل على فصله ، لدرجة أن كل ما نميزه منها ونعزله بالتصور سيبدو حسيا ويتغلغل وينبث فيما يجاوره . فالقطع التي تقطعها فكرية خالصة . وإذا استطاع القارىء أن يتجرد من جميع التفسيرات العقلية ويعود القهقري الى حياته الحسية المباشرة في هذه اللحظة عينها ، فانه سيجد أن هذه الحياة الحسية المباشرة هي ما يسميه البعض في خلط كبير وطنطنة بالغة ، حياة خالية من التناقض بما فيها من كثرة تخرج من الوحدة ، وتخرج دفعة واحدة طالما كانت كلها نابضة بالحياة ومائلة في وضوح (٢٨) .

النظام التصورى

ويقتطع الانتباه موضوعاته من هذه الكثرة الحسية الأصيلة ، ويخلع عليها أسماء تظل دالة على هويتها الى الأبد : فهي في السماء «أبراج» وعلى الأرض « شاطئ » و « بحر » و « جرف » و « شجيرات » و « نخيل » ، ونحن تقطع من الزمن « الأيام » و « الليالي » و « الصيف » و « الشتاء » .

(٢٨) قارن «وليم جيمس» : عالم متعدد • ص ٢٨٢ - ٢٨٨

W. James : A Pluralistic Universe

وكذلك «علم النفس» عرض موجز ص ١٥٧ - ١٦٦

W. James : Psychology — Briefer Course.

وتبين كل جزء من أجزاء التيار الحسى المستمر . وتسمى هذه الطبائع المستخلصة من ادراكنا لهذه الأجزاء بالتصورات (٢٩) .

وتتوقف الحياة العقلية عند الانسان ، كلها على التقريب ، على استبدالها النظام التصورى بالنظام الحسى الذى جاءت منه أصلا تجربته . بيد أننى قبل أن أتبع نتائج هذا الابدال ينبغى لى أن أبدأ بالحديث عن النظام التصورى .

تنمو بكثرة فى عقل الراشد مواكب من التصورات التى لا تختلط بالمدركات الحسّية . ويستأثر بعض أجزاء هذه المواكب الذهنية بانتباهنا استئثار أجزاء التدفق الحسى به . ويؤدى ذلك الى نشأة تصوّرات ذات رتبة أعلى من التجريد . ويبلغ الانسان حدا عظيما من الحصافة ، وتصل قدرة بعض الناس الى حد يقبضون معه بعقولهم على أشدّ العناصر افلاتا

(٢٩) بصدد وظيفة عملية التصور راجع كتاب : محاضرات فى المنطق ، للسير «وليم هاملتون» ص ٩ - ١٠ ، والفصل الأول من كتاب «هوك» «مانسل» : مقدمات فى المنطق . وكتاب «شوبنهاور» : العالم كإرادة . ملحقات ٦ ، ٧ حتى الكتاب الثانى . و «وليم جيمس» : أصول علم النفس (الفصل الثانى عشر) . ثم لنفس المؤلف : عرض موجز لأصول علم النفس (الفصل الرابع عشر) ، «ج . رومانس» : التطور العقلى عند الانسان . (الفصلان الثالث والرابع) . «د . ريبو» : تطور الأفكار العامة (الفصل الرابع) ، «ت . روسان» : بحث فى التطور النفسانى للحكم (الفصل الرابع) - «لا روميجير» : دروس فى الفلسفة (القسم الثانى - الدرس الثانى عشر) .

وما ذكرته الآن يناقض ماذهب اليه الفيلسوف الألماني «كنط» ، وساد منذ عصره حتى اليوم . «فكنط» يتحدث دائما عن التدفق الحسى الأصيل على أنه كثرة طابعها انجوهري الانفصال . ويرى «كنط» أن الحصول على أى اتحاد يتطلب فاعلية الأنا الشارطة للادراك الحسى . ويستلزم الوصول الى ارتباطات محددة فاعلية الفهم وما يحويه من تصورات تأليفية أو مقولات . وللغاري أن يقر أو التفسيرين يتفق اتفاقا أفضل مع تجربته الخاصة القائمة بانفعل .

مما يمرّ أمامهم . وينجم عن ذلك تصورات جديدة لا تنتهى عند حد .
مشهد مع مشهد وكمية وراء كمية ، وعلاقة داخل علاقة ، وغياب وسلب ،
الى جانب ما هنالك من قسّمات حاضرة ماثلة ، نلاحظها كلها ، ونضيف
أسماءها الى ذخيرة الأسماء والأفعال والصفات وحروف العطف والجرّ
التي يستعين بها العقل البشرى على تفسير الحياة .

وكل كتاب جديد يصوغ تصورا جديدا ، ويفدو هذا التصور هاما
بقدر ارتفاعنا به . وعلى ذلك نشأت عوالم مختلفة من التفكير تربط بين
أجزائها ألوان خاصة من العلاقة : عالم الحس المشترك أى عالم الأشياء ،
وعالم المهام المادية التي يؤديها الناس ، وعالم الرياضيات بما فيه من صور
بحتة ، وعالم القضايا الأخلاقية ، وعوالم المنطق والموسيقى وما الى
ذلك ... الخ . وقد جاءت هذه العوالم جميعا نتيجة تجريد وتعميم من أمثلة
حسية نسيناها منذ أمد بعيد ، وقد تم لها الازدهار والتفتح ، ثم عادت
وامتزجت بجزئيات ادراكنا الحسى فى الحاضر والمستقبل . فبواسطة تساؤلنا
عن طبائع الأشياء يتم لنا ادراك الأشياء القائمة بالفعل .

فالمدرّكات الحسية والتصورات يمتزج بعضها ببعضها وتذوب ، ويتم
فيما بينها تلقيح واخصاب . ولو أخذنا كل تصور أو مدرّك حسى على حدة ،
فلن نصل أبدا الى معرفة الحقيقة الواقعية فى تمامها . ونحن نحتاج الى
التصور والمدرّك الحسى احتياجا الى ساقين معا لنسير بهما (٣٠) .

ولقد أقر أرسطو ومن جاء بعده من الفلاسفة اقرارا صريحا بأنه لا بد
من مساهمة الادراك الحسى والادراك العقلى من أجل الوصول الى معرفة

(٣٠) كان (س.ه. هودجس) أول من وصف عملية الابدال هذا الوصف .
فى كتابه فلسفة التفكير ص ٤٨٨ - ٣١٠ .

S.H. Hodgson : Philosophy of Reflection.

كاملة بالواقع . (٣١) أقول لمعرفة الواقع معرفة كاملة ، ولكن الوقائع نفسها عبارة عن جزئيات ترتبط بالضرورات العملية وبالفنون . وما لبث فلاسفة الاغريق أن صاغوا الفكرة القائلة بأن معرفة « الكليات » التي تتألف من تصورات لصور وصفات وأعداد وعلاقات مجردة ، هي المعرفة الوحيدة الجديرة بعقل فلسفى على الحقيقة . والوقائع الجزئية متهافة بتنوع ادراكاتنا الحسية لها . والتصور لا يتغير ألبتة ، ولا بد أن تكون العلاقات القائمة بين هذه التصورات التي لا يطرأ عليها تغير علاقات ثابتة تعبر عن حقائق أزلية .

ومن ثم لازمت الفلسفة نزعة الى المقابلة بين معرفة الكليات والمعقولات، وهى معرفة الهية عزيزة الجانب مشرفة للعارف ، وبين معرفة الجزئيات والمحسوسات وهى معرفة نسبية تربطنا بالحيوانات . (٣٢)

(٣١) انظر مثلاً - ما بعد الطبيعة «لأرسطو» . انكتاب الأول ، الفصل الثانى .

(٣٢) يقابل «أفلاطون» فى مواطن عديدة ، وبصفة خاصة فى الكتابين السادس والسابع من «الجمهورية» ، بين المعرفة الحسية على أنها (ظن) وبين المعرفة الحقيقية ، ويجعل للأخيرة السبق فى القيمة والرتبة .

وإذا شاء القارئ عرضاً تاريخياً ممتازاً لهذا الرأى فعليك بالجزء الأول من كتاب (لا آس) A. Laas : المثالية والوضعية (١٨٧٩) . وقرأ كذلك عرضاً للنظرة العقلية المتطرفة فى فصل (أفلاطون والعقل) فى كتاب «س.م. بيكويل C. M. Bakewell : المرجع فى الفلسفة القديمة » (نيويورك ١٩٠٧) ص ٣٥٣ . وقارن «بوسويه» Bossuet رسالة فى معرفة الله . فصل ٤ ، ٥ ، ٦ . و «ر. كودورث R. Cudworth : رسالة فى الأخلاق السرمدية النابتة (الكتابان الثالث والرابع) . ويقول الأستاذ سانتايانا Santayana : «ظن أفلاطون أن ما للأشياء الأرضية من صدق ومعنى مستمد من أصل الهى . ونحن نتذكر هذا الأصل الالهى ونتعرف عليه حتى بين ما يجرى فى نسخه الزائلة من تشويه واختفاء وتعدد . وليس للانطباعات ذاتها دوام ، وليس لها جوهر معقول ، =

المعرفة التصويرية ووجهة النظر العقلية

لم يذهب الكتاب العقليون الى أن المعرفة التصويرية أنبل من غيرها فحسب ، بل رأوا كذلك أنها تنشأ مستقلة أصلا عن جميع الجزئيات المدركة ادراكا حسيا . فتصورات من قبيل : الله ، والكمال ، والسرمدية ، واللائية ، واللاتغير والهوية ، والجمال المطلق ، والحق والعدل ،

== ولكنها دائما اما موجودة أو منقطعة عن الوجود . يذكر لنا أفلاطون أنه لا بد أن يكون هنالك موضوع سرمدى محدد تحديدا واضحا بحيث تكون المظاهر المرئية لنا منه عبارة عن صور شتى مشابهة له ، تختلف سماتها بين حين وآخر ، ويذكرنا طيفها المائل أمامنا بالحقبة السماوية التي كدنا ننساها ويجعلنا ننطق بها فنحن والكون نوجد فقط حين نحاول أن نعود الى كمالنا ، وأن نفنى مرة ثانية في الله . وذلك الخير الذي لا يوصف هو ملك طبيعي لنا . وكل ما نناله من شرف في هذه الدنيا ان هو الا استعادة جزء من حقنا الذي لنا منذ مولدنا . وكل شيء يدخل البهجة على نفوسنا هو أشبه بصدع في السحب تلمح خلاله ومضة من وطننا الالهي . واذا لاح هذا الوطن الالهي بعيدا نوعا ما ، واذا بدت فكرتنا عنه معتمة غير حقيقية ، فإن مرجع ذلك أننا بعيدون عن الكمال ، وأنا غارقون في كل ما هو دخيل على النفس مهلك لها . (انظر «الحب الأفلاطوني عند بعض شعراء ايطاليا» في كتاب : تأويلات للشعر والدين - ١٨٩٦)

هذا هو تفسير أفلاطون الذي ظل جاريا حتى أرسطو . ويجب أن ننوه بما بذله الأستاذ العلامة « أ. ج. ستيوارت » « A. J. Stewart » من جهد لازالة ما في التفسير من غموض . (انظر في ذلك كتابه : نظرية أفلاطون في المثل . أكسفورد ١٩٠٩) .

وقد وجد أرسطو خطأ كبيرا في اعتبار «أفلاطون» للمثل على أنها أصول الهية ، ولكنه وافقه موافقة تامة على امتياز الحياة التصويرية النظرية وسموها . وقد أشاد أرسطو بالتأمل في العلاقات الكلية في الفصلين السابع والثامن من الكتاب العاشر من : الأخلاق الى نيقوماخوس . واعتبر هذا التأمل الشيء الوحيد الذي يفضي بنا الى سعادة خالصة : «ان حياة الله في أقصى نعيم لها ، تتمثل في ممارسة التأمل الفلسفي ، وكذلك الانسان تتحقق السعادة في أقصى درجاتها ، لأكثر وجوه نشاطه شبيها بالله .»

والضرورة والحرية ، والواجب والقيمة ... ، والدور الذى تؤديه فى أذهاننا، يستحيل علينا — فيما يقولون — تفسيرها على أنها ثمرات الخبرة العملية . والنظرة التجريبية ، وهى النظرة الصحيحة على الأرجح ، تذهب الى أن هذه التصورات تنجم من الخبرة العملية . (٣٣) بيد أن ثمة سؤالا أهم من التساؤل عن أصل « تصوراتنا » ألا وهو البحث عن وظيفتها وقيمتها . هل التصور مرتبط بالتجربة الحسية أم أنه لا علاقة له بها على الإطلاق . ? وهل المعرفة التصورية مكثفية بذاتها وتكتشف كل شئء بنفسها فضلا عن اتقاعنا بها فى فهم عالم الحس فهما أدق وأفضل ؟ ..

يجيب العقليون : نعم ، وكما سنرى فيما بعد ، فإن العوالم التصورية المتنوعة التى أشرنا اليها من قبل ، يمكن أن ننظر اليها نظرة مجردة تجريدا تاما من الواقع الحسى وإذا نظرنا اليها على هذا الاعتبار أمكن اكتشاف جميع العلاقات الثابتة الجارية بين أجزائها . وعلى هذه العلاقات انبت علوم أولية ، مثل المنطق ، والأخلاق ، والجمال (بقدر ما يمكن اعتبار العلمين الأخيرين علمين على الإطلاق) . وعلى ذلك يجب أن نطلق على المعرفة التصورية معرفة كشف مكثفية بذاتها . وقد تناولها الكتاب العقليون دائما على أساس اقرارهم بعالم الهى ، هو عالم الكليات أكثر منه عالما للحقائق الزائلة . وهو كذلك عالم الصفات الضرورية والعلاقات الثابتة والمبادئ الخالدة للحق والخير . كتب « امرسون » يقول : « ان التعميم هو تدفق

(٣٣) كان « چون لوك » أعظم داعية لهذا المذهب ، وذلك فى كتابه « مبحث فى العقل البشرى » . انظر الكتابين الأول والثانى . وكأنما كان كل من « جندياك Candillac » فى كتابه : رسالة فى الاحساسات . و « هلفتيوس Helvetius » فى كتابه : فى الانسان . و « جيمس مل James Mill » فى كتابه : تحليل الذهن البشرى ، كأنما كل من هؤلاء قد اقتفى فى دقة أثر « لوك » فى مؤلفه العظيم .

جديد لله في العقل ، ومن هنا كان ذلك الفيض من الشعور الذي يصحبه » .
وقد أضاف أحد تلامذة « هيجل » بعد أن أشاد بمعرفة « العام واللامتغير
والقيّم وحده » ، وارتفع به على « الجزئى والحسى والعرضى » ، أضاف
أنك اذا أخذت على الفلسفة عجزها عن انماء ورقة عشب واحدة ، أو
قصورها عن معرفة كيفية نموّها ، كان الرد على ذلك أن مثل هذا الجزئى
الذى تتساءل عنه بأداة الاستفهام « كيف » لا يكون فوق المعرفة بالمعنى
الدقيق بل تحتها ، فليس فى الجهل به دليل على النقص . (٣٤)

المعرفة التصويرية ووجهة النظر التجريبية

يواجه رأى غلاة العقلين ، رأى التجريبيين بأن معنى التصورات
مرهون دائما بعلاقتها بجزئيات الادراك الحسى . ومهمة هذه الجزئيات
الرئيسية هى أن تعود وتمتزج بالادراك من جديد ، وتجذب العقل الى العالم
الحسى ليتبين على الدقة أصولها . وكما كان فى وسعنا أن نفعل ذلك مع
تصوراتنا كان فى استطاعتنا أن ننتفع بها أكثر مما لو تركناها مع مثيلاتها
من التصورات المجردة التى لا حراك فيها . ويتيسر لنا على ذلك أن ننضم
الى فريق العقلين فى التسليم بأن المعرفة التصويرية مكثفية بذاتها بينما
نستطيع أن ننضم فى نفس الوقت الى التجريبيين فى أخذهم بأن القيمة
الكاملة لمثل هذه المعرفة تجتمع لها فحسب اذا عدنا لربطها بالواقع الحسى .

(٣٤) ميشليه Michelet : مؤلفات هيجل الفصل السابع فقرة (١٥) ،
اقتبسها أ. جراترى A. Gratry « فى كتابه : معرفة النفس - ج ١ ص ٢٣١ .
قارن موقفا مماثلا فى كتاب « ووالاس W. Wallace » : مقدمات الى هيجل
(ط ٥ - ١٨٩٤) ص ٢٣١ . وانظر كذلك عرضا طويلا أصليا لوجهة النظر عينها
فى الباب الرابع من كتاب « رالف كودورث » Ralf Cudworth « رسالة فى الأخلاق
السرمدية الثابتة » .

هذا الموقف الوسط هو ما ينبغي أن يأخذ به المفكرون . بيد أننا لكي نفهم طبيعة التصورات فهما طيبا ، يلزم أن نبادر بالتمييز بين وظيفتها ومضمونها .

مضمون التصورات ووظيفتها

لنأخذ مثلا التصور « انسان » فهو يمثل ثلاثة أشياء : (١) الكلمة نفسها . (٢) صورة غامضة للشكل الانساني تستمد قيمتها من كونها جميلة أو ليست جميلة . (٣) أداة ترمز الى موضوعات معينة تنتظر منها تصرفا انسانيا حين تحين الفرصة لذلك . وكذلك الأمر في « المثلث » وفي « جيب التمام » ، فهي تكتسب قيمتها من حيث كونها كلمات وصورا مفترضة ، ولكن لها كذلك قيمة ووظيفة حيثما وجهتنا الى معانى معينة في الحديث . وأيا ما كان ، فهناك تصورات خافتة معتمة الصورة بحيث ان قيمتها كلها تتمثل في وظيفتها ، مثل : « الله » ، « العلة » ، « العدد » ، « الجواهر » ، « النفس » . فهي لا تزودنا بصورة ما محددة ، ويبدو أن معناها يتوقف على اتجاهها الذي تتجهه وعلى مدى تأثيرها في سلوكنا وتفكيرنا . (٣٥) فأننا لا يمكن أن ننصرف الى تأمل أشكالها كما تفعل في « الدائرة » و « الانسان » بل ينبغي أن نتخطاها الى ما وراءها .

القاعدة البرجماتية

والآن ، مهما يكن حظ جزء التصور الموجود من الجمال ، ومهما استأهل الوقوف أمامه لتأمله ، فمن الطبيعي أن تكون أهميته مرهونة بما يفضي اليه

(٣٥) قارن بصدد هذه النزعة الوظيفية . هـ . تين A. Taine : عن الذكاء .

٧ الكتاب الأول . الفصل الثاني (١٨٧٠) .

من نتائج . وقد تكون هذه النتائج متمثلة في الطريقة التي يجعلنا هذا التصور تفكر بها أو في الطريقة التي يجعلنا نعمل بها . ومن له عن ذلك فكرة واضحة فانه يعلم عن بيئة ما يعنيه التصور من الناحية العملية ، ويعرف ما اذا كان مضمون التصور الدال على وجوده له أهمية في كون هذا التصور حقا أو باطلا .

وقد أفضى هذا الاعتبار الى منهج لتفسير التصورات ، سأطلق عليه « القاعدة البرجماتية » (٣٦) .

وترى القاعدة البرجماتية أن معنى التصور قد يوجد دائما ، ان لم يكن في بعض الجزئيات المحسوسة التي يشير اليها التصور بإشارة مباشرة ، ففي بعض الاختلافات في مجرى التجربة البشرية التي عليها المعول في صدق التصور ذاته . فاذا اختبرت كل تصور بالقاء السؤال التالي : — ما هو الاختلاف الذي يحسه الانسان حين يكون هذا التصور صادقا ؟ فانك تجد نفسك في خير موقف ممكن لفهم معناه ومناقشة أهميته . واذا كنت حين تتساءل عما اذا كان تصور ما صادقا أو كاذبا ، لا تجد اطلاقا أى اختلاف في الحالتين ، فقد تفترض أن احدهما لا معنى لها ، وأن تصورك لا يمثل فكرة متميزة . واذا كان هنالك تصوران يقودانك الى نفس النتيجة الجزئية ، فانك تستطيع أن تفترض أنهما معا يحملان نفس المعنى تحت اسمين مختلفين .

وتنطبق هذه القاعدة على التصورات في كل نظام فيه تعقيد ، من الحدود البسيطة الى القضايا التي تضم حدودا كثيرة .

(٣٦) قارن ، «وليم جيمس» : البرجماتية • الفصل الثاني • وكذلك مادة «البرجماتية» بقلم «بيرس» C. S. Peirce في قاموس الفلسفة لبالدوين •

وهكذا اشتد الجدل فى الفلسفة حول كلمات وأفكار ساء تعريفها ، وكل فريق يدعى أن كلماته وأفكاره وحده هى الصادقة ، ومن هنا كانت الفائدة التى نجنيها عظيمة اذا اتخذنا منها مقبولا يجعل المعانى واضحة . وليس ثمة منهج أقرب الى تناولنا فى التطبيق من تلك القاعدة البرجماتية . فلو كنت تدعى أن فكرة ما صادقة فعليك أن تشير فى نفس الوقت الى بعض الاختلافات التى يؤدى اليها كونها صادقة فى تاريخ بعض الأشخاص ، وحينئذ لن ترى فقط أن كنت على حق فى دعواك بل ستعرف أيضا أهمية هذا الطريق ، وكيف تشرع للعمل على التحقق من دعواك . وباتباع هذه القاعدة نهمل مضمون التصور وتتبع وظيفته فحسب . وقد يبدو هذا الإهمال لأول نظرة موطن مؤاخذة ، اذ قد يكون للمضمون فى أغلب الأحيان قيمته الخاصة ، وهى قيمة ربما زانت الواقع وصقلته اذا كان هذا المضمون بعيدا عن أن يجرى أى تعديل على سائر أجزاء الواقع . وعلى ذلك فكثيرا ما ظن الناس أن « المثالية » نظرية نفيسة فى ذاتها ، وان لم يترتب عليها أى تغير محدد فى تفاصيل تجربتنا . وستبين بالمناقشة فيما بعد أن هذه النظرة سطحية ، وأن النتائج الجزئية هى المعيار الوحيد لمعنى التصور والاختبار الوحيد لصدقه .

أمثلة على ذلك

ولا اخالنى بحاجة الى أن أسوق أمثلة على ذلك : اذ الأمر غاية فى الوضوح : فكون (أ) تساوى (ب) يعنى اما أنك لا تجد اختلافا ما حين تمضى من الواحد الى الآخر ، واما أنك لو استعصت عن الواحد منهما بالآخر فى عمليات معينة ، لحصلت على النتيجة عينها فى كلتا الحالتين . وكلمة « جوهر » تعنى « تكرار مجموعة محددة من الاحساسات » . وكلمة

« الممتنع على القياس » تعنى أنك تواجه على الدوام باقيا . وكلمة « اللامتناهى » تعنى اما نفس المعنى السابق ، أو « أنك يمكنك أن تصادف من كثرة الوحدات في الجزء ما تصادفه في الكل » . وكلمتا « أكثر » و « أقل » يعنيان احساسات معينة تختلف باختلاف الأحوال . و « الحرية » تعنى « عدم الشعور بقيد محسوس » ، و « الضرورة » تعنى « أن الطريق مغلق أمامك في جميع الاتجاهات ما عدا اتجاها واحدا » و « الله » يعنى « أنك تستطيع أن تطرد أنواعا من المخاوف » و « العلة » تعنى « أنك يمكنك أن تتوقع نتائج معينة » .. الخ .. الخ .

وسنصادف أمثلة عديدة من هذا القبيل فعلينا الآن أن نعود الى السؤال الأعم ، أعنى ما اذا كان عالم التصورات في جملته متوقفا على علاقته بالتجربة الحسية ، أو ما اذا كان بذاته كشفا مستقلا للحقيقة . في الاجابة على هذا السؤال لبس كبير .

أصل التصورات هو نفعها

وأول ما يجدر بنا ملاحظته بقدر ما يسعنا الحدس والتكهن ، أن التفكير في المراحل الأولى للذكاء الانسانى كان قاصرا على الناحية العملية . ثم أخذ الناس يصنفون احساساتهم في فئات ، ويستعيضون عنها بالتصورات ، لكى يستخدمونها فيما هى أهل له . وليتأهبوا للمهام التى ستواجههم . وأسماء كل فئة تدل على نتائج ربطت بينها في مناسبات أخرى وبين سائر أفراد الفئة — وهذه النتائج قد يظهرها أيضا الادراك الحسى الحاضر . (٣٧) وعلى ذلك فالادراك الحسى الحاضر المباشر كثيرا ما يغوص وراء النتائج التى يفترضها التصور المستعاض به عن الادراك الحسى .

(٣٧) قارن بصدد الاستخدامات العملية لعملية التصور . «وليم جيمس»: أصول علم النفس - الفصل ٢٢، ج ٠ ميللر J. B. Miller : سيكولوجية التفكير - ١٩٠٩ - وبخاصة فى الفصول (١٥ ، ١٦ ، ١٧) .

وعلى الجملة فإن الاستعاضة عن التيار الحسى المباشر بتصورات مرتبطة فيما بينها بارتباطات تجمعها في نظام تصوري عام ، يتسع بميدان مشهدها العقلي . فلو لم يكن لنا تصورات لعشنا ببساطة تقف عند لحظات تجربتنا الواحدة اثر الأخرى ، كحيوان البحر الذى لا عش له ، يربض على صخرته متقبلاً ما تواتيه به أمواج البحر من فضلات الطعام . ونحن نستطيع بالتصورات أن نشرع في البحث عن الغائب ، وعما هو بعيد عنا ونتجه بنشاط في هذا الطريق أو ذاك نظوى تجربتنا وتعرف حدودها . نغير من نظامها فنعود بها الى وراء ، نجمع قطعها البعيدة ، ونفرك قطعها القريبة ، ونثب فوق سطح تجربتنا بدلاً من أن نفوص فيها ، ونشكل من موادها البسيطة عددا من الأشكال الهندسية على قدر ما يستطيع عقلنا أن يشكل . كل هذه وسائل تتوصل بها لنقبض بأيدينا على التيار الحسى المتدفق ، ولنلتقى بأجزائه البعيدة . ومهما يكن شأن هذه الوظيفة الأولية التى يؤددها التصور ، فأننى أختتم حديثى عنها بما سبق أن ذكرته ، وهى أنها ملكة تنضاف الى وعينا الحسى العارى لتهيئتنا في الميدان العملى ، للتكيف ببيئة أوسع من البيئة التى يعيش فيها الحيوان . (٣٨) اننا نرتب الواقع الحسى في تصورات لنستغله فيما يلائم أهدافنا ملائمة أفضل .

الاستخدام النظرى للتصورات

وهل ترجبتنا التصورية للتدفق الحسى تمكنا من فهم الماضى فهما صحيحا ؟ وماذا نعنى بقولنا تمكنا من فهمه ؟ اننا لو طبقنا قاعدتنا

(٣٨) فى القسمين الثالث والرابع من كتابه «علم النفس» حاول «هربرت سبنسر» أن يبين باستفاضة أن مثل هذا التركيب هو وحده الذى يجعل لعقلنا معنى .

البرجماتية فى تفسير الكلمة ، لرأينا أنه كلما كان فهمنا لشيء ما أفضل كانت قدرتنا أكبر على أن نتحدث عنه ، وقياسا على ذلك فان تصوراتنا تجعلنا نفهم مدركاتنا الحسية فهما أفضل . فمعنى كوننا نعرف هذه المدركات هو أننا نستطيع أن نذكر جميع أنواع الحقائق البعيدة المتصلة بها ، وستكون علاقات الواقع من زمانية ومكانية منظمة ومرسومة . وثمة رأى فلسفى قديم منحدر من «أرسطو» ، يذهب الى أننا لا نستطيع أن نفهم شيئا ما الا اذا أحطنا بعلمه . فعندما نقول الخادم : « ان القط كسر فنجان الشاي » ، فانها تريدنا أن نتصور الكسر تصورا سببيا يربط بين العلة والمعلول . ولم يفعل « كلارك ماكسويل » شيئا آخر حين طلب منا أن نتصور أن كهرباء الغاز هى السبب فى تفجر الذرات . فثمة عامل خيالى يستخفى على النظر ينضوى فى محتوى العالم ، ونحن نضع مكانه المدرك الحسى الذى نبغى تفسيره ، وتتوقف صحة التفسير على مدى تصور العلة تصورا يجعل وجودها مرجحا لصلتها بالمعلولات التى تنجم عنها . ويلوح أن تفسيراتنا العلمية كلها تطابق هذا النمط البسيط « ضرورة القطة لكسر الفنجان » كما سبق أن أوردنا فى مثال الخادم . ان النظام المتصور للطبيعة قد بنى حول نظامها الحسى وهو يتولى تفسيره تفسيراً نظرياً ، وهذا النظام التصورى لا يعدو أن يكون نظاماً فرضياً تطابق قسّماته قسّمات الإدراك الحسى المباشر .

فالنظام التصورى هو فى جوهره نظام طوبوغرافى ، أى نظام توزيع الأشياء . وهو يفيدنا عن هذه وتلك من العلاقات التى تساءل عنها . وعلى ذلك فالنظام التصورى يقتصر على تجلية نتائج العملية ، وتلك هى المنفعة الحيوية التى نجنيها من ملكة التصور : فالتصور يجعلنا تتكيف بيئة متسعة.

وحين نعمل ونحن على يئنة من علل الأشياء نجنى منافع لم تكن لنجنيها
لو كنا نعمل مقتصرين على الأشياء وحدها .

فى العلوم الأولى

ولكن لكى نصل الى مثل هذه النتائج ينبغى أن تكون التصورات فى
نظامها المفسر لها مرتبطة فيما بينها ارتباطا متناغما . وماذا يعنى ذلك ؟ هل
يعنى ذلك أيضا ميزة عملية فحسب ، أم أن ثمة شيئا آخر فضلا عن هذا ...؟
يبدو أن ثمة شيئا جديدا ، لأنها تشير الى الحقيقة القائلة بأنه ما تكاد أنواع
مختلفة من التصورات أن يتم تجريدها أو بناؤها حتى تقوم علاقات جديدة
ترتبط بينها بوسائل وثيقة عقلية لا يطرأ عليها تغير . ولقد حاولت فى كتاب
آخر ^(٣٩) أن أبين أن هذه العلاقات العقلية هى كلها ثمرات للمكتنا التى
تقارن وللحاسة التى لدينا عن « التفاوت » .

والعلوم التى تعرض هذه العلاقات هى العلوم التى نطلق عليها العلوم
الأولى ، وهى الرياضيات والمنطق ^(٤٠) . ولكن هذه العلوم تفصح عن
علاقات المقارنة والهوية دون غيرها . فالهندسة والجبر مثلا يقومان أولا
بتعريف بعض الموضوعات التصورية ، ثم يقيمان بعد ذلك معادلات بينها
بحيث يحل كل موضوع محل ما هو مساو له . ولقد عرف المنطق بأنه
« إبدال المتشابهات » ، وفى وسع المرء أن يقول بصفة عامة ، ان ادراك

(٣٩) أصول علم النفس - ١٨٩٠ . فصل ٢٨ .

(٤٠) شرح د. هـ. لويس G. H. Lewes ، طابع الضرورة فى الحقائق
المجردة التى تعرضها هذه العلوم شرحا طبيا فى كتابه : مشكلات الحياة والعقل
- المشكلة الأولى ، الفصلان الرابع ، والثالث عشر وبخاصة ص ٤٠٥ ، وما يتبعها
فى الطبعة الانجليزية للكتاب (١٨٧٤) .

التشابه أو عدم التشابه يولد الحقيقة « العقلية » أو « الضرورية » كلها .
وليس ثمة شيء يحدث في عالم المنطق والرياضيات ، وفي عالم التفصيل
الإخلاقي أو الجمالي . ان الطبيعة الثابتة للعلاقات في هذه العوالم هي التي
تصنع القضايا التي تعبر عنها بالطابع السرمدي . فنظرية ذات الحدين تعبر
عن قيمة أو قوة أو أية كمية قائمة في حدين الى نهاية الزمن .

هذه الأنظمة الواسعة الثابتة للحدود الكلية هي التي تشكل عوالم
الفكر الجديدة التي سبق أن تحدثت عنها . فالحدود عناصر (أو تتألف من
عناصر) جردت من التدفق الحسي ، ولكننا نلاحظ في شكلها المجرد
علاقات قائمة بينها (ثم علاقات بين هذه العلاقات) يمكننا من أن نضع
مشروعات متعددة لأنظمة متتابعة محدّدة ، ولروابط متفاوتة . والألفاظ
أو الحدود هي في الواقع من صنع الانسان ، ولكن النظام وهو ينجم عن
المقارنة ، تحدده طبيعة الألفاظ من ناحية ، وقوة ادراكنا للعلاقات من ناحية
أخرى . وعلى ذلك فمجموعتان مجردتان كل منهما من اثنين تظلان دائما كما
هما باعتبارهما أربع مجردات . وما يحتويه المتضمن يحتويه كذلك المتضمن
فيه ، وإذا أضيفت مساويان الى متساويين فالنتيجة متساوية دائما في عالم
المساواة المجردة فيه هذه الخاصية الوحيدة التي يفترض أن الألفاظ حاصلة
عليها . وما هو أكثر من الأكثر فهو أكثر من الأقل بصرف النظر عن الاتجاه
الذي تتم الزيادة فيه . فانك اذا انتزعت حدا من سلسلة واحدة فانك تنتزع
حدا من السلسلة الأخرى في كل مرة . والسلسلتان لا تنتهيان أبدا ، أو
تنتهيان معا أو احدهما تستغرق قبل الأخرى ... الخ ... الخ ، والنتيجة
هذه الهياكل من الحقيقة « العقلية » أو « الضرورية » التي تستند اليها كتبنا
في الرياضيات (وأحيانا في الفلسفة) في ترتيب حدودها الكلية .

وفى علم الطبيعة أيضا

« وصياغة أية كتلة من كتل الواقع الحسى صياغة عقلية » تتمثل فى تحويل حدودها المشخصة واحدا بواحد الى حدود المجموعات التصورية ، ثم بعد ذلك فى افتراض أن العلاقات التى نجدها بالحدس بين الحدود الأخيرة ترتبط بالحدود الأولى أيضا . وعلى ذلك فنحن نصوغ ضغط الغاز صياغة عقلية بأن نمائل بينه وبين ضربات جزيئات مفترضة . ثم نرى أنه كلما اشتد ازدحام الجزيئات ، اشتدت الضربات على الحوائط ، ثم نميز بعد ذلك النسبة الدقيقة بين ازدحام الجزيئات وعدد الضربات . وبذلك يتخذ قانون « ماريوت » صورته العقلية آخر المطاف . وكل تحويلاتنا من النظام الحسى الى معادل عقلى تماثل ذلك . فنحن نستفسر من الطيف الجميل — كما يسميه أمرسون — الذى تضعه حواسنا ، دون ما انقطاع فى طريقنا ، وتحيلنا مفرداته الى ما يفترها فى شكل أبنية فكرية فى ترتيب ثابت شكله عقلنا من قبل من تصوراته وحده . فنحن نستعيض اذن بالمفسرات عن الاحساسات التى غدت متصورة عقليا . فالتفسير معناه التنسيق بين الواحد والآخر من أجزاء التيار الحسى ، وأجزاء النظام العقلى حيثما كانت .

ويمكننا أيضا أن ندعو هذا اقتصارا على النظام الذى جاءت عليه الطبيعة فى الأصل . والنظام التصورى الذى تترجم اليه تجربتنا ، ليس فعصب وسيلة للتكيف العملى ، بل هو أيضا كشف عن مستوى أعمق لحقيقة الأشياء . وكلما كان هذا النظام أثبت كان أكثر صدقا وأقل وهما من النظام الحسى ، وينبغى أن يستأثر استثنائا أعظم باتبائها .

التصورات تاتى بقيم جديدة

وما برح هناك سبب آخر لكون التصور يؤدي وظيفة غاية فى الأهمية .

فالتصورات لا ترشدنا في خريطة الحياة فحسب ، بل تعيد وضع قيم للحياة حين نستخدمها . وعلاقة التصورات بالمدركات الحسية مماثلة لعلاقة البصر باللمس . فالبصر يعيننا في الواقع حين يهيننا للاحتكاك باللمس . بينما تكون هذه ما زالت بعيدة جدا عنا . ولكنه ينعم علينا فضلا عن ذلك بعالم جديد تتجلى فيه روعة الرؤية ، عالم يجذب اهتمامنا ويجعلنا قبل على حياة مليئة بالعمل . وهذا بالضبط ما تفعله التصورات حين تخلع على عالمنا روعة وجمالا . وان امتلاك صور عديدة بسيطة مترامية الأطراف هو في ذاته خير ملهم ، اذ يوقظ فينا مشاعر جديدة بالتسامي والقوة والاعجاب ، ويثير فينا اهتمامات جديدة وحوافز عديدة .

وكثيرا ما ترمق المثالية الأشياء بنظرة اعجاب ، لا لشيء الا لأنها جردت « فالعلل مثل : هدم العبودية ، والديموقراطية الخ ... » تنضاء حين تتحقق في جزئيات . ان المجردات لتلمسنا حين تتجه الى الأمثلة المشخصة التي تكمن فيها هذه المجردات . ولما كنا أوفياء في مقاييسنا لمثل عليا خاصة ، فانا لا نلبث أن ننظر الى الولاء المجرد على أنه شيء أسمى يكون الولاء فيه ولاء لا متناهيا ، وتغدو الحقيقة على طول المدى ، « منفذا مؤقتا » اذا قورنت بما تكون عليه الحقائق في تفصيلاتها من « فضلات حقيرة ونجاح هش »^(٤١).

(٤١) قارن :

W. Ostwald : Vorlesungen über Naturphilosophie, Sechste Volesung.

انظر ج ٠ رويس : فلسفة الولاء - ١٩٠٨ وبخاصة المحاضرة السابعة ،

القسم الخامس J. Royce : 'The Philosophy of Loyalty

يقول امرسون Emerson : « ان كل انسان يشاهد على تجربته بقعة من الخطأ ، في حين أن تجربة غيره من الناس تبدو له جميلة ومثالية . ولو عاد المرء الى تلك العلاقات العذبة التي جعلت حياته جميلة ، والتي زودته بأصدق ثقافة وأمتع غذاء لتقطر أسي وحسرة . وا أسفاه ! لست أدري لم يجعل وخر الضمير في =

وبقدر قوة تنبيه الموضوعات العامة الأزلية لحساسيتنا تكون للحياة قيمة أعمق حين تترجم المدركات الحسية الى أفكار ! وتظهر الترجمة كما لو كانت بعيدة جدا عن الأصل الذى نقلت عنه .

الخلاصة

وعلى ذلك فالتصورات تؤدي أدوارا ثلاثة متميزة المعالم فى الحياة الانسانية .

١ — فهى تقودنا كل يوم فى حياتنا العملية وتزودنا بخريطة واسعة من العلاقات القائمة بين عناصر الأشياء ، وهذه الخريطة ، وان لم تساعدنا الآن ، فهى تعيننا فى مناسبات مستقبلية ممكنة وترشدنا ارشادا عمليا .

٢ — وتأتى التصورات بقيم جديدة فى حياتنا الحسية ، وتنعش ارادتنا من جديد ، وتجعل أعمالنا تتجه الى قطب جديدة أشد فاعلية .

٣ — والخريطة التى يرسمها العقل من التصورات ، لها فى ذاتها وجودها المستقل عندما يتم تكوينها . وهى تكفى بذاتها جميع أغراض الدراسة . وواجبنا أن نقر بالحقائق الأزلية التى تحتويها هذه الخريطة حتى ان انعدم عالم الحس .

= سن النضج أحلى ذكريات الحداثة ذكريات مرة، ويتغلغل فى كل اسم عزيز. كل شيء جميل اذا نظرت اليه من زاوية العقل أو نظرت اليه كحقيقة من الحقائق ، ولكن كل شيء مر لو نظرت اليه كتجربة : فالتفصيلات كثيبة ولكن الخطة العامة نبيلة مزدانة . فى الحياة الواقعية — دولة الزمان والمكان الأليمة — تسكن الهموم والآفات والمخاوف . ومع الفكر والمثل الأعلى يوجد البشر الخالد أو زهرة السرور، وحوله تصدح جميع آلهة الشعر بالغناء . ولكن الحزن يلتصق بالاسماء والأشخاص والاهتمامات الجزئية واليوم والأمس . (مبحث فى الحب) .

من هذا نرى بوضوح مبلغ مكسبنا وخسارتنا حين نترجم المدركات الحسية الى تصورات ، فالادراك الحسى قاصر على ماهو هنا وما يجرى الآن ، والتصور ينصب على ما يماثل وما لا يماثل فى المستقبل ، وفى الماضى ، وفيما هو بعيد كل البعد . ولكن هذه الخريطة لما يكتنف الحاضر خريطة سطحية شأن جميع الخرائط . فقسماتها لا تعدو أن تكون علامات ورموزا لأشياء هى فى ذاتها قطع مجسمة فى التجربة الحسية . ونحن لا نملك الا أن نزن المصدق والمفهوم ، وما هو سميك وما هو منتشر ، وقد رأينا أن أحدها قد يكون له قيمة أعلى فى الأعراض ، والآخر قيمة أسمى فى بعض الأعراض الأخرى . ومن منا يستطيع أن يقرر قرارا حاسما ، أيهما خير خيرا مطلقا : أن نعيش أو أن نفهم الحياة ؟ ينبغى لنا أن تؤدى المهمتين معا ، ولا يستطيع الانسان أن يقتصر على احدهما دون الأخرى ، كما لا يستطيع المقص أن يقطع بأحد نصلية دون الآخر .

الفصل الخامس

المدرک الحسّي والتصور

سوء استعمال التسمیة (٤٢)

المذهب العقلي

بالرغم من هذه الحاجة الواضحة للاستناد الى مدرکاتنا الحسية ، اذا كان لقوانا التصورية أن تعنى شيئا متميزا ، فقد كانت هنالك نزعة بين الفلاسفة لاعتبار عملية التصور أشدّ الأمور جوهرية في المعرفة . (٤٣)

لقد كان اعتقاد الأفلاطونية الدائم أن النظام العقلي ينبغي أن يحلّ محلّ الحواس ، لا أن يفترها . فالحواس ، بمقتضى هذا الرأي ، هي وسائل وهم مهزوز تقف في طريق « المعرفة » بالمعنى الوطيد لهذه الكلمة . ان الحواس أمر معتدّ يحمل سوء الحظ ، يمكن للفلاسفة أن يضربوا عنه صفحا ، وهم آمنون .

وقد كتب أحد هؤلاء الفلاسفة يقول : « ان نماذجكم الحسية ليست

(٤٢) هذا الفصل والفصل التالى له ليسا منفصلين في مخطوط الكتاب .

« ناشر الأصل الانجليزى »

(٤٣) قد تذهب النظرة العقلية التقليدية الى أنه من الأفضل اطلاقا أن نفهم الحياة دون أن نتورط في اضطرابها . ويقول «وليم والاس» : «ان مهمة الفلسفة الخاصة بها هي فهم العالم دون أن تحاول جعله أفضل مما هو عليه» .
انظر ص ٢٩ من ، مقدمات الى دراسة فلسفة هيغل . ط ث .

اكسفورد ١٨٩٤

William Wallace : Prolegomena to the Study of Hegel's Philosophy.

الا ظلاما ، فاذكروا هذا وارفعوا الى أعلى حيث العقل ، وسترون النور .
الزموا حواسكم وخيالكم وانفعالاتكم بالصمت ، وستسمعون حينئذ
صوت الحقيقة الباطنية النقيّ ، واجابات عقلنا المشترك الجليّة الواضحة .
إنّاكم أن تخطوا هذه البينة التي تنجم عن المقارنة بين الأفكار ، بحيوية
المشاعر التي تتحرك وتمسّكم . يجب علينا أن تتبع العقل رغم تلطّفات
البدن الذي نلتصق به ، ورغم تهديداته واهاناته ، ورغم تأثير الموضوعات
التي تحيط بنا ... اننى لأهيب بكم أن تقرّوا بأن ثمة فارقا بين أن نعرف
وأن نحس ، بين أفكارنا الواضحة واحساساتنا الغامضة المختلطة على
الدوام . (٤٤)

ذلكم هو المذهب العقلي التقليدي . فحينما ارتأى مؤسسة أفلاطون
— منذ البداية — أن التصورات تشكل عالما منفصلا تماما ، واعتبر هذا
العالم الموضوع الوحيد الذي يصلح لدراسة العقول الخالدة ، فقد أشعل
في صدر البشرية نوعا من الحماس جديدا بالمرّة . فهذه الموضوعات هي
الموضوعات الثمينة ، والأشياء المحسوسة هي الحثالة .

وحين قدم (ديونيسيوس) — الذي كان يدرس بآثينا — أفلاطون
الى بلاط حاكم سراقوصه المستبدّ الفاسد ، استقبل أفلاطون كما يحدثنا
بلوطارخ : « بغاية الرقة والاحترام ... وبدأت تراود المواطنين أروع الآمال
في اصلاح عاجل حين لاحظوا التواضع الذي ساد المآدب ، والدماثة والوقار
للذين شملا الحاشية . وسلك طاغيتهم أيضا مسلك الذوق والانسانية ...
لقد كان ثمة رغبة عامة للاستدلال والفلسف ، الى حد أن القصر ذاته ،

(٤٤) مالبرانش : أحاديث في الميتافيزيقا

• الحديث الثالث •

Malebranche : Entretiens sur la Métaphysique 3me. Entretien, vii, 9.

كما حكىَ قد ملأه الغبار من تسابق الطلاب في الرياضيات ، حين كانوا يطون مسائلهم هناك على الرمال . وقد أبدى البعض استنكاره أن استطاع الأثينيون آنذاك — بعد أن قدموا الى سراقوسة بأسطول ضخم وجيش عرمرم ، وبعد أن هلكوا يائسين دون أن يتمكنوا من الظفر بالمدينة — استطاعوا بفضل أحد السفسطائيين أن يقبلوا سيادة « دبونسيوس » رأسا على عقب ، وأن يغرّروا به حتى يصرف حرسه المؤلف من عشرة آلاف فارس من حاملي الرماح ويجل أسطوله المكون من أربعمئة سفينة ، ويمسّح جيشا من عشرة آلاف فارس وأضعاف هذا العدد من المشاة ، يفعل هذا كله ويذهب الى المدارس يسعى لخلاص خيالي مجهول ويتعلم بالرياضيات كيف يكون سعيدا .

نقائص الترجمة التصويرية

أما وقد بسطت الآن للقارئ أفضال الترجمة التصويرية فانه يلزم أن آيّن وجوه القصور فيها .

فنحن نتوسع في نظرتنا حين ندخل مدركاتنا الحسية في خريطتنا التصويرية : فنحن نحيط علما بها ونشكّل قيمة بعضها تشكيلا مختلفا . بيّن أن الخريطة تظل سطحية من ثنايا التجريد وباطلة خلال انفصال عناصرها بعضها عن البعض ؛ وأبعد عن أن يؤدي هذا كله بنا الى أن تبدو الأشياء أقرب الى أن تعقل ، تلوح العملية كلها مصدرا لألوان من الغموض واللبس ما كان أغنانا عنها .

ان المعرفة التصويرية هي دائما أبدا غير متلائمة مع صميم الواقع الذي نروم معرفته . ان الواقع يتألف من أجزاء موجودة مثلما يتألف من ماهيات وكليات وأسماء نوع . ونحن لا نكون على بينة بالأجزاء الموجودة بالفعل

التي تيار الإدراك الحسي وحده . وليس في الوسع تخطى هذا التيار
آلية ، فيجب أن نحمله معنا الى أقصى نهاية في مهمتنا من أجل المعرفة ،
محتشون به في صميم ترجمتنا ، حتى وان أتت هذه الترجمة مشرقة ، ونعود
اليه وحده حين تنصر هذه الترجمة . ان الاحساس لا يقهر ، هذا هو
تعبير موجز عن رأى .

الاحساس لا يقهر

ولكى أبرهن على هذا الرأى يجب أن أيبّن (١) أن التصورات هي
تشكلات ثانوية قاصرة ومساعدة فقط . (٢) وأنها تموّه كما تغفل ، وتجعل
من المستحيل فهم تيار الادراك الحسى .

١ — ان عملية التصوّر عملية ثانوية ليست لازمة للحياة . وهي
تنبىء عن ادراك حسى يحقق اشباعا ذاتيا كما هو الشأن في المخلوقات
الدنيا حيث نجد أن حياتنا الشعورية تمضى بفضل تكيفات انعكاسية .
ولكى نفهم تصورا ما يجب أن نعرف ما يعنيه . فهو يعنى دائما
« هذا » ، أو جزءا مجردا من « هذا » ، تألفه لأول مرة في عالم الادراك
الحسى : أو يعنى مجموعة من تلك الأجزاء المجردة . فالمضمون التصورى
مستعار كله : فلكى تعرف ما يعنيه تصور « اللون » يجب أن تكون رأيت
الأحمر والأزرق أو الأخضر : ولكى تعرف ما تعنيه « المقاومة » ، يجب
أن تكون قد بذلت مجهودا . ولكى تعرف ما تعنيه « الحركة » لابد
أن تكون مررت بتجربة ما ايجابية أو سلبية . وينطبق هذا بالمثل على أدق
التصورات من قبيل الكيفيات مثل « اللمع » « الأجش » . ولكى نعرف
ما تعنيه كلمة « الاستدلال » لابد أن يكون المرء قد تصبب عرقا وهو يقلب
النظر في حبة معينة . ولكى نعرف ما تعنيه « النسبة » لابد أن يكون

الانسان قد قارن بين النسب في حالة محسوسة . وفي وسعك أن تبتكر تصورات جديدة من عناصر قديمة ، ولكن يتحتم أن تأتي هذه العناصر من الادراك الحسى ولا يلبث أن يتبدد عالم الكليات المشهور مثل رغبة الصابون اذا أمكن أن تختفى دفعة واحدة المضامين المحددة للاحساس المتمثلة في هذا أو ذاك من الأشياء . فسواء أكانت تصوراتنا تعيش بالعودة الى عالم الادراك الحسى أولا ، فانها تعيش لأنها آتية من هذا العالم . فعالم الادراك الحسى هو التربة المغذية التى تستمد منها هذه التصورات رحيق حياتها .

٢ - ان تناول الواقع الادراكى تناولا تصوّريا يجعله يبدو متناقضا غير مفهوم . ولو سرنا على هذا المتوال لأفضى بنا ذلك الى الظن بأن التجربة ليست هى الواقع فى شيء ، وانما هى مظهر ووهم فحسب . وهذه ، باختصار ، هى نتيجة واقعيتين :

لم كانت التصورات قاصرة ؟

أولا : عندما نستبدل التصورات بالمدركات الحسية فاننا نستبدل أيضا علاقاتها . ولكن ما دامت المقارنة بين علاقات التصورات مقارنة ثابتة فقط ، فمن المتعذر أن نستبدلها بالعلاقات الدينامية التى تملأ تيار الادراك الحسى . ثانيا : ان النسق التصورى من حيث أنه مؤلف من حدود متقطعة ، لا يمكن أن يعطى تيار الادراك الحسى الا فى نقط فقط ، وبطريقة غير مستوعبة . فالتصور لا يأتى على مقياس الادراك الحسى . فكثير من القسمات الجوهرية لتيار الادراك الحسى تثقل حين نضع تصورات مكانها .

ويتطلب هذا شرحا أوفى . فنحن لدينا تصورات لا عن الكيفيات والعلاقات فحسب ، بل عن الأحداث والأفعال أيضا . وقد يبدو أن هذه

الأخيرة يمكن أن تجعل النظام التصوري فعّالا (٤٥) . ولكن قد يكون هذا تفسيراً باطلاً . فالتصورات ذاتها تثبت ، وإن كانت دالة على أجزاء تتحرك في تيار الإدراك الحسي . وهي لا تنشط وإن كانت تدل على وجوه نشاط ، وحين نستعيض عنها وعن نظامها ، فأننا نستعيض عن نسق لا تحول طبيعته الثابتة في صميمها ، لأن بعض حدودها ترمز إلى أصول

(٤٥) يتوخى الأستاذ « هيبين Hibben » - في مقال له في المجلة الفلسفية Philosophic Review - المجلد التاسع عشر ص ١٢٥ وما بعدها - (١٩١٠) - الدفاع عن النسق التصوري ضد هجمات مماثلة لتلك التي ذكرنا بعضها في هذا الكتاب . وهو يظن أن هذه الهجمات تنجم عن سوء فهم للوظيفة الحقيقية للمنطق ، « فالوظيفة الخاصة للفكر هي أن يمثل المستمر » . ويبرهن الأستاذ « هيبين » على ذلك بمثال حساب التفاضل والتكامل .

وردي على هذا أن حساب التفاضل والتكامل حين يستعيض عن بعض الاستمرارات الحسية برموزه الخاصة ، يتركنا نتبع التغيرات نقطة بعد أخرى ، ومن ثمة معادلها العملي لا الحسي . فهذا الحساب لا يمكن أن يكشف عن أي تغير لشخص لم يشعر به أبداً ، وإنما يستطيع أن يتأدى به إلى حيثما يستطيع التصور أن يقوده . فالحساب يمكن عملياً أن يحل محل التغير ، ولكنه لا يمكن أن يعيد توليده .

وما أتوخى جاهداً تبياناً هنا هو أن جزء الواقع الذي لا يسمح بأن ينتج مرة أخرى هو جزء جوهري من مضمون الفلسفة ، بينما يلوح أن « هيبين » والمناطقة يعتقدون في أن التصور - إذا أمكن أن نصل إليه بسداد - يغني غناء تاماً . يقول « هيبين » : « إن واجب الفلسفة الخاص بها ، والميزة التي تمتاز بها ، هو تمجيد امتيازات العقل » . وهو يطالب بأن تكون الكليات قادرة على أن تتناول الجزئيات تناولاً سديداً . وعلى ذلك فالتصورات لا يستبعد أحدها الآخر ، كما اتهمتها أنا بذلك في نص هذا الكتاب . والحق أن التصورات التأليفية تحتوي على قدر وافر من تصورات مساعدة ، وعالم « الأولية » مليء بها . ولكنها جميعاً دالة ، وأظن أن أي قارئ ينظر بعناية إلى ما كتبت لن يتهمني بأنني ساويت بين « المعرفة » وبين الإدراك الحسي أو التصور العقلي إطلاقاً أو أياً منهما منفرداً . إن عملية الإدراك الحسي تزود معرفتنا « بالفهم » بينما تزودها عملية التصور العقلي « بالصدق » .

متغيرة . فمثلا تصوّر « التغير » هو دائما ذلك التصور الثابت . فلو تغيّر لظلّ أصله كما هو ليدل على الأصل الذى تغيّر عنه ، وحتى حينئذ يمكن أن يغدو التغير عملية مستمرة مدركة ، قد تتمثل ترجمتها الى تصورات فى مجرد الحكم بأن بعض أجزائها قد اختلفت عن ذى قبل أو عن ذى بعد . ومثل هذه الاختلافات تصوّر على أنها علاقات ثابتة تماما .

أصل النزعة العقلية

حيثما تصورنا شيئا عرّفناه . وإذا لم يتهيا لنا بعد ذلك فهمه ، فإنا نعرّف التعريف . وعلى ذلك ، فأنا أعرّف مدركا حسيا ما بقولى : « هذه حركة » أو « أنا أتحرك » ؛ ثم أعرّف الحركة بأن أقول : « انها الوجود فى أوضاع جديدة عند لحظات جديدة فى الزمان » وتغدو عادة وصف كل شئ على ما هو عليه راسخة . وبقدر مضيئنا فيها قَدما بقدر ما نعلم عن موضوع بحثنا ، وننتهى الى الظن بأن معرفة هذا الموضوع تتحقق دائما كلما ازداد بعدنا عن النمط الادراكى الحسى للتجربة . هذه العادة التى لا يتصدى أحد لنقدها ، مضافا اليها ذلك السحر الكامن فى الشكل التصورى ، هما مصدر « النزعة العقلية » فى الفلسفة .

القصور فى النزعة العقلية

يبد أن هذه النزعة العقلية سرعان ما تنهار . فحين نحاول أن نحيط بالحركة اذ تتصورها جملة الأجزاء الى ما لا نهاية ، فإنا لا نجد الا قصورا . فمع أن فى وسعك ، حين يكون أمامك شئ مستمر أن تجزّكه قطعا ونقطا على هواك ، فتعداد النقط والقطع لن يرد لك الشئ المستمر ثانية . ان الذهن الذى ينزع نزعة عقلية يسلم بذلك ، ولكنه بدلا من أن يرى الخطأ

في التصورات ينحى باللائمة على تيار الادراك الحسى . ويجتهد « كنت » ليبين أن هذا التيار ليس له حقيقة واقعية في ذاته من حيث هو مكان ظاهرى فحسب لمولد التصورات ، وهو مكان يستعاض عنه بغيره دون ما تحديد . وحين نرى أن هذه التصورات عينها لا تصل أبدا الى مجموعة مستكملة ، فإن بعض المفكرين يبحثون عن الحقيقة الواقعية خارج تيار الادراك الحسى والنسق التصورى . ويضعها « كنت » قبل التيار في شكل ما يدعوه « الأشياء بالذات » ^(٤٦) . وآخرون يضعونها بعد الادراك الحسى ، كمطلق ؛ وهذا ما فعله « برادلى » . أو يقدمونها على أنها فكر تسمو طرائق تفكيره عن طرائقنا (كما هو الشأن عند Green, the Cairds Royce . وفي أية حالة من هذه الحالات ، نجد أن مدركاتنا الحسية وتصوراتنا معا يتناولها هؤلاء الفلاسفة لتمويه الحقيقة . ولكن ما يصيب التصورات من التمويه أقل مما يصيب المدركات الحسية ، لأن الأولى ثابتة . وجميع الكتاب العقليين يفترضون الحقيقة النهائية ثابتة أيضا ، بينما الحياة الادراكية تموج بالنشاط والتغير .

أمثلة من الالغاز التى تقدمها الترجمة التصورية

فاذا تناولنا قليلا من الأمثلة ، يمكن أن نرى كيف أن كثيرا من متاعب الفلسفة يأتى من ثلثنا بأننا لكى نفهم حياتنا (أى لكى نعرف حياتنا بالمعنى الجدير بهذه الكلمة) الجارية يتحتم تقطيعها الى جزئيات منفصلة ، نرشق عليها نسقا من العلاقات الثابتة . .

(٤٦) يقول «كنت» : «يجب علينا أن نفترض أشياء بالذات» لكى نضع حدودا للصحة الموضوعية للمعرفة الحسية .

((Krit. d. reiner Vernunft, ed. ed. p. 310)

Sinnlichkeit

الحاجة الأخلاقية القديمة لشيء ما من الزجر .

المثال الأول : النشاط والعالية غير مفهومين ؛ ذلك لأن النسق التصوري ، لا يخضع لشيء من قيائهما . فليس ثمة شيء يحدث داخل النسق التصوري ، فالتصورات لا زمن لها ، ويمكن فحسب أن يوضع بعضها متاخما للبعض الآخر وتجرى بينها المقارنة . فالتصور « تلب » لا يعض ، والتصور « ديك » لا يصيح . وبهذا ترجم « هيوم » و « كنت » واقعة العلية بمجرد متاخمة ظاهرتين . وقد شاء الكتاب بعدهما أن يخففوا هذه الفجاجة ، فردثوا المتاخمة الى الهوائية . فيجب أن تكون العلة والمعلول من حقيقة واحدة مقنعة ، وادراكنا للاختلاف في تطابقهما يبدو ، من ثم ، وهما . وقد كان للوتز Lotze رأى فاضح ، اذ ذهب الى أن « تأثير » شيء في آخر لا يمكن تصوره . ان « التأثير » تصور ، وهو بذلك شيء ثالث متميز لا يندمج مع العميل أو المعامل . فماذا يحدث له في طريقه من الواحد الى الآخر « واذا وجد الثاني فكيف يتصرف معه ؟ أبتأثير ثان يفرضه عليه بدوره ؟ ولكن كيف ؟ وهكذا ، وهكذا ، الى أن يصطبغ حدسنا بالنشاط بصبغة الوهم ، لأنك لا تستطيع في يسر أن تنتج من جديد جوهره السيال بمتاخمته للآخر المنفصل عنه . ان النزعة العقلية تستخلص الاستمرار المتحرك من الطبيعة ، كما تستخلص أنت خيطا من مجموعة من المسابح .

المثال الثاني : المعرفة مستحيلة ، ذلك لأن العارف تصور ، والمعروف تصور آخر . وهما بالطبع مفارقان من حيث انهما مستقلان تفصل بينهما هوة . ومن ثم غدا هذا التساؤل : كيف يمكن لموضوع أن يكون في متناول الذات ؟ أو كيف يمكن للذات أن تتناول الموضوع ؟ من أشد ألغاز الفلسفة استعصاء على الحل . وهو مع ذلك لغز غير جاد ، وذلك لأن أشد رجال الأبيستمولوجيا صرامة لا يشك أبدا شكاً حقيقياً في أن المعرفة تتم على صورة ما .

المثال الثالث : الهوية الشخصية مستحيلة تصوريا . « فالأفكار » و « أحوال الذهن » ، هي تصورات منفصلة ، ومجموعات منها في الزمان تعنى كثرة من الحدود غير المرتبطة . الى مثل هذه الكثرة في العناصر يرد أصحاب النزعة الترابطية حياتنا العقلية . واذ يراع الروحيون لهذا التفكك في نسق هذه التصورات يفترضون « نفسا » أو « أنا » لاذابة الأفكار المنفصلة في وعى جامع . بيد أن « الأنا » ذاته ان هو الا تصور آخر منفصل . والطريقة الوحيدة لتفادى اضافة ألغاز جديدة ، هي تزويد « الأنا » بقوة غير مفهومة تولد طابع الكثرة في الواحد ، الذى يأبى العقليون الأخذ به حين يمثل في صورة الادراك الحسى المباشر .

المثال الرابع : الحركة والتغير مستحيلتان . فالادراك يتغير في نبضات ، ولكن النبضات يكمل بعضها البعض الآخر ، وتذيب قيودها . ومع ذلك ففي الترجمة التصورية ثمة استمرار يمكن أن يحل محل عناصر تتصل بعناصر أخرى الى ما لانهاية ، وتتصور كلها منفصلة . وهذه المجموعات اللامتناهية لا يمكن أن تنفذ أبدا بفضل الاضافة المتعاقبة . فمنذ زمن « زينون » الايلي ، كان هذا التناقض الكامن في التغير المستمر ، من أسوأ الأمخاخ في مأدبة المذهب العقلي .

المثال الخامس : التشابه ، على طريقتنا الساذجة في ادراكه ، وهم . فيجب تعريف التشابه ، وحين نعرفه نرده الى مزاج من الهوية والغير . فلكى يعرف التشابه معرفة طيبة يجب أن نكون قادرين على استخلاص النقطة المشتركة استخلاصا واضحا . فاذا فشلنا في ذلك ظللنا رهناء السجن الادراكى « للخلط » .

المثال السادس : حياتنا المباشرة مليئة باحساس الاتجاه ، ولكن ليس ثمة تصور لاتجاه عملية من العمليات الى أن تتم هذه العملية . فبتعريف

الاتجاه على ما هو عليه ببداية ونهاية ، لا يمكن أبدا معرفته معرفة منصرفة للمستقبل ، بل يعرف فحسب معرفة منسحبة على الماضي . ان تمييزنا سلفا تمييزا ادراكيا حسيا للطريقة التى نسير بها ، وكل توقعاتنا المعتمدة للمستقبل ، ينبغى النظر اليها اذن على أنها قسمات لا يمكن تفسيرها أو قسمات وهمية للتجربة .

المثال السابع : لا يمكن أبدا أن يكون لموضوع حقيقى علاقتان فى آن واحد . فعين القمر مثلا لا يمكن أن أراه أنا وأنت فى آن واحد . ذلك لأن التصور « تراه أنت » ليس هو التصور « أراه أنا » . واذا أخذت القمر كموضوع رياضى وجعلت أحد هذين التصورين محمولا له ، فانك تجعل الآخر أيضا محمولا . وتقع بذلك فى الخطأ المنطقى فى القول بأن شيئا يمكن فى آن واحد أن يكون (أ) ولا (أ) . وهذا عبث بيّن ، اذ ولو أن التناقض واضح فى التصور ، فان أحدا لا ينكر مخلصا أن رجلين يريان نفس الشيء .

المثال الثامن : ليس ثمة علاقة تؤخذ على أنها حقيقية فى الصورة التى تفترضها عليها . فالعلاقة هى تصور متميز ، وحينما تحاول أن تجعل تصورين آخرين مستمرين بوضع علاقة بينهما ، فانك تزيد من الانفصال فقط . انك الآن تتصور ثلاثة أشياء بدلا من أن تتصور شيئين اثنين ، ولديك فجوتان بدلا من فجوة واحدة يمكن أن تعبرها ... ان الاستمرار مستحيل فى العالم التصورى .

المثال التاسع : ان العلاقة القائمة بين الموضوع والمحمول فى أحكامنا ، وهى العمود الفقري للفكر التصورى ، متناقضة فى ذاتها وغير مفهومة . فالمحمولات هى أفكار كلية جاهزة ، نصف بها الأفكار المدركة أو أفكارا أخرى . فنحن نقول عن السكر مثلا بأنه حلو . ولكن اذا كان السكر حلوا من قبل ، فانك لم تخطئ أية خطوة فى المعرفة ؛ بينما اذا لم يكن السكر

كذلك من قبل ، فانك تدمجه في تصور ، لا يمكن أن يندمج في كليته
السكر الخاص . وعلى ذلك فلا السكر كما وصف ، ولا وصفك له ،
بموضوع . (٤٦)

مؤلف انقلاسة من المصائب الجدلية

نجد انتمناق الغامضة المستعصية على التصور ، وكثيرا مثلها نتجهم عن
المحاولة انقلاسة للمودة بالتعدد الذي يجعل تصورها الأشياء عليه الى
الاستمرار الذي خرج منه . فالتصور « كثير » ليس هو التصور « واحد » .
وعلى ذلك فالكثرة في الواحد التي يزودنا بها ادراكنا الحسى مستحيلة
التفسير تفسيراً عقلياً . ويجد شباب القراء مثل هذه المصاعب غريبة حتى
تؤخذ أخذاً جاداً . ولكن منذ أيام السفسطائيين اليونان ظلت هذه الألغاز
الجدلية قائمة تحت سطح تفكيرنا مثل الرواسب والجنادل في نهر الميسيسي .
وكما كان حظ المفكرين من الوعي والفهم أعظم كان اغفالهم لها أقل .
ولكن معظم الفلاسفة ذكروا هذا اللغز أو ذاك فقط ، وجهلوا الألغاز

(٤٧) اقتصرت فحسب على أن أسوق من الألغاز التصويرية ما غدا كلاسيكياً
في انقلاسة ، ولكن التصورات الجارية في علم الطبيعة قد نمت أيضاً مناقضات
مماثلة (وان لم تعد ذات شهرة كلاسيكية في الفلسفة) بدأت تشكك علماء
الطبيعة فيما اذا كانت بعض الافكار تنمى حقيقة غير مشروطة . وكثير من علماء
الطبيعة يظنون الآن أن تصورات «مادة» «كتلة» «ذرة» «أثير» « قصور ذاتي »
«قوة» ، ليست صوراً لحقائق محجوبة في الطبيعة ، بل هي بنسابة أدوات
عقلية .

والمادة غزيرة في هذا الموضوع . انظر :

J.B. Stallo : Concepts and Theories of Modern Physics . (1882) (pp. 136-140).

Match, Ostwald, Pearson ; Duhem, LeRcy. Wilbois, H.

Poincaré

كل هؤلاء نقاد آخرون من هذا القبيل .

الأخرى . وقد كان الشكاك البيرونيون أولا ، ثم « هيجل » (٤٨) وبعد ذلك « برادلي » و « برجسون » في أيامنا هم الكتاب الوحيدين الذين واجهوا هذه الألغاز جملة ، وقدموا حلا ينطبق عليها جميعا .

الشكاك وهيجل

لقد تخلّى الشكاك عن فكرة حقيقة بأسرها ، ونصحوا تلاميذهم بالألا يحفلوا بها (٤٩) و « هيجل » يكتب بطريقة تبلغ من الفطاعة حدا لا أستطيع معه فهمه ، ولذلك لن أذكر شيئا عنه هنا (٥٠) أما « برادلي » و « برجسون » فيكتبان بوضوح جميل ، وحججهما تكمل كل ما قلته .

رأى «برادلي» فى الإدراك الحسى والتصور

« فبرادلي » يوافق على أن فى الاحساس تماما أصليا ، يتولى التصور تحليله الى كثرة ، ولكنه لا يتحد مرة ثانية . وهو يقول اننا بمجرد احساسنا ، فى كل مرة ، بهذا الشيء أو ذاك ، نقابل الواقع . ولكننا نقابل

(٤٨) قد أغفلت هربارت Herbart وربما اكون مخطئا .

(٤٩) انظر أى كتاب من كتب تاريخ الفلسفة . طالع ما يقوله عن بيرون

«Pyrrhon»

(٥٠) يربط «هيجل» الإدراك الحسى المباشر بحقيقة مثالية بواسطة سلم من التصورات . وأنا ، على الأقل ، أفترض كونها تصورات . ويلوح أن أفضل رأى بين آراء شراح «هيجل» هو أن الحقيقة المثالية لاتلغى الإدراك الحسى المباشر ، بل تحتفظ به كلحظة لاغنى عنها .

قارن فى ذلك :

H.W. Dresser : The Philosophy of the Spirit (1908)

بحث اضافى عن «عنصر اللا معقولة فى جدل «هيجل»»

On the Element of Irrationality in Hegel's Dialectic..

وبعبارة أخرى ، ان «هيجل» لايدفع السلم بعيدا بعد أن يصعد للقمة ، ويمكن من ثم أن يعد فيلسوفا لاعقليا ، بالرغم من نغمته العقلية الياثسة .

قطعة منه فقط ، نراها كما هي من خلال ثقب فحسب^(٥١) . وطريقتنا الوحيدة الممكنة عمليا هي أن تتسع برقعة هذه القطعة ونكملها باستخدام عقلنا بما فيه من أفكار كلية . ولكن لم يعد ممكنا مع الأفكار أن يكون هنالك ذلك النفاذ المتناغم بين الكثرة والواحد ، وهو ما يزودنا به الاحساس في الأصل . ومع ذلك فالتصورات تتسع بهذا الشيء الذى نعرفه ، ولكنها تفقد هذا السر الباطنى لتمامه . وحين نستعير بالحقيقة الفكرية عن الحقيقة الواقعية تخفى طبيعة الواقع ذاتها .

والخطأ هنا يرجع بكلية الى الشكل التصورى الذى تتأمل الأشياء فى اطاره . وقد يتوقع المرء بالطبع أن من يقر بأن التصور أدنى من الادراك الحسى ، كما أوضح ذلك « برادلى » سيحاول أن ينقذ هذين الشكلين للفلسفة بتحديد مجالاتهما ، وبإظهار كيف أن كلا منهما يكمل الآخر عندما تعمل تجربتنا . هذا هو ما أقدم عليه « برجسون » . ولكن « برادلى » مع كونه قد خان الاتجاه العقلى الأرثوذكسى ، حين اعتمد على الاحساس من حيث كونه يكشف الوحدة الباطنة للواقع ، فقد ظل مع ذلك أرثوذكسيا بدرجة كافية ، حتى انه رفض أن يدخل الاحساس المباشر فى الفلسفة اطلاقا . فقد قال : « ان الانسان الذى يقف عند الاحساس الجزئى ، يجب أن يظل — على أسوأ الأمر أو أفضله — خارج نطاق الفلسفة » . ان مهمة الفيلسوف ، كما يرى « برادلى » ، هي أن يصف الواقع وصفا فكريا (بالتصورات) ولا ينظر أبدا الى الخلف . ومع هذا « فالأفكار » لا تنهض الا بعملية الترميم ، ولا تظهر أية وحدة مثل تلك التى يزودنا بها الادراك

(٥١) انظر «برادلى» ، مبادئ المنطق - الكتاب الأول الفصل الثانى

الحى" فماذا عسى المرء فاعلا ازاء هذه الملائسات المحيرة ! ان « برادلى » لم يشأ أن يعود الى وراء ، ولذلك اكتفى بأن يخطو الى أمام فى يأس أكبر . وقد قفز الى أمام محلقا وزعم أن ثمة حقيقة واقعية مطلقة وراء هذه النقطة التى تتلاشى فى نطاق التصور . وفى هذه الحقيقة الواقعية المطلقة يتحد على نحو لا سبيل الى وصفه ، اتساق الاحساس ، وكمال الفكرة العقلية . مثل هذا المطلق « الكل فى وحدة » يمكن أن يكون ويجب أن يكون ، وسيكون ، وهو كائن على زعمه . وعلى هذا الموضوع الميتافيزيقى غير المفهوم ، يبنى « برادلى » ميتافيزيقاه (٥٢) .

نقد «برادلى»

ان اخلاص « برادلى » فى تقده قد وضح سمات الميتافيزيقا ، ودمر خطوط الميتافيزيقا القديمة . ولكن رغم ما فى فلسفة « برادلى » من نقد ، فقد احتفظ بفكرة سابقة لم ينقدها ، وهى اعتقاده بأن الادراك الحسى لا يتحول ، وهو بهذا لا يجب ، ولا يمكن أن يدخل ، بل لن يدخل فى الحقيقة النهائية .

هذا الولاء لاتجاه واضح فى الفكر ، بصرف النظر عن النهاية التى يقودك اليها ، أمر يدعو للأسف : فالتصورات تتحلل ، وان مضينا فى طريقها ، والادراكات تصح ، وان كان يتحتم تركها وراءنا . وحين تصل النزعة المناقضة للنزعة الحسية الى هذا الحد من الاصرار والعناد ، يحس الانسان أنها وشيكة الانهيار .

وما دام الشكل التصورى وحده هو الذى يعرض المتناقضات الجدلية

(٥٢) عبر «برادلى» عن نفسه مليا فى مقال فى المجلد الثامن عشر من مجلة Mind . انظر أيضا كتابه : المظهر والحقيقة . وبخاصة ملحق الطبعة الثانية .

على الواقع الحسى الساذج ، فالعلاج يبدو ميسورا : استخدم التصورات حين تعينك ، ودعها جانبا حين تحول دون الفهم ، وخذ الحقيقة الواقعية بجسها وتكاملها وأدخلها فى الفلسفة فى هيئتها الادراكية الحسية تماما كما جاءت عليها . فالتيار الاصلى للاحساس يتخبط فقط لنقص كمي . فهناك دائما قدر كبير منه ، ولكن ليس هنالك أبدا قدر كاف ، ونحن نبتغى سائره . والطريقة الوحيدة للحصول على الباقي دون أن نخوض فى المستقبل فيما يخوض فيه عدد لا يحصى من المدركين ، هى أن نستعيز عنه بأنظمتنا التصورية المتنوعة . وهى وان كانت مسيخة فكل منها يقوم مع ذلك مقام جانب جزئى من الحقيقة الواقعية الحسية كلها ، وهى التى لا يمكن أبدا أن نستحوذ عليها .

هذه هى فى جوهرها نظرة « برجسون » للأمر ، وأعتقد أننا ينبغى أن نقنع بها (٥٣) .

ملخص

سألخص الآن تلخيصا شاملا نتيجة ما سبق : اذا كان هدف الفلسفة هو أن تملك الحقيقة الواقعية امتلاكا كاملا بالذهن ، لما كان شئ من التجربة الحسية المباشرة بأسرها موضوعا للفلسفة ذلك لأن فى مثل هذه التجربة فقط ، نجد أن الحقيقة الواقعية كانت مشخصة . ولكن الفيلسوف مع كونه غير قادر ، من حيث هو موجود ، فان عليه أن يحيط

(٥٣) أوسع عرض جامع لنظرية «برجسون» نجده فى مقاله عن « المدخل الى الميتافيزيقا » فى مجلة «الميتافيزيقا والأخلاق» (١٩٠٣) ص ١٠ و ثمة مقارنة موجزة بينه وبين «برادلى» فى مقال لكاتب هذه السطور فى مجلة الفلسفة ج ٢ ، عدد ٢

بأنثر من بعض لحظات عابرة من هذه التجربة ، فهو قادر مع ذلك على أن يبسط تجربته الى ما بعد هذه اللحظات بفعل الأفكار التي تبرز الى اللحظات الأخرى (٥٤) فهو بهذا يتحكم تحكما بالتجربة في ادراكات لا تحصى خارج النطاق . ولكن التصورات التي يستخدمها في ذلك ، من حيث كونها مستخلصات شاذة من الأدراية هي دائما مشاتل غير كافية ، ومع أنها تحمل معرفة أوسع لا يجب أبدا أن يراذل على أنها تحمل كيفية أسمى للحقيقة كما هو شائع في النظرة العقلية .

ان القسيمات العميقة للحقيقة الواقعية توجد فقط في التجربة الحسية . فهنا فحسب نتعرف بأنفسنا على استمرار شيء بعد شيء آخر أو اندماجه فيه . هنا فقط نتعرف بأنفسنا على الأنا ، على الجوهر ، على الكيفيات ، على النشاط في ضروبه المتعددة ، على الزمن ، على العلة ، والتغير ، على الابتكار ، على النزوع ، على الحرية . ولو اتبعنا منهج الترجمة التصويرية بدقة لما أمكننا الا أن ندفع في وجه قسيمات الحقيقة الواقعية اعتراضه ، ونصمها بأنها غير حقيقية وغامضة .

(٥٤) قد يلوح أنه يستطيع بطرائق صوفية أن يبسط رؤيته لمجال حسي منظور أوسع مما ينتجه عقل علمي . وبحسب فهمي لبرجسون أرى أنه يجذب فكرة كهذه .
انظر :

W. James : A Suggestion about Mysticism

مقال «لوليم جيمس» «رأى في التصوف» في مجلة الفلسفة Journal of Philosophy ولقد أهمل الفلاسفة ورجال الفكر معا موضوع المعرفة الصوفية ، وقد ظل هذا الموضوع مفهوما فهما ناقصا جدا .

الفصل السادس

المدرک المحسّی والنّصّور - لواحق :

وأول نتيجة تلحق بالنتائج التي توصلنا إليها في الفصل السابق ، هي تأييد النزعة المعروفة في الفلسفة بالنزعة التجريبية . فالتجريبية تنتقل من الأجزاء الى الكل ، وتعامل الأجزاء على أنها أساسية في نظام الوجود وفي نظام المعرفة معا (٥٥) .

امكان الابتكار

والأجزاء في التجربة الانسانية هي المدركات الحسية تتحول الى كليات باضافتنا التصورية . والمدركات فردية تتغير دون اقطاع ولا تعود أبدا الى ما كانت عليه تماما . ويحمل هذا الى تجربتنا عنصرا من الابتكار الملموس . ولا يجد هذا الابتكار ما يمثله في المنهج التصوري ، ذلك لأن التصورات تستخلص من التجارب التي شوهدت أو مثلت من قبل . ومن يستخدمها للتكهن بتجارب جديدة ، لا يمكن أبدا أن يفعل هذا الا في حدود قديمة وجاهزة . وأيا ما كان الابتكار الذي قد يحمله المستقبل (ان خصوصية كل دقيقة وفرديتها تجعلها جديدة) فانه يتقلت من التصور . الحق ان التصورات هي استعدادات تالية للموت Pos-mortem كافية فقط

(٥٥) ينطبق هذا هنا بالطبع على أوسع نطاق تتأمل فيه الفلسفة العالم من حيث هو ، وأجزاءه ، ذلك لأن ثمة مجموعات أصغر (كائنات حيوانية واجتماعية مثلا) ينصهر فيها وجود الأجزاء وفهمنا لهذه الأجزاء .

للفهم المحيط . وحين نستخدمها لتحريف العالم تعريفا مستقبلا ، فاننا نتبين أننا يمكن فحسب أن تزودنا بإطار غار مجرد أو تخطيط تقريبي ، يلزم شغله بالادراك الحسى .

ان الفلسفة العقلية تسعى دائما الى نظرة محيطية بجميع الأشياء ، الى نظام مغلق على الأجناس ، يتحكم سلفا في فكرة امكان ابتكار جوهرى . أما المذهب التجريبي فيرى أن الحقيقة الواقعية لا يمكن أن تكون محددة على هذا الوضع في سياق تصورى . فهى تفيض وتجاوز الحد ، وتتحول وقد تقلب الى ابتكارات ، ويمكن أن تعرف معرفة سليمة فقط بتتبع خصائصها المميزة من لحظة الى لحظة بنمو تجربتنا . وعلى ذلك فالفلسفة التجريبية تنبذ ادعاء نظرة شاملة . وهى تقتصد فى أخذ التجربة الشخصية الضيقة بالتصورات ، اذ تراها مفيدة ولكن لا تجعل لها السيادة . بيد أنها تظل رابضة فى صميم تيار الحياة ، متوقعة ، راصدة للوقائع . ولكنها لا تصوغ القوانين ، ولا تزعم أبدا أن علاقة الانسان كـهـيـلـسـوف بجملة الأشياء تختلف اختلافا جوهريا عن علاقته بأجزاء الأشياء كعامل يومى من عوامل التيار العملى للأحداث . ان الفلسفة مثل الحياة يجب أن تظل أبوابها ونوافذها مفتوحة .

وسنعمد فى الفصول القادمة — حتى آخر هذا الكتاب — على هذه النظرة التجريبية . وسنتشبه بالقول بأنه لما كانت الحقيقة الواقعية تخلق يوما بعد يوم ، فان التصورات مع كونها خريطة رائنة تظهرنا على ارتباطاتنا لا يسعها أبدا أن تحل محل الادراك الحسى . والأنظمة الخالدة التى تشكلها يمكن على الأقل اعتبارها ، مناطق للوجود ، لنعرف أى نوع من المعرفة يرمى بعرفة الجزئيات كلها فى الظل . ان زعم العقليين هذا يتخطى الحد .

وبذلك تبرهن الفلسفة ثانية على مطابقتها الجوهرية للعلم ، وهذا ما ناقشناه في الفصل الأول (٥٦) .

الأنظمة التصورية مناطق متميزة من الحقيقة الواقعية :

هذه الفقرة الأخيرة لا تعنى أن التصورات والعلاقات القائمة بينها ليس لها حقيقة واقعية في طريقها « الخالد » . وهذا هو شأن المدركات الحسية في طريقها « المؤقت » . فما هو الحقيقي اذن ؟ ان أفضل تعريف أعرفه هو ما تزودنا به القاعدة البرجماتية : « كل شيء حقيقى حين نجد أنفسنا ملزمين بأخذه في اعتبارنا على نحو ما » (٥٧) . وعلى ذلك فالتصورات حقيقية مثلها مثل المدركات الحسية ؛ ذلك لأننا لا نستطيع أن نعيش لحظة دون أن ندخلها في اعتبارنا . ولكن النوع الخالد للوجود الذى تحظى به أدنى من ذلك النوع المؤقت . ذلك لأنه ثابت وتخطيطى ويفتقر الى عدد كبير من الخصائص التى تمتلكها الحقيقة الواقعية المؤقتة . فيجب على الفلسفة اذن أن تقر بكثير من مناطق الحقيقة الواقعية يتداخل بعضها في البعض الآخر . والأنظمة التصورية في الرياضيات ، والمنطق ، وعلم الجمال ، والأخلاق ، هى من قبيل هذه المناطق ، كل منها مربوط بشكل خاص من

(٥٦) تمة طريقة واحدة لعرض المفهوم التجريبي هى القول بأن اللامنطقى يدخل الفلسفة على قدم المساواة مع المنطقى . وبلفرت باكس Belfort Bax فى كتابه : جذور الحقيقة (١٩٠٧) ، يصيغ تجريبيته بهذه الطريقة (أنظر الفصل الثالث خاصة)

قارن أيضا د. فوست E. D. Faucett : الفرد والحقيقة . (وخاصة الباب الثانى - الفصلان ٤ ، ٥)

(٥٧) الأستاذ «تايلر A. E. Taylo » يعطى هذا التعريف البرجماتى فى ص ٥١ من كتابه عناصر الميتافيزيقا (١٩٠٣) . وعن طبيعة الحقيقة المنطقية ارجع الى «رسل» : مبادئ الرياضيات .

أشكال العلاقة . وكل منها يختلف عن الحقيقة الإدراكية الحسية ، بأنه لا يمثل في أحد منها تاريخ أو أحداث . ان الحقيقة الإدراكية الحسية تنطوى على كل هذه الأنظمة الفكرية ، وكثير غيرها زيادة عليها .

التمائل الذاتي للموضوعات الفكرية.

ذكرنا من قبل أن التصور يعنى دائما نفس الشيء : فالتغير يعنى دائما التغير ، والأبيض الأبيض والدائرة الدائرة . والطابع الثابت الخالد لأنظمتنا الفكرية يبنى على أن الموضوعات التصورية هى هى عينها . فالعلاقة التى يحدث أن ندرکہا يجب أن نحصل عليها دائما بين حدين لا يتغيران . ولكن كثيرا من الأشخاص يجدون صعوبة فى التسليم بأن تصورا يستخدم فى سياقات مختلفة يمكن أن يكون « هو هو » فى حد ذاته . فنحن حين نصف الجليد والورق معا بصفة « البياض » يفترض هؤلاء المفكرون أنه لا بد أن يكون هنالك محمولان فى هذا المجال . فكما يقول « جيمس ميل » (٥٨) . « كل لون هو لون فردى ، وكل حجم هو حجم فردى ، وكل شكل هو شكل فردى . ولكن الأشياء ليس لها لون فردى مشترك ولا شكل فردى مشترك ، ولا حجم فردى مشترك ، معنى هذا أنها ليس لها شكل ولا لون ولا حجم مشترك . فما الذى يكون مشتركا بينها ليستطيع الذهن أن يلاحظه ؟ أولئك الذين يؤيدون أن هناك ثمة شيئا لا يستطيعون بآية وسيلة ذكر هذا الشيء ، فانهم يستبدلون الكلمات بالأشياء . ويستخدمون عبارات فضفاضة غامضة ، لا تعنى حين فحصها شيئا .

(٥٨) انظر الفصل الأول ص ٢٤٩ من كتاب :

تحليل الذهن البشرى (١٨٦٩)

فالحقيقة تبعا لهذا المفكر الاسمى هى أن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يكون مملوكا بالاشتراك بين موضوعين هو نفس الاسم . فالسواد فى الرداء والسواد فى الحذاء ، هما واحد ، بقدر ما نطلق صفة السواد على كل من الرداء والحذاء . وهنا تتغاضى تماما عن القول بمقتضى هذه النظرة أن الاسم لا يمكن ألبتة أن يكون هو نفس الشيء مرتين . فما الذى يعنيه تصور « نفس الشيء » ؟ اذا طبقنا ، كالمعتاد ، القاعدة البرجماتية ، لوجدنا أننا حين ندعو موضوعين بأتهما نفس الشيء فأننا نعنى اما : (أ) أن ليس ثمة اختلاف نجده بينهما حين تقارنهما . أو (ب) أننا نستطيع أن نستبدل أحدهما بالآخر فى بعض العمليات دون أن تتغير النتيجة . فاذا كان علينا أن نناقش « التماثل » مناقشة مشرة ، فأننا يجب أن نحمل هذه المعانى البرجماتية فى أذهاننا .

فهل الجليد والورق لا يبديان أى اختلاف فى اللون ؟ وهل نستطيع أن نستخدمهما على نحو واحد فى عملياتنا ؟ قد يحل الواحد منهما بالتأكيد محل الآخر فى عكس الضوء ، وقد يستخدمان دون ما فارق كقاعدة لظهار أى شىء قائم اللون ، وقد يستخدمان كنماذج طيبة لما تعنيه كلمة « بياض » . ولكن الجليد قد يكون قذرا ، والورق قد يكون قرنفليا أو أقرب الى الاصفرار ، دون أن ينقطع وصفهما بالبياض . أو أن الجليد والورق معا فى ضوء واحد قد يختلفان عن ذاتيهما فى ضوء آخر ، ومع ذلك نطلق عليهما صفة « البياض » . ويلوح على ذلك أن معيار الاختلاف ، قد لا يخلو من نقص . وهذه الصعوبة المادية (التى يعرفها جميع المشتغلين بالتلوين) فى التوفيق بين صبغتين بحيث تكون احدهما كالأخرى تماما ولا يكون ثمة اختلاف بينهما تماثل الواقعة التى يدركها الاسميون حين يقولون ان

معانينا الفكرية ليست أبدا مرتين سواء . فهل نسلم مع ذلك بأن تصورا كالأبيض لا يمكن ألبتة أن يحتفظ بدقة بنفس المعنى ؟

قد يكون من السخف أن نقول ذلك ، لأننا نعلم أنه تحت كل التحولات التي تحدث نتيجة لتغيير الضوء ، وللقدر ، ولعدم صفاء الصبغة ... الخ هنالك عنصر من صفة اللون يختلف عن صفات اللون الأخرى الذى تقصد أن تدل عليه كلمتنا دلالة ثابتة . ان استحالة عزل هذه الصفة وثبيتها ماديا أمر غير مقبول . ففى استطاعتنا أن نزلها وثبتها عقليا ، ونقرر أننا كلما قلنا « أبيض » فإن هذه الصفة ذاتها سواء آكان تطبيقها صحيحا أو باطلا هى بالضبط ما نعنيه . ان معانينا يمكن أن تكون هى ذاتها بقدر ما تقصد بها أن تكون كذلك ، بصرف النظر عما اذا كان ما نعنيه ممكنا ماديا أو غير ممكن . ان نصف الأفكار التى نستخدمها هى عن أشياء مستجيبة أو مبهمة — الأصفار ، اللامتناهيات ، الأبعاد الأربع ، حدود كمال مثالى ، القوى ، علاقات مفصولة عن أطرافها ، أو حدود معرفة تعريفا تصوريا فقط بعلاقاتها بحدود أخرى قد تكون هى بالمثل وهمية . « فالأبيض » يعنى صفة لون يحدد الذهن مستواه ، ويمكن للذهن أن يحكم بأنه موجود هنالك تحت كل القناعات المادية . هذا الأبيض هو دائما نفس الأبيض .

فما جدوى الالاحاح فى القول بأننا مع كوننا نحدده بأنه هو ذاته ، لا يمكن أن يكون هو ذاته مرتين ؟ فهو يقوم أمامنا بقوامه على افتراض أنه هو بذاته ، وعلى ذلك فالنظرية الاسمية باطلة فيما يختص بالأشياء من ذلك النوع التصورى ، وصادقة فقط عن الأشياء فى تيار الادراك الحسى .

ان ما أؤيده هنا هو النظرية الأفلاطونية ، وهى أن التصورات أفراد ، وأن مادة التصور لا تتحول ، وأن الحقائق المادية تتألف من مواد تصور متنوعة تشارك فيها . ويعرف هذا « بالواقعية المنطقية » فى تاريخ الفلسفة .

وقد كان تحييد الأذهان العقلية لها أكثر من تحييد الأذهان التجريبية ؛ ذلك لأن مادة التصور في نظر المذهب العقلى سابقة وأولية بينما الأشياء المدركة ثانوية في طبيعتها . وهذا الكتاب الذى ينظر الى الادراكات المحسوسة على أنها أولية ، والتصورات على أنها مصدر ثانوى ، يمكن أن يعتبر شاذًا على نحو ما في محاولته الجمع بين الواقعية المنطقية مع ضرب تجريبى من الفكر (٥٩) .

التصورات والمدرجات الحسية متحدة

وأعنى بهذا أنها جميعا مصنوعة من نوع المادة نفسها ، منبث بعضها في البعض الآخر حين تتناولها جميعا معا . وكيف يمكن أن تكون على غير ذلك حين تكون التصورات أشبه بالأبخرة الصاعدة من قلب الادراك الحسى الذى تتكشف عنده مرة ثانية حين تستدعى للخدمة العملية ؟ ليس هنالك من يستطيع أن ينبئنا عن الأشياء التى يتناولها الآن في يده ويطالعها ، كم ينفذ خلال عينيه وكم ينفذ من بين أصابعه ؟ وكم من عقله المدرك يتحد مع هذا ويجعل منها جميعا هذا « الكتاب » المعين ؟ ان الأجزاء الكلية والجزئية في التجربة مندمج بعضها في البعض الآخر اندماجا تاما ، وهى

(٥٩) لمزيد من الملاحظات المؤيدة لتمانل الموضوعات التصورية - انظر

ص ٣٣١ - ٣٣٥ من :

W. James in Mind vol. iv, (1879)

ص ١٥١ - ١٥٤ من :

T.H. Bradley : Ethical Studies (1871)

ص ٢٦٠ - ٢٨٢ من .

Principles of Logic

ووجهة النظر الاسمية عرفها «جيمس مل» على نحو ما ألعنا ، وعرضها « جون ستيوارت مل » فى كتابه عن المنطق . (ط . ثامنة . ص ٧٧) .

جميعا لا غنى عنها . فالتصور ليس من قبيل خطاف ملون لا يمكن أن تعلق عليه سلسلة واقعية ، ذلك لأننا نعلق تصورات على مدركات حسية ومدركات حسية على تصورات باتصال واستمرار ؛ والعلاقة بين الاثنين أقرب ما تكون الى ما نجده في المناظر الأسطوانية حيث البطانة الملونة تواصل صدر الصورة الحقيقية بغاية من الدهاء ، بحيث يفوت المرء اكتشاف الفاصل بينهما .

ان هذا العالم الذى نعيش فيه بالعقل لعالم من المستحيل فيه — اللهم الا بالعودة بالنظر الى الماضى — أن نميز مساهمة العقل من مساهمة الحس . وهما في اطار وفلك واحد ، مثلهما في ذلك مثل طلاقة بين الجبال يتجاوب صداها في ثنايا الصخب ، ومع ذلك فان الانعكاسات العقلية لتجسم التجربة الادراكية الحسية التى تحيط بها ، ثم تربطها مع أجزاء أبعد في الوجود . وتعمل أفكار هذه الأجزاء بدورها كأجهزة تحليل الصوت التى تلتقط أنغاما جزئية في أصوات مركبة ؛ وتساعدنا على تحليل ادراكنا الى أجزاء ، وعلى تجريد عناصرها وعزلها .

وعلى ذلك فالوظيفتان العقليتان تتبادلان العمل . فالادراك الحسى يعجل بفكرنا ، والفكر بدوره يثير ادراكنا الحسى . فكلما زادت رؤيتنا زاد تفكيرنا ، بينما كلما زاد تفكيرنا زدنا رؤية في تجربتنا المباشرة ، وزاد نمو التفاصيل ، وزادت دلالة حلقات ادراكنا (٦٠) . وسنرى فيما بعد حين

(٦٠) انظر :

F.C.S. Schiller : "Thought and Immediacy" in Journal of Philosophy etc. iii, 234

ويمضى التفسير الى العمق حدا يجعلنا نستطيع أن نفعل كما لو لم تكن تجربتنا مؤلفة من شيء اللهم الا أنواع مختلفة من مادة التصور التى نحللها اليها . ومنل خامة التصور هذه قد ينظر اليها فى كثير من الأحيان لأغراض =

تناول النشاط العلى ، كيف أن هذه السعة فى امتداد معرفتنا من ثنائيا صياغة الادراكات الحسية فى أفكار هى سعة هامة من الوجبة العملية . فمن مركب المدركات الحسية والأفكار ، ومن نطاقهما تتحدد المعلولات ؛ وقد تعدو حينئذ معلولات مختلفة عن تلك التى قد تنشأ عن المركز الإدراكى الحسى ذاته . بيد أن هذه النقطة صعبة ، وفى هذه المرحلة من حجتنا تكفى هذه الإشارة الموجزة .

اعتراض ورد عليه

والقراء الذين وافقوا معنا على أن أنظمتنا التصورية ثانوية ، وهى فى جملتها أشكال من الوجود غير كاملة وضرورية ، سيشعرون الآن أن فى وسعهم أن يعودوا الى تيار الإدراك فى تجربتهم الجارية فيختصونه باحساس قلبى . فمهما يكن من قلة ما وجود به فى فترة معطاة ، فهو شىء حقيقى اطلاقا . والفكر العقلى باهتمامه المطلق باللامتغير والعالم ، قد أبخس دائما نبضات حياتنا الجارية وأنكر عليها الوجود . وليست الخدمة التى أسدتها التجريبية من جانبها بخدمة ضئيلة ، اذ قضت على اعتراض المذهب العقلى، ويررت تبريرا مفهوما احساسنا الغريزى بتجربتنا المباشرة . يقول « امرسون » : - « عالم آخر ! ليس هنالك عالم آخر غير هذا الذى قنبنى عليه سيرتنا » .

والاعتقاد فى صدق كل لحظة جزئية نشعر فيها بوطأة هذه الحياة الدنيا ، حين نعمل هنا أو حين يتم العمل بفضل جهودنا ، هو فردوس يسعى أصحاب

= العمل والمناقشة ، كما لو كانت معادلة تماما للحقيقة الواقعية . ولكننا لسنا فى حاجة الى أن نعيد ماسبق أن ذكرناه من ان ليس ثمة قدر منها يمكنه البتة أن يكون معادلا تماما ، وأنه يظل - من وجهة التكوين - صياغة ثانوية .

المذهب العقلي ، دون جدوى ، الى اخراجنا منه ، الآن بعد أن نقدنا طريقتهم في التفكير .

ولكنهم ما برحوا يقومون بمحاولة واحدة أخيرة ، ويتهموننا بالحق والسفه . فهم يصرون على القول : « بقدر ما يبنى اعتقادكم في اللحظات الجزئية على حجة عقلية (وليس مجرد نبذ للشك ، كما هو شأن الأبقار والحياد) ، فهو مؤسس على التجريد والتصور . فباستخدام التصورات فحسب أقمتم مدركاتكم عن الواقع — وعلى ذلك فالتصورات هي الأشياء الحية ، والمبركات الحسية معتمدة عليها في صفة الواقعية التي يزودها بها استدلالكم . فأنتم هنا تقعون في التناقض مع أنفسكم : فالتصورات تلوح كأنما هي أدوات الحقيقة الظاهرة ، لا بد لكم أن تستخدموا سلطتها الخاصة ، حتى حين تسعون الى تزويد الإدراك بسلطة أعلى منها » .

والاعتراض مموّه ، وهو يتلشى في اللحظة التي تذكر فيها أن التصور لا يعدو كونه في نهاية الأمر « دالا » ، والتصور « الحقيقة الواقعية » الذي نحفظ به للإدراك المباشر ، ليس خلقاً تصورياً جديداً ، ولكنه فحسب نوع من العلاقة العملية الخاصة بإرادتنا نجربها تجربة حسية ^(٦١) ، ولا يلبث الاستدلال أن يتدخل فيها ، ولكنها لا تعود — حين يشل عمل هذا الاستدلال استدلال آخر — الى مكانها الأصلي كأن شيئاً لم يحدث . أما أن التصورات يمكن أن تشل تصورات أخرى . فتلكم إحدى وظائفها العملية العظيمة .

وفي هذا كذلك ردٌّ على التهمة القائلة بأن من التناقض الذاتي استخدام

(٦١) قارن :

W. James : Principles of Psychology ch xvi "The Perception of Reality".

التصورات لتدمير سطوة التصور عامة . ان أفضل طريقة لظهار أن السكين لا يقطع ، هي أن نحاول القطع به . فالمذهب العقلي ذاته هو الذي مر* ، لا محالة ، التصور . وذلك أن التصور ، حين يعمل بعد نقطة معينة — لا يعدو أن يراكم فحسب متناقضات جدلية (٦٢) .

(٦٢) قارن أيضا بـصدد هذا الاعتراض : هامش ص ٣٣٩ — ٣٤٣ من كتاب : عالم متعدد « لوليم جيمس » •

الفصل السابع

الواحد والكثرة

ونحن نعتقد الآن أن الطبيعة كلها — متميزة من الحقيقة الواقعية بأسرها — معطاة في تيار الإدراك الحسى ، بيد أن التيار وإن كان مستمرا من تال الى تال ، فإن أجزائه غير المتجاورة تفصلها أجزاء تتداخل بينها . ومثل هذا الانفصال يبدو ، في حالات متنوعة ، عاملا على التفرقة الايجابية. فالجزء الأخير قد لا يحتوى على أى جزء متخلف من الجزء السابق ، وقد لا يشبهه ، وقد ينساه ، وقد ينزل عنه بحدود مادية أو سدّ منيع .

التعددية ضد الواحدية

وعلى ذلك فنحن حين نستخدم عقلنا لكى نقسم هذا التيار ، ونجعل كل عضو من أعضائه فردا قائما بذاته ، فإن علينا (بصفة مؤقتة ، وبطريقة عملية على أية حال) أن تتناول عددا ضخما من هذه الأعضاء ، كما لو لم يكن بين كل منها والآخر علاقة أو بينها علاقة نائية . فنحن نمسك بها فردا فردا أو موزعة ، وننظر الى التيار كما لو كان جملة أو حصيلتها . ويشجع هذا التصور التجريبي ، وهو أن الأجزاء متميزة وأن الكل حاصلها .

وتعارض النزعة العقلية هذه النظرية ، متحدية بأن الكل هو الجوهرى وأن الأجزاء تشتق منه ، وأن كلاً منها ينتمى الى الآخر ، وأن الانفصالات التى تتقبلها دون أن ننقلها هي انفصالات وهمية ، وأن العالم بأسره بدلا من أن يكون جملة ، هو وحده الوحدة الخالصة فى الوجود التى تؤلف

(بعبارة دالمبر التى يستشهد بها فى أحيان كثيرة) .. « واقعة واحدة ،
وحقيقة عظيمة » .

ويعرف التناوب هنا على أنه تناوب بين التعددية والواحدية . وهو
أعنف مآزق الفلسفة كلها بالرغم من أنه لم يتضح بتميز الا فى أيامنا هذه
هل توجد الحقيقة الواقعية وجودا موزعا ؟ أو جملة ؟ فى شكل « كل شيء
من الأشياء » أو « كل واحد منها » أو « أى واحد منها » أو « هذا
أو ذاك » أو فحسب فى شكل كل أو شامل ؟ ان المضمون الذاتى يتواءم
مع كل شكل من هذه الأشكال محتويا على الكلمة اللاتينية Cunctis
أو الألمانية Alle أو Sammtliche ويعتبر بذلك عادة
عن المتناوبات .

فالتعددية تناصر التوزع ، والواحدية تؤيد الشكل الجمعى للوجود .
والمرجو من القارئ أن يلاحظ أن التعددية لا تحتاج الى أن نفترض من
البداية كونها مناصرة لشكل معين من الانفصال بين كثرة من الأشياء
يدعيها . ان للتعددية فحسب مغزى سلبيا يتمثل فى مناقضتها لقضية
الواحدية القائلة بأن ليس ثمة انفصال على الاطلاق . فخرج شيء
— لا محالة — من شيء آخر ، وان يكن الى ما لا نهاية ، فى مناسبة ما ،
يكفى — اذا ثبت — أن يطوّح بالنظرية الواحدية .

وأملى ألا يضيق القارئ ذرعا بما يكتنف المصطلحات التى أستخدمها
من غموض بالغ . فالقول بأن ليس ثمة انفصال يبدو فى ظاهره مجرد سخف ،
لأننا نجد انفصالات عملية لا حصر لها . فان جيبى منفصل عن حساب
« مستر مورجان » الجارى فى المصرف ، وذهن الملك ادوارد السابع منفصل
عن هذا الكتاب . ولا بد أن الواحدية تعنى أن كل الانفصالات الظاهرية

من هذا القبيل يصل بينها ثمة اتحاد مطلق أعمق تعتقد فيه ، ولا بد أن يكون ذلك الاتحاد — على نحو ما — أشد واقعية من الانفصالات العملية التى تظهر على السطح .

وقد ظلت الواحدية — من وجهة نظر الواقع التاريخي — محصورة بوجه عام فى نطاق من الغموض والصوفية بخصوص المبدأ النهائى للوحدة .

أنواع الوجدانية

لأن يكون واحداً أروع من أن يكون كثرة ؛ وعلى ذلك يجب أن يكون مبدأ الأشياء واحداً . ولكن ليس ثمة تفسير دقيق عن هذا الواحد . فأفلوطين يدعو ببساطة الواحد : « فالواحد هو كل الأشياء وهو مع ذلك ليس شيئاً من الأشياء » ... اذ لنفس السبب لكون لا واحد منها فى الواحد ، هى جميعها مشتقة منه . زد على ذلك أنها لكى تكون موجودات حقيقية ، فالواحد ليس وجوداً ، بل هو أبو الوجودات . وتولد الوجود هو أول فعل للتولد . ولما كان الواحد كاملاً بالعقل ، لا يسعى الى امتلاك شيء ، وليس فى حاجة الى شيء ، فانه يفيض ، وما يفيض يشكل جواهر أخرى .. فكيف ينبغي لأكمل كمال وأول خير ، أن يتعلق على ذاته ، كما لو كان حاسدا عاجزاً ؟ ... من الضروري اذن أن يخرج شيء ما منه .. » (٦٣) .

الواحدية الصوفية

ويشبه هذا نظرية « براهما » أو « أتمان » الهندوكية . فكريشنا

(٦٣) قارن الفقرات فى ص ٣٦٣ — ٣٧٠ من كتاب :

C. M. Bakewell : Source-Book in Ancient philosophy

أو الكتب الأربع الأولى من الانبأة الخامسة : ترجمة : F. Bonillire

المقدس ، يتحدث عن الواحد في قصيدة « باجافات — جيتا » فيقول :
 « أنا التضحية ، أنا الشعائر القربانية ، أنا الدماء المسفوكة قربانا للأسلاف .
 أنا العقار ، أنا الرقيقة . أنا الزبدة القربانية أيضا . أنا النار . أنا العطر
 والطيب . أنا أبو العالم وأمه وساعده وجده . أنا المذهب الصوفي ، الطهارة
 الطريق ، العضد ، الميّد ، الشاهد ، السكّان ، الملاذ ، الصديق ،
 الأصل ، التحلل ، المكان ، الوعاء ، البذرة التي لا تنضب . أنا
 أدفء العالم وأصنع الأمطار وأسقطها . أنا طعام الآلهة ، وأنا الموت .
 أنا الوجود واللاوجود ... أنا سواء لجميع الكائنات . ليس لى عدو
 ولا صديق .. فاتجهوا بقلوبكم الىّ ، واعبدوني ، ضحوا من أجلى ،
 وحيثوني » (٦٤) .

وأنا أدعو هذا الضرب من الواحدية واحدية صوفية ؛ فهي لا تنكشف
 فحسب في صيغ تتحدى الفهم ، بل تعتمد (٦٥) أيضا على ذاتها اذ تلجأ الى
 حالات من الاشراق لا توهب للعاديين من الناس . وعلى ذلك فان

(٦٤) ترجمة تومسون - الفصل الرابع

(٦٥) للغزالي . الفيلسوف والمتصوف الاسلامي ، صورة أشد واحدية لعين
 الفكرة من حيث الجوهر . حيث يذكر أن ، الله هو الهادي الى صراط مستقيم ، فهو
 يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لامعارض لحكمه ، ولا راد لقضائه . خلق الجنة
 وخلق لها أناسا يستعملهم لطاعته ، وخلق النار وخلق لها أناسا يستعملهم
 للمعصية . وقال كما ورد في الأثر عن النبي (ص) : « هؤلاء للجنة ولا أبالي ،
 وهؤلاء للنار ولا أبالي » . فهو ، على ذلك ، الله ، الأعظم ، الملك ، الحقيقة . لا يسأل
 عما يفعل وهم يسألون .

D. B. Macdonald, translation, in Harford Siminary Record Jan. 1910

قارن في ذلك نصوص أخرى عن الغزالي في ص ٤١٥ - ٤٢٢ من كتاب
 «وليم جيمس» : تنوع التجربة الدينية :

W. James : The Varieties of Religious Experience

« بورفيرى » Porphyry فيما كتبه عن حياة أفلوطين أضاف — بعد أن قال : انه هو نفسه كانت له مثل هذه القراسة حين كان عمره ٦٨ سنة — أنه بينما كان يعيش مع أفلوطين تحققت للأخير أربع مرات سعادة القرب من الله ، والاتحاد به اتحادا شعوريا في فعل يجلب عن الوصف .

ان الطريقة الصوفية المألوفة للوصول الى رؤية الواحد ، هى بالتدرب على التقشف ، وهو تدرب يتماثل من حيث الجوهر فى جميع الأنظمة الدينية . ولكن هذا النوع من الوجدانية الذى يجلب عن الوصف ، ليس على الدقة فلسفيا ، لأن الفلسفة من حيث ماهيتها حديث وافصح ، ولذلك سأمر به دون تعليق .

والطريقة الفلسفية المعتادة للوصول الى وحدانية أعمق كانت فى تصور الجوهر . وقد استخدم هذه الفكرة اليونان أولا ، ونضجت بعناية عظيمة خلال العصور الوسطى .

واحدية الجوهر

وحين عرّف الجوهر بأنه كائن يوجد بذاته ، فهو ليس بحاجة الى ذات أخرى يلازمها ، فقد تميّز من البداية من جميع الأعراض

Ens ita per se exisysens uy non indigeant alio tamquam subjecyo cui inhaereat exisysendum

(التى تتطلب ذاتا تلازمها *Cugis esse est inesse*)

وقد غدا الجوهر ثمتنذ عدلا « لمبدأ الفردية » فى الأشياء ، ولماهيتها . وقسم الى أنماط متنوعة ، مثلا الى جواهر أولى وجواهر ثانية ، الى بسيطة ومركبة ، الى كاملة وناقصة ، الى نوعية وفردية ، الى مادية وروحية . والله ، طبقا لهذا الراى ، جوهر ، لأنه يوجد بذاته *Per se* ، كما يوجد

من ذاته Ase ولكنه بالنسبة للكائنات الثانوية هو الخالق وليس الجوهر، لأنها بمجرد خلقها ، توجد بذاتها لا من ذاتها . وعلى ذلك ففكرة الجوهر عند الاسكولاستيكيين هي موحد جزئي فقط ، ويشكل العالم من كليتها ، تعددا من وجهة نظر الجوهر (٦٦) .

وقد خرج « اسبنوزا » على النظرية الاسكولاستيكية . فقد بدأ كتابه عن « الأخلاق » بالبرهنة على أن ثمة جوهر واحد فقط ممكنا ، وأن ذلك الجوهر يمكن فحسب أن يكون الله الضروري اللامتناهي (٦٧) .

(٦٦) ابحث عن معنى كلمة «جهر» في كشف أى كتاب سكلولاستيكي من قبيل :

Rickeby : General Metaphysics

A. Stockl : Lebruch d. Philo.

P.M. Liberatore : Compendium Logicae et Metaphysicae

(٦٧) أوجز «سبنوزا» نظريته في القسم الأول من ملحق كتابه «الأخلاق» ، حيث يقول : «لقد شرحت الآن طبيعة الله وصفاته ، مثل كونه يوجد بالضرورة ، وكونه واحدا أحدا ، وأن ماهو عليه وما يكونه يفيض من محض ضرورة طبيعية ، وأنه العلة الحرة لجميع الأشياء أيا كانت ، وأن جميع الأشياء في الله ، تعتمد عليه ، حتى أنها لا يمكن أن تكون أو أن تتصور بدونه ، وأخيرا أن جميع الأشياء قد قدرها الله من قبل ، لاجرية ارادته ، ولا على هواه ، بل بفضل طبيعته المطلقة وقدرته اللامتناهية» - ويمضى «سبنوزا» ليدحض الفكرة السوقية عن العلل الغائية - فالله لا يسعى الى غايات ، فلو فعل ، لكان معنى هذا أن ثمة شيئا ينقصه . ان الله يعمل عن ضرورة منطقية لطبيعته كلها .

وقد وجدت بيانا واحدا طيبا آخر في كتاب على نمط كتاب اسبنوزا : « ان وجود كل موضوع مركب في الظاهر لا يرتكن الى الموضوع ذاته ، بل الى الوجود الكلي الذي هو وحدة مطلقة تشمل في ذاتها كل ما يظهر . فجميع الموجودات الجزئية هي من ثم تتغير دون انقطاع الواحد منها الى الآخر : تأتي وتذهب ، تتشكل وتنحل من خلال علة واحدة كلية لطاقة العالم ، وهي الوحدة المطلقة للوجود الكلي ، وتعتمد على قانون عام واحد هو الرباط الرياضى وهو الموجود المطلق الذى لا يتغير فى السرمدية بأسرها . ومن ثم فمن العالم ككل فى طاقة وجوده ، يتحدد العالم المادى ، وجوده هو استخلاص رياضى من عالم رياضى أو عقلى ، يشكله من قبل عقل قائم موجود بذاته . وأطلق على هذا العالم الرياضى أو العقلى ، العقل المطلق ، اله العالم . » انظر ص ١٢ - ١٣ من

Solomon : J. Silberman : The Disclosures of Universal Mysteries, N.Y. 1906.

وقد جلب هذا الضلال الدينى اللوم على « اسبنوزا » ولكنه وجد تأييدا من الفلاسفة والشعراء منذ ذلك الحين . ووحدة الحلول عند اسبنوزا صورة بلغت مبلغا من التسامى لا يدركه الذهن . وظل الأمر كذلك الى أن بدأ لوك ، وباركلى ، وهيوم ، عملهم النقدي ، فأخذ الشك يسرى بأن فكرة الجوهر لا بد أن تكون فحسب كلمة مقنعة بقناع فكرة (٦٨) .

نقد الجوهر

لقد اعتقد « لوك » في الجواهر ، ولكنه اعترف بأننا ليست لدينا فكرة واضحة من هذا القبيل اطلاقا ، بل فقط افتراض غير يقينى عن شيء لا نعرف ما هو ، نأخذه على انه أساس أو دعامة تلك الأفكار التي لا نعرفها (٦٩) وقد نقد « لوك » الجوهر الشخصى ، كما نقد مبادئ التماثل الذاتى فى أذهاننا المختلفة . وقال « لوك » ان الهوية الذاتية لا تعدو أن تتألف تجريبيا من واقعة وظيفية ادراكية ، هى أن حالات ذهننا اللاحقة تواصل حالاته السابقة وتذكرها (٧٠) .

(٦٨) لا أحد يعتقد أن كلمات من قبيل « الشتاء » « الجنس » « المنزل » تدل على جواهر . فهى تشير الى وقائع جامعة ، تجتمع أجزاؤها معا بطريقة يمكن تتبعها تجريبيا . وحتى حين لانستطيع أن نحدد ما يجمع المعلومات معا ، كما فى « السم » « الوعكة » « القوة » ، فاننا نفترض جوهرًا ، بل نرى أن الكلمة لا بد أن تدل على ظاهرة ما برح علينا أن نكتشفها . والاسميون يتناولون جميع الجواهر تبعا لهذا التمثيل ، ويعتبرون « المادة » « المذهب » « النفس » بمثابة أسماء لصفات عديدة مجموعة ، ليست رابطة الاتحاد بينها جوهرًا يطابق الاسم ، بل يجب أن تكون هذه الرابطة بالأحرى جزءا خفيا من الظاهرة بتمامها .

(٦٩) انظر : مبحث فى العقل البشرى . الكتاب الأول - الفصل الرابع -

فقرة ١٨

Essay Concerning Human Understanding, B. i, chap. iv and 18.

(٧٠) نفس المصدر السابق

book ii, chap. xxvii, p.p. 9.27.

الكتاب الثانى الفصل (٢٧) الفقرات من ٩ الى ٢٧

ويطبق « باركلي » نفس النقد على فكرة الجوهر الجسمي ، فيقول :
« عندما أتأمل الجزأين (« الوجود » عامة و « الأعراض المساندة له »)
الذين يؤلفان ، معنى الكلمتين « الجوهر المادى فأننى أقنع بأن ليس ثمة
معنى متميز تابع لهما ... هَبْ أن ثمة عقلا دون عون الأجسام الخارجية
يتأثر بنفس سياق الاحساسات التى لديك تنطبع بنفس النظام ، وبفلس
الحوية فى ذهنه . اننى لأسأل : ما اذا لم يكن لهذا العقل كل الحق فى أن
يعتقد فى وجود الجواهر الجسمية ، التى تمثلها أفكاره وتثيرها فى ذهنه
بحيث يتيسر لك أن تعتقد نفس الشيء » ^(٧١) وباختصار ، فإن بعض
الاحساسات المجموعة ، هى ما تعرف عليه تلك الجواهر الجسمية ، ومن
ثمة فإن المعنى الوحيد الذى يمكن أن تدعيه كلمة « مادة » هو أنها تدل
على مثل هذه الاحساسات وتجمعاتها .

وسيقر القارئ بأن قاعدتنا البرجماتية هى المستخدمة فى هذا النقد
فأى اختلاف فى التجربة العملية نفترض كونه مؤديا الى أن لكل منا مبدأ
شخصيا جوهريا ؟ هذا الاختلاف هو أننا نستطيع أن نتذكر ماضينا ونضع
يدنا عليه ، اذ نقول انه ماضينا . فما الاختلاف فى أن فى هذا الكتاب مبدأ
جوهريا ؟ هو أن بعض الاحساسات البصرية والعضلية تلتصق معا على
الدوام فى حزمة : وعلى ذلك فإن كل ما تعنيه كلمة جوهر هو أن بعض
التجارب الإدراكية الحسية تبدو منتمة بعضها الى البعض الآخر . ويحمل
« هيوم » النقد الى آخر درجة من الوضوح فيقول : « ليس لدينا فكرة ما
عن جوهر متميز من مجموعة من الكيفيات الجزئية ، كما ليس لدينا أى معنى
آخر حين نتحدث عنه أو نستدل بصدده . ان فكرة جوهر ... ليست شيئا

(٧١) أصول المعرفة البشرية • الباب الأول • الفقرتان ١٧ ، ٢٠

Principles of Human Knowledge

الاهم الا مجموعة من الأفكار البسيطة اتحدت بفعل الذهن وأصبح لها اسم خاص يدل عليها ، نستطيع به أن نسترجع هذه المجموعة « (٧٢) » .

وتناول « كنت » الجوهر بطريقة تتفق مع طريقة « هيوم » في انكار كل مضمون ايجابي للفكرة . ويختلف عن « هيوم » في أنه يلحق الادراكات المتغيرة بالاسم الثابت . فمقولة الجوهر توحيدها بالضرورة معا ، وتجعل بذلك الطبيعة معقولة (٧٣) . ومن المستحيل أن نوافق على هذا ؛ فان مجموعة الكيفيات تكف عن أن تكون معقولة حين ندعو الجوهر « مقولة » مما لو دعوانه مجرد كلمة عارية .

التحليل البرجماتي للوحدانية

فلندر ظهورنا للطرائق التي تجلّ عن الوصف والطرائق غير المعقولة في تفسير وحدانية العالم ، ونبحث ما اذا كانت « الوحدانية » المؤيدة ، بدلا من أن تكون مبدأ ، يمكن أن تكون اسما مثل « الجوهر » يصف واقعة أن بعض الاتصالات النوعية والقابلة للتحقق ، توجد بين أجزاء التيار التجريبي . يعود بنا هذا الى قاعدتنا التجريبية : لنفرض أن هنالك وحدانية في الأشياء ، فعلى أي نحو نعرف ؟ وأي اختلافات فيها لي أو لك ؟ فسؤالنا ينقلب رأسا على عقب ويمضي بنا الى بحث أكثر جدوى . ففى

(٧٢) رسالة في الطبيعة البشرية - الباب الأول - الفقرة (٦)

Treatise on Human Nature

(٧٣) نقد العقل النظري - التمثيل الأول للتجربة . وتجد نقدا أكثر

استفاضة لتصوير الجوهر عند :

J.S. Mill : A System of Logic

B. i, ch. iii, p.p. 6-9.

B.P. Bowne : Metaphysics. part I. chap. i.

ويستخدم « باون Bowne » كلمتي موجود وجوهر كمترادفتين .

وسعنا أن نتصور في سر الأشياء التي لا يكون لها ارتباط فيما بين بعضها والبعض . فقد فترضها شاعلة أزمنة وأمكنة مختلفة ، كما تفعل ذلك أحلام أشخاص مختلفين . وقد تكون غير متشابهة وغير متماثلة ، وكل منها جامد تجاه الآخر ، بحيث لا تتدافع أبدا أو تتداخل . وحتى الآن قد يكون هنالك بالفعل عوالم بتمامها متفاوتة عن عوالمنا بحيث اننا نحن الذين نعرف عوالمنا لا حيلة لنا في أن ندرك أنها موجودة . ومع ذلك فنحن نتصور تعددها ، ومن حيث الواقع يشكل مجموعها ما هو معروف في المنطق « عالم واحد للمناقشة » . فصياغة عالم للمناقشة ، كما هو واضح من هذا المثال ، ليس فيه حجة على نوع جديد من الارتباط .

وأنا لا أفهم الأهمية التي يختص بها بعض الكتاب الواحدين كون أى فوضى يمكن أن تغدو عالما بمجرد تسميتها . فيجب علينا أن نبث عن شىء ما أفضل في طريقة الوجدانية من قابليتها لكى ينظر اليها عقليا معا ويطلق عليها اسم جمع .

فأية ارتباطات يمكن أن تدرك ادراكا حسيا أو في الواقع ، بين أجزاء مجموعة يشار اليها اشارة مجردة بأنها عالمنا ؟

ثمة عدد لا يحصى من ضروب الاتحاد بين الأجزاء ، بعضها على نطاق أوسع ، وبعضها على نطاق أضيق . وليس كل أجزاء عالمنا تتحد اتحادا آليا ، اذ قد يتحرك بعضها دون أن يتحرك سائرهما . ومع ذلك فكلها تبدو متحدة بالجاذبية بقدر ما هى أشياء مادية .

أنواع الوجدانية

وبعض هذه بدورها تتحد اتحادا كيميائيا ، بينما لا يتحد بعضها الآخر ، ويصدق ذلك بالمثل على الارتباطات الحرارية والبصرية والكهربائية

وغيرها من الارتباطات المادية . هذه الارتباطات تخصيصات لما نعينه بكلمة وحدانية حين نطبقها على عالمنا . فليس ينبغي لنا أن ندعوها واحدا ما لم ترتبط أجزاؤها بهذه الطرق أو بغيرها . ولكن من الواضح حينئذ أننا بالمنطق عينه ينبغي أن ندعوها « كثرة » بقدر ما تنفصل أجزاؤها بنفس الطرائق أى أن تكون قاصرة كيميائيا الواحد منها مع الآخر ، أو غير موصلة للكهرباء ، والضوء والحرارة . في هذه الضروب من الاتحاد جميعها ، تثبت بعض أجزاء العالم أنها متصلة بأجزاء أخرى ، بحيث أنك لو اخترت خط تأثيرك أو عباراتك اختيارا صائبا . ففى وسعك أن ترحل من قطب الى قطب دون انقطاع . ومع ذلك فاذا اخترتها اختيارا خاطئا ، فانك تقابل عقبات ، وغير موصلات من البداية ، ولا يمكن لك أن ترحل بالمرة . وعلى ذلك فليس ثمة وحدانية مطلقة ولا كثرة مطلقة من وجهة النظر المادية ، بل مزيج من ضروب من الجانبين محددة تحديدا دقيقا . زد على ذلك ، أنه لا الوجدانية ولا الكثرة تلوح هى الصفة الألتصق بالماهية ، وانما هى قسما متسقة فى العالم الطبيعى .

وثمة عدد كبير من اختلافات عملية أخرى نعينها حين نطلق على شىء أنه واحد . فعالمنا ، اذ يركب فى الزمان والمكان ، له وحدة زمانية مكانية . ولكن الزمان والمكان يربطان بين الأشياء بأن يفصلا بينها فصلا محددا . وعلى ذلك فمن الصعب القول ما اذا كان ينبغي للعالم أن يطلق عليه أنه « واحد » أكثر مما نعتبره « كثرة » فى هذه النظرة الزمانية المكانية .

ويصدق هذا بالمثل على الوجدانية النوعية التى تأتى من كون عدد كبير من أجزاء العالم متماثلا . فحين يتماثل شيئان يمكنك أن تقوم بصدد الأول باستدلالات تصلح للثانى ، حتى أن هذا النوع من الاتحاد بين

الأشياء — بقدر ما نحصل عليه — ثمين للغاية من وجهة النظر المنطقية .
ولكن التنافر اللامتناهى بين الأشياء يوجد فى نفس الوقت مع كل نوع
من التقارب بينها نكتشفه ، ولا يظهر عالمنا بتميز على أنه واحد فى جوهره ،
أكثر مما يظهر على أنه كثرة ، من وجهة النظر التكوينية هذه .

لقد مسسنا الوحدة العقلية التى يمكن اسنادها للعالم كنتيجة لاستطاعتنا
أن نعنى العالم كله فى آن واحد . والاتحاد العقلى الحسى الذى تصنعه
معرفة شاملة من النمط الادراكى ، تحيط فى ضربة واحدة بكل جزء مما
يوجد ، هذا الاتحاد مختلف اختلافا بعيدا عن الاتحاد بدلالة مجردة .
ويعتقد المثاليون فى مثل هذه المعرفة الشاملة المطلقة . وهم يقولون ان
« كنىط » كاد يضع فكرة الذات — وهى أكثر معقولة — مكان فكرة
الجوهر . « فأنا على وعى به » وهى فى نظر الشهود يجب أن تصحب كل
تجربة ممكنة ، تعنى فى نهاية الأمر ، — كما قيل لنا — شاهدا واحدا
فردا للاطار الشامل للأشياء ، تعنى عالما بدون نهاية .. اللهم آمين! .. وقد
تدعو فعل العلم الشامل غير المقسم مؤقتا أو خالدا ، على ما يطلو لك
اختياره ، ذلك لأن الزمن هو موضوعه ، كما هو شأن كل شىء آخر ،
وهو ذاته ليس زمانا .

الوحدة بالتسلسل

وسنجد فيما بعد أسبابا لكى تتناول الواحدة العقلية على أنها فرض
غير قابل للتحقق . فعند هذا الفرض تقف التعددية العقلية التى نحققها ،
كل لحظة ، حين نسعى الى معلومات من أصدقائنا . وتبعا لذلك كل شىء
فى العالم لابد أن يعرفه شخص ما ، لا كل شىء يعرفه نفس العارف ، أو فى
فعل معرفة واحد — مثل أن الجنس البشرى كله مرتبط بشبكة واحدة من

المعرفة — أ يعرف ب ، ب يعرف ج — ي يعرف ز ، ز قد يعرف أ ؛ دون
امكانية أن يعرف أى واحد كل شخص دفعة واحدة . هذه المعرفة المتسلسلة،
اذ تمضى من تال الى تال مختلفة اختلافا تاما عن المعرفة المتينة التى يفترض
أن الذهن المطلق يمارسها . فهى تقيم نمطا متناسبا من العالم أوسع العارفين
فيه لا يزال جاهلا بكثير يعرفه الآخرون .

وثمة أنظمة أخرى من التسلسل الى جانب التسلسل العقلى ، فنحن
أنفسنا نضيف باطراد الى ارتباطات الأشياء . ننظم الاتحادات العمالية ،
ونؤسس الأنظمة البريدية والقنصلية والتجارية ، والسكك الحديدية ،
والتلغرافية ، بأنظمة غيرها تربط بيننا وبين الأشياء دائما أبدا فى شبكات
أوسع . وبعض هذه الأنظمة ينطوى على أخرى ، وبعضها لا ينطوى .
فليس فى مستطاعك أن يكون لك نظام تليفونى دون ارتباطات من الهواء
والنحاس ؛ ولكن قد يمكن أن يكون لك ارتباطات من الهواء والنحاس
دون تليفونات . وليس بمستطاعك أن تحب بدون تعارف ، ولكن قد يمكن
أن تتعارف دون حب ... الخ ... وفوق ذلك فالتشء نفسه يمكن أن
ينتمى الى أنظمة عديدة ، مثل عندما يرتبط انسان بموضوعات أخرى
بالحرارة والجاذبية والحب والمعرفة .

ومن وجهة نظر هذه المذاهب المنحازة ، يتعلق العالم من تال الى تال
فى طرائق متنوعة ، بحيث انه عندما تكون بعيدا عن شء يمكنك دائما أن
تكون عند شء آخر دون أن تخرج من عالمك . والجاذبية هى النوع
الوحيد من الارتباط المعروف معرفة ايجابية بين الأشياء التى تذكرنا بالشكل
المتين أو الواحدى للاتحاد . فاذا كان لابد للكتلة من أن تتغير على نحو ما ،
فان الجاذبية المتبادلة بين جميع الأشياء قد تتحول فى الحال . .

وحدة انغرض والمعنى

والاتحادات الغائية والجمالية هي أشكال أخرى من الاتحاد المنظم .
فالعالم ملئ بالأغراض الجزئية والقصص الجزئية . فأما أنها جميعا تشكل
فصولا من غرض واحد أسمى قيمة مستوعبة فهذا هو التكهن الواحدى .
فانها تلوح ببساطة وكأنما يجرى الواحد منها الى جانب الآخر ، اما بطريقة
غير ملائمة ، أو حين تتداخل ، فتفضى الى احباطات من الجانبين ، ومن ثم
فمظهر الأشياء ، هو لا محالة تعددى من وجهة نظر الغرض الذى ترمى اليه .
وثمة اعتقاد مشترك أن كل الموجودات الجزئية لها أصل واحد ومصدر
واحد ، اما الله ، واما ذرات قديمة قدم الله .

وحدة الأصل

ومن المعتقد أن ليس ثمة ابداع حقيقى فى العالم ، فالأشياء الجديدة
التي تظهر ، اما أن تكون قد تشكلت من قبل تشكلا أبديا فى المطلق ،
أو هي نتائج للأشياء الأولى — الذرات أو الموناد — دخلت فى امتزاجات
جديدة . بيد أن مسألة الوجود مسألة غامضة جدا على أية حال ، بحيث
انه سواء أنبثت الحقائق فى الوجود دفعة واحدة أو جاءت قطعة قطعة ،
وكان لها أعمار مختلفة (بحيث يمكن للابداعات المختلفة أن تفيض فى عالمنا
كل وقت) فمن الممكن ترك هذا السؤال جانبا ، وان لم يكن هنالك شك
فى أننا لو توخينا الاقتصاد فى التفكير ، لافترضا أن كل الأشياء قديمة
على حد سواء ، ولن تفيض أية ابداعات .

خلاصة

هذه النتائج هي ما يعرف عليه العالم . هي الوجدانية منظور اليها
نظرة برجماتية . ان العالم المتناسق فى طريقة من هذه الطرق لا يمكن أن

يكون فوضى حسية ، ولكنه عالم من هذه المرتبة أو تلك . (والمراتب يمكن أن تختلف مع ذلك . فالأجزاء قد تكون لها علاقات مكانية ولكن ليس أكثر من هذا ، أو قد تكون منجذبة أيضا ، أو تتبادل الحرارة ، أو تعرف ، أو يجب الواحد منها الآخر .. الخ) .

هذه هي القيمة الحاضرة لوحدة العالم كما تتحقق تحققا تجريبيا . فوحدته الكلية هي جماع كل وحداته الجزئية . فهي تتألف منها وتتبعها . ومع ذلك فمثل هذه الفكرة ، تنتهك الأذهان العقلية ، التي تحتقر ، عادة ، كل هذه التغيرات العملية الصغيرة . فمثل هذه الأذهان تصر على اتحاد أعمق وأشمل للأشياء في المطلق « فكل واحد في الكل ، والكل في كل واحد » : هذا هو الشرط الأول لهذه الارتباطات التي تؤيدها التجربة . ولكن قد يكون هذا مجرد حالة من التوقير المألوف للتجريدات ، مثل أن تقول « ان الطقس السيء هو سبب الأمطار اليوم » .. الخ أو تفسر قسما شخص بوجهه ، مع أن الحقيقة أن الأمطار هي طقس رديء ، وهي ما نعينه بالطقس الرديء ، كما أن القسما هي ما نعينه بالوجه .

ولنجمل ما فات تقول : ان العالم « واحد » في بعض الجوانب و « كثرة » في جوانب أخرى . ولكن الجوانب يجب أن تخصص ، وأن تكون أكثر من تجريد خاو . فما نكاد ننتهي عند هذه النظرة الرزينة حتى نجد أن مسألة الواحد أو الكثرة تنقطع عن أن تبدو مهمة . ان الوحدة أو التعدد هي باختصار أمر تؤيده الملاحظة ونكتب عنه في قضايا تتعقد رغم كل مجهود للتحديد والضبط .

الفصل الثامن الواحد والكثرة

قيم ونقائص^(١)

كان يمكن لنا أن ننفذ يدنا من الموضوع بعد الفصل السابق^(٢) ،
لولا أن ثمة نتائج تنجم عن الفروض المتنافسة ، وتجعل من تناوب الواحدة
والتعددية ما سبق لى أن دعوته فى ص ٩٤ من هذا الكتاب ، أشد مأزق
المتافيزيقا احراجا .

النظرية الواحدة

أولا : ان صفة « الواحد » تلوح لأناس كثيرين حاملة للعالم قيمة
وروعة تجل عن الوصف ، وكبرياء يصطدم معها تصورها ككثرة
لا بد منها .

ثانيا : ان الارتباط العقلى الذى يمضى خلال الموضوعات ، ويربط
ربطاً مطلقاً بين كل منها والآخر يؤخذ فى بعض الجوانب على أنه لازم للعالم
العقلى . حينئذ فقط يمكننا أن نعتقد بأن كل الأشياء ينتمى كل منها للآخر
اتماء حقيقيا ، بدلا من أن تكون مرتبطة بروابط مجردة مثل « مع »
و « و » والفكرة التى قد يحصل عليها هذا التنظيم التعددى توصف بأنها

(٧٤) لم يكن هذا الفصل فصلا قائما بذاته فى مخطوط الكتاب - الناشر

(٧٥) اذا أراد القارئ مزيدا فيما تقدم فعليه بالاطلاع على محاضرة

« وليم جيمس » عن « الواحد والكثرة » فى كتابه : البرجماتية . (١٩٠٧)

غير عقلية . وهى ، فى الحق ، تجعل العالم متعارضا الى حد ما مع المنطق
أو غير عقلى من وجهة النظر العقلية الخالصة .

قيمة الوجدانية المطلقة

فالواحدية تأخذ الوجدانية على أنها العنصر الأشد حيوية وجوهية .
فالعالم كله يجب أن يكون وحدة متينة ، يحدد الكل كل عضو فيه على
ما هو عليه . وأقل بادرة من بوادر الاستقلال يقضى عليها فورا . فعند
« اسبينوزا » تميل الواحدية الى الاعتقاد بأن جميع الأشياء تنشأ عن
ماهية الله ، بنفس الضرورة التى ينشأ عنها من طبيعة المثلث أن زواياه تساوى
قائمتين . ان الكل هو ما ينتج الأجزاء ، وليست الأجزاء هى التى تنتج
الكل . فالواحدية تزعم أن العالم محكم التماسك وليس مفككا . ويجب
اما أن تأخذ الكل على علاقته أو لا تصل الى جزء منه أو مجموعة فيه بالمرّة .
والمقابل الوحيد الذى يسلم به الكتاب الواحديون هو الاقرار بعدم معقولية
العالم . وليس ثمة فيلسوف يسمح لنفسه بذلك . وصورة الواحدية الغالية
فى هذه الأيام فى الدوائر الفلسفية هى المثالية المطلقة . وترى هذه الطريقة
فى التفكير أن العالم يوجد فحسب كموضوع لذهن واحد يعرف معرفة
لا نهائية . والتمثيل الذى يوحى بهذا الغرض هنا هو تمثيل من الميادين
المحدودة لوعينا التى تتطلع كل لحظة الى كل يتألف دفعة واحدة من أجزاء
تجرى بينها علاقات متنوعة . وفى هذا الكل يكون وجود الارتباطات
والانفصالات التى تظـ من حيث كونها شواهد على هذه الأجزاء ، فهى على
ذلك مؤسسة تأسيسا عقليا واحديا .

وقد نسلم بسموّ هذه الواحدية العقلية ونظرتها الغامضة لارتباط خفى

بين الظواهر دون ما استثناء^(٧٦) . وتبدو هذه الواحدة قادرة أيضا على أن تحقق الاستقرار الدينى ، والسلام ، وتلوذ بسلطة التصوف لتأييدها . ولكننا من جهة أخرى نجد تلك الواحدة — كأي تصور يؤخذ به دون ما شرط — تدخل فى الفلسفة ألباذا خاصة بها على نحو ما يلي : —

١ — فهى لا تفسر وعينا المتناهى . فاذا لم يوجد شىء الا على نحو ما يعرف الذهن المطلق ؛ فكيف يمكن لأى شىء أن يوجد على خلاف ما يعرف ذلك الذهن ؟ ان ذلك الذهن يعرف كل شىء بفعل واحد من أفعال المعرفة بجانب معرفته لكل شىء آخر . والأذهان المتناهية تعرف الأشياء دون أن تعرف أشياء أخرى ، وهذا الجهل هو مصدر معظم ويلاتها . وعلى ذلك فنحن لسنا ببساطة موضوعات لذات تعرف كل شىء ، فنحن ذوات على حسابنا ، ونعرف معرفة مختلفة عنها .

٢ — يخلق ذلك مشكلة الشر . فالشر فى نظر التعددية يمثل فقط مشكلة عملية هى كيفية التخلص منه . أما فى الواحدة فاللغز نظرى : كيف — اذا كان الكمال هو المصدر — يكون هنالك نقص ؟ اذا كان العالم كما هو معروف للمطلق كاملا ، فلم يعرف على غير ذلك فى آلاف من الاضافات المتناهية الحقيرة أيضا ؟ فالاضافة الكاملة هى يقينا كافية . كيف تطرق اليه التهدم والتوزع والجهل ؟

٣ — يناقض ذلك طابع الحقيقة الواقعية كما تدرك فى التجربة . فالتغير فى عالمنا يبدو عنصرا جوهريا . فهناك التاريخ ؛ وفى التاريخ

(٧٦) كان «سبينوزا» أول رسول لهذه الواحدة فى قسماتها الجوهرية ، وكان «فشت» و «هيجل» وسيطين موضحين لها ، و «جوزيا رويس» هو خير من يمثلها من المعاصرين .

ابتكارات ومعارك ، وخسائر وأرباح . ولكن عالم المطلق يمثل غير متغير ،
سرمديا أو « خارج الزمان » ، وغريبا عن قوانا في الفهم والتقدير . ان
الواحدية تتناول عالم الحس عادة كأنه سراب أو وهم .

٤ — هذه الواحدية قدرية . فالامكانية متميزة من الضرورة من جهة ،
ومن الاستحالة من جهة أخرى ، هي مقولة جوهرية في التفكير الانساني .
وهذه الامكانية هي مجرد وهم في نظر الواحدية ؛ ذلك لأنه ليس ثمة
ضرورى أو مستحيل ، اذا كان العالم وحدة من الواقع كما يزعم الواحديون .
ان احساسنا بالحرية يفترض أن بعض الأشياء على الأقل تتقرر هنا
والآن ؛ وأن اللحظة الجارية قد تنطوى على بعض تجديد ، وقد تكون
قطعة بدء طرفة للأحداث ، وليست فحسب مجرد ناقلة للدفعة من مصدر ما .
فنحن نتخيل ، في بعض الظروف على الأقل ، أن المستقبل قد يكون منطويا
في الماضى . ولكنه قد يكون في الواقع منضافا اليه على هذا النحو أو ذاك ،
بحيث أن الاستدارة التالية للأحداث يمكن أن تأتى في لحظة معطاة بطريقة
غامضة ، بحيث يمكن أن تكون هذه كما أمكن أيضا أن تكون تلك .

والواحدية تخرج من نطاقها كل هذا التصور للامكانيات الذى ألقناه
في حسنا المشترك . وتضطر الواحدية الى القول بأن المستقبل والماضى
مرتبطان ، فلا يمكن أن يكون ثمة ابتكار حقيقى فى أى مكان . ذلك أن
افتراض أن للعالم تكوينا منضافا فحسب ، دون أن يكون هنالك ارتباط
بين الأشياء الا ما تعنيه كلمات « زيادة » « مع » « و » ، يتنافر مع العقل .
والتعددية من جهة أخرى ، اذ تأخذ التجربة الادراكية فى قيمتها
الظاهرية ، تتحرر من كل هذه المصاعب . فهى تحتج على استخدام أفكارنا
فى خلاء تشكله تجريداتنا التصورية .

النظرية التعددية

وهي تسلم بأن بعض أجزاء عالمنا لا يمكن أن توجد خارج كلياتها . ولكن بعضها الآخر يمكنه ذلك . فالعالم يبدو الى حد ما عالما يقبل الانضياف ؛ ويمكن أن يكون في الواقع كذلك . وليس في وسعنا أن نفسر تفسيراً تصورياً كيف تحدث الابتكارات الحقيقية . ولكن اذا ظهر ابتكار ما فاننا نمر بتجربة ظهوره . اننا في الواقع نجرب الابتكارات التصورية في ابّانها . وتجربتنا الادراكية الحسية هي التي تنطوي على عقلنا التصوري :

« فها هو ذا » تسمو على « لِمَ كان ذلك ؟ » . ومن ثم فنظرة الحس المشترك للحياة على أنها شيء درامي على الحقيقة ؛ عمل ينفذ وأشياء تقرر هنا والآن ، نظرة متقبلة للتعددية ، و « الارادة الحرة » لا تعني الا الابتكار الحقيقي ؛ وعلى ذلك فالتعددية تقبل فكرة الارادة الحرة .

يبد أن التعددية اذ تتقبل عالماً لم يتم ، بأبواب ونوافذ مفتوحة وبامكانيات لا تقبل الضبط من قبل ، تزودنا بيقين ديني أدنى من ذلك الذي تزودنا به الواحدية بعالمها المحكم الأغلاق . صحيح أن يقين الواحدية الديني غير مؤسس على أساس عقلي ، ولكنه ايمان بأننا نرى الخير كله في الواقع كله . ومع ذلك فمن حيث الواقع ، نرى الواحدية راغبة عادة في أن تسعى نحو هذا الايمان المتفائل : فعالمها مأمون يقينا ، وهو مأمون من قبل ، دون ما شرط ومنذ السرمدية ، رغم كل مظاهر المخاطرة البادية (٧٧) .

(٧٧) من أجل تعبير بليغ عن الموقف الواحدى من وجهة النظر الدينية
أحيل القارئ على كتاب « جوزيا رويس » : العالم والفرد . ج ٢ ،
محاضرات ٨ ، ٩ ، ١٠

J. Royce : The World and the Individual

نقائصها

ان عالما يعمل لمصير غير يقينى ، كما يلوح أن عالم الظواهر يفعل ذلك؛ تلك فكرة لا يحتملها ذهن العقلين .

والتعددية من جهة أخرى لا هى بمتفائلة ولا هى بمتشائمة ، ولكنها بالأخرى تطمح للإصلاح . فهى ترى أن فى الوسع انقاذ العالم بشرط أن تودى أجزاءه خير ما فى وسعها . ولكن الخراب فى التفاصيل أو حتى فى الكل ، احتمال من بين الاحتمالات المفتوحة .

ومن ثم فثمة نقص عملى فى الميزان عند التعددية ، يتعارض مع ما تحمله الواحدية من سلام الى الذهن . فالنظرة الأولى أكثر أخلاقا ، والنظرة الثانية أكثر دينا ، والناس على اختلافهم يتركون ، عادة ، هذا النوع من التقدير يحدد اعتقادهم (٧٨) .

مزايها

لقد سعت الى أن أبين ما تتضمنه المذاهب المتنافسة على التوالى ، دون أن أقطع بقرار أيهما أصدق . ومن الواضح أن للتعددية ثلاث فوائد عظيمة : —

١ — فهى أشد « علمية » . يتمثل ذلك فى اصرارها على أنه اذا أضيف الى الوحدانية ، فانها تعنى على الدقة أشكالا مرتبطة ممكنة التحقيق ؛ تتكافأ معها تكافؤا دقيقا أشكال منفصلة ممكنة التحقيق أيضا . والاثنان جانبان متناسقان للحقيقة الواقعية . ولكى تجعل الواحدية الروابط أشد

(٧٨) انظر بصدد هذا الاختلاف الدينى ، المحاضرة الختامية فى كتاب جيمس : البرجماتية

حيوية وألزم من الفواصل تتخلى عن التجربة التى يمكن تحقيقها وتنادى
بوحدة لا يمكن وصفها .

٢ — تتفق اتفاقا أعظم مع التعبير الأخلاقى الدرامى للحياة .

٣ — ليست مضطرة أن تحل محل أى قدر جزئى من التعدد ، ذلك
لأنها تنتصر على الواحدية ، اذا فرض أن ثمة وجودا لا يمكن انكاره لأقل
جزئى من الانفصال . وكل ما تقوله للواحدية : ليس هذا بكاف فهل من
مزيد ! بينما تضطر الواحدية للبرهنة على أن ما تزعمه التعددية لا يمكن
فى أى قدر منه أن يكون حقا . وهذه مهمة تبلغ من المشقة غايتها .

ومزايا الواحدية هى ، بدورها ، ارتباطها الطبيعى بنوع متين من الايمان
الدينى ، والقيمة الانفعالية الخاصة لتصور العالم واقعة محددة .

لقد مضى بنا استخدامنا للقاعدة البرجماتية بعيدا جدا فى فهم هذا
المأزق العقلى . وان القارئ يشعر فى خلال ذلك بالفارق الجوهرى
العملى الذى ينطوى عليه . ان كلمة « غياب » تبدو دالة عليه . فالمبدأ
الواحدى يتضمن ألا شئ قائم يمكن على أية طريقة أيا كانت أن يغيب من
شئ آخر قائم . والمبدأ التعددى ، من جهة أخرى ، يتلاءم تماما مع كون
بعض الأشياء غائبة من العمليات التى ترتبط بها أشياء أخرى كل منها على
حدة أو مجموعة . فأية أشياء تغيب من أشياء أخرى ، ومتى . ؟ . هذه
بالطبع يمكن أن تحسم فيها الفلسفة التعددية بدراسة دقيقة للتفاصيل
فحسب . ان الماضى والحاضر والمستقبل يغيب بعضها عن البعض الآخر
فى الادراك مثلا ، بينما هى جميعها حاضرة أو غائبة فى الخيال على حسب
الحالة . فاذا لم يكن المضمون الزمانى للعالم كتلة واحدة واحدة للوجود ،
اذا كان جزء منه على الأقل فى المستقبل ينضاف الى الماضى دون أن يكون

متضمننا فيه تضمننا تقريبا أو ضمنا ، فانه غائب من حيث هو ظاهرة ، ويمكن أن ندعوه ابتكارا مطلقا في تاريخ العالم .

الواحدة والتعددية والابتكار

ويبدو أن الفارق البرجماطى بين الواحدة والتعددية يقترب من هذا المخرج : واقعية الابتكار الذى يظهر أو عدم واقعيته . فكوننا أنفسنا قد نكون أصحاب ابتكار عبقرى ، هذه قضية مذهب حرية الارادة ؛ وكون الابتكارات العبقريّة يمكن أن تحدث يعنى أنه من وجهة نظر ما هو معطى من قبل ، أن ما يأتى قد يعامل على أنه أمر من أمور الصدفة . ويقودنا ذلك لالقاء السؤال التالى : على أى نحو يحدث الوجود الجديد ؟ أمن خلال نتائج الوجود الأقدم ، أو أنه أمر من أمور الصدفة بقدر ما يولّى الوجود الأقدم ؟ ويعادل هذا السؤال : أهو طريق بالمعنى الدقيق للكلمة ؟

ونحيل القارئ مرة أخرى الى ما قلناه فى نهاية الفصل الثالث من هذا الكتاب . فقد وافقنا هنالك على أن الوجود واقعة أو هبة وأن على الفيلسوف أن يفسره . ولكننا تركنا السؤال مفتوحا . ما اذا كان واجبا عليه أن يفسره كله دفعة واحدة ، أو يفسره قطعة قطعة أو مجموعة مجموعة على أقساط . والطريقة الأخيرة هى النظرة التجريبية الأشد توافقا ، وسأبدأ بالدفاع عنها فى الفصل التالى .

الفصل التاسع

مشكلة الجدة

علينا أن نتذكر أن العجز عن تفسير الوجود الذى تبناه الفلاسفة جميعا هو عجز تصوّرى . فعندما تفكر تفكيرا مجردا عن الوجود ككل دفعة واحدة ، كما يواجهنا جاهزا ، نشعر بعجزنا شعورا مرا . ويمكن اذا اتبعنا المنهج التجريبي بتأمل الأجزاء عوضا عن تأمل الكل ، وبتخيل أنفسنا داخل هذه الأجزاء بالادراك ، أن يتحدانا الموضوع تحديا أقل إثارة لنا . وعلى ذلك فنحن نعود من جديد للمشكلة التى واجهناها فى آخر الفصل السابع من هذا الكتاب . فحين تنشأ مجموعات من الوجود الظاهري ، فهل نعتبرها فى جميع النقط مقدرة ، وثمرات ضرورية من الوجود القائم هناك من قبل ، أو نسلم ، بالأحرى ، بإمكان أن تكون الطرافة كامنة بذاتها فى الواقع ؟

اننا اذا أخذنا التجربة الادراكية المحسوسة أمكن الاجابة عن السؤال بطريقة واحدة فحسب : « فالشئ نفسه لا يعود اللهم الا وهو مختلف عما كان عليه » .

الجدة فى الادراك الحسى

يظل الزمن يفتتح عن لحظات جديدة ، كل منها يحمل مضمونا لم يكن له — من حيث هو فرد — وجود ألبته من قبل ، ولن يكون له وجود أبدا من بعد . فلم يكن لأية قطعة معينة من التجربة نسخة دقيقة . يقول

« دليف » : « آه لو لم يولد شبابى حاملا معه الحب ، والوهم ، والشعر ،
والتححرر من الشواغل ، وتاركاً لى عوضاً عن ذلك ، العلم وهو صارم دائماً
حزين مكتئب فى كثير من الأحيان . قد أستطيع بارادتى أن أنساه أحياناً ،
وهو يردد علىّ ساعة بعد ساعة ، دروسه الخيرة ، أو يجعلنى أرعد فرقا
من تهديداته ؟ فأنتى للزمان الذى لا يكل عن تكديس الوفيات على المواليد
والمواليد على الوفيات ، أن يصنع لنا من جديد «أرسطو» ، أو «أرشميدس»
أو « نيوتن » ، أو « ديكارت » ؟ هل للسرخس أن يكسو مرة أخرى
أرضنا هذه ، وهل لها أن تغطى كذلك بتلك المساحات الشاسعة من
الأعشاب البرية الجرداء ، التى تعيش فى وسطها وحوش الفيضانات ، ترتع
وتبرح ، كما فعلت فى سالف الزمان ؟

لا ، فإن ما حدث لن يحدث ، ولا يمكن أن يحدث مرة
أخرى . فالزمن يمضى فى قدم ثابتة ، والساعة عينها لا تدق
ألبته مرتين . واللحظات التى يتألف منها وجود العالم لا تشابه بينها .
ومهما يكن من أمر فإن شيئاً ما يظل مستعصياً أبداً على أن ينقلب نهاية
لبداية (٧٩) .

وبروز الابتكار المحسوس بروزاً دائماً فى الوجود هو أمر واضح
غاية الوضوح ، بحيث أن الكائن العاقل المرتبط دائماً بتفسير ما هو كائن
بما كان ، والذى لا يملك مبدأً منطقياً آخر غير مبدأ الهوية ليتولى به

(٧٩) انظر :

J. Delboeuf : Révue Philosophique, vol. ix. p. 138 (1880).

وعن التنوع اللامتناهى للحقيقة الواقعية قارن أيضاً :

W. T. Marvin : An Introduction to Systematic Philosophy, N.Y. (1903), pp. 22-30.

التفسير ، ينظر الى تيار الادراك الحسى كوههم ظاهرى ينجم عن اعادة تجميع
لا تنقطع للعناصر الثابتة المعاصرة للعالم ، فى أشكال جديدة من المزج .

العلم والجدلة

وهذه العناصر يفترض كونها وحدها الموجودات الواقعية الحقيقية
ولا يمكن فى نظر العقل حين يتشبع برؤيتها ، أن يكون هنالك شىء آخر
جديد تحت الشمس . ان تاريخ العالم بمقتضى علم الذريات يعنى مجرد ،
« اعادة توزيع » ذرات ثابتة منذ بدء الخليقة . فهى تفترق وتلتقى بحيث
تظهر لنا نحن المشاهدين فى تلك الأشكال المتنوعة تنوعا لا متناها ، وهى
التي ندعوها عمليات وأشياء (٨٠) .

(٨٠) كان أول من صاغ الفلسفة الذرية « ديموقريطس » المتوفى
سنة ٣٥٠ ق م . وقد أثبتت هذه الفلسفة قدرتها على أن تكون أداة علمية
للتفسير ، وقد تداخلت حياة ديموقريطس مع حياة أرسطو الذى أخذ بما يمكن
أن نطلق عليه فى جملة وجهه نظر بيولوجية للعالم ، وكانت الصور عنده
تساوى فى الحقيقة مع العناصر . وقد بقى الصراع بين هذين الضربين من
التفسير حتى أيامنا . ذلك لأن بعض الكيميائيين ما برحوا يدافعون عن التقليد
الأرسطى — الذى أوقفته سلطة ديكارت عند حده أمدا طويلا — وينكرون حقنا
فى القول بأن الماء ليس كيانا بسيطا أو أن ذرات الأكسجين والهيدروجين تبقى
فيه دون تغير .

قارن فى ذلك ص ١٢ من :

W. Ostward : Die Ueberninn dung des wissen schaftlichen Materialismus (1895).

« تزعم النظرة الذرية أنه عندما تختفى فى أكسيد الحديد مثلا جميع
الكيفيات المحسوسة للحديد والأكسجين ، فإن الحديد والأكسجين قائمان
معا رغم هذا ، ولكنهما يبديان كيفيات أخرى . وقد بلغ أخذنا بهذا الزعم حدا
غدا من الصعب علينا معه أن نحس بغرابته ، ان لم يكن بتناقضه . ومع ذلك
فعندما نفكر فى كل ما نعرفه عن نوع معطى من المادة هو كيفياتها ، فاننا
نترك أن هذا الزعم بأن المادة لازالت هناك ولكن دون أية كيفية من هذه
الكيفيات ، ليس أمرا بعيدا عن أن يكون لغوا » .

وفي حدود الطبيعة المادية ، نرى عددا قليلا منا يحس الميل لافتراض جدّة حقيقية . ذلك أن فكرة عناصر أزلية ، ومزجها لتخدمنا في طرائق عديدة . بحيث اتنا لا نتردد في الأخذ بالنظرية القائلة بأن الوجود الذي كان منذ القدم لا يتحول في صفاته ولا في كميته . وان القوانين التي نصف بها عاداته لقوانين مطردة في أدق معنى رياضي لهذه الكلمة . وهذه هي الأسس التصورية المطلقة التي نظن أنها قائمة تحت سطح التنوع في مستوى الإدراك الحسّي .

التجربة الشخصية والجدة

وتتغير وجهة نظرنا حين تتناول الحياة البشرية بالنظر . فمن الصعب أن تخيل أن تجاربنا الذاتية لا تعدو كونها في الواقع تنظيمات لجزئيات ذرية، حتى ولو تصورنا الجزئيات موجودات من نمط فسماني . ومع ذلك فإن أية واقعة مادية قد تختلف في حقيقتها عما يدلنا عنها شعورنا . ولكن أى معنى فى قولنا بأن شعورا ما ليس له طبيعة أخرى أنه يشعر به ، ما معنى قولنا عنه : انه ليس على نحو ما نشعر به ؟

ان تجاربنا اذا نظرنا اليها نظرة سيكولوجية ، وجدناها تقاوم أن ترد بالفكر الى شيء سواها ، فميادين وعينا — اذا أخذت ببساطة على ما هي

= قارن لنفس المؤلف كتابه :

Principles of Inorganic Chemistry

الترجمة الانجليزية — الطبعة الثانية (١٩٠٤) ص ١٤٩ • وكذلك ما كتبه :

P. Duhem : "La Notion de Mixte" : in Revue de Philosophie, vol. i, p. 452 ff. (1901).

وقد انهارت فكرة الثبات السرمدي للعناصر قبل الاكتشافات الجديدة عن المادة المشعة •

راجع البيانات الأصلية فى هذا الصدد فى :

T. Le Bon : L'Evolution de la Nature

عليه — تظل على نحو ما تظهر ، حتى ولو أمكن لوقائع من النظام الذرى أن تبرهن على أنها علامات للظاهر . وان سيرة الحياة هى الشكل المحسوس الذى يعطى فيه مباشرة كل ما هو قائم ، وتيار الادراك الحسى هو الخامة الصحيحة لكل سيرة من سير حياتنا ، وهو يحتوى على ابداع كل ما هو جديد فى كل لحظة . ان رجالا جددا ونساء جددا وكتبا وحوادث وأحداثا ، واختراعات ، ومشروعات جديدة تبرز فى العالم دون ما انقطاع . فمن العبث أن نرد هذه الى عناصر قديمة ، أو أن نقول : انها تنتمى الى أنواع قديمة ، ما دام لا أحد من بينها فى جمع فرديته حدث أن وجد هنا من قبل ، أو سيأتى من جديد . ان رجال العلم والفلسفة — فى اللحظة التى ينسون فيها تجريداتهم النظرية — يعيشون حياتهم مثلما يعيش سائر الناس حياتهم ، ويعتقدون مثلهم ببساطة وسذاجة ، أن الواقع الحاضر يعمل كما يعملون

لقد قارنت من قبل نظام الادراك الحسى ، وهو المجال الحى ، بالنظام التصورى من وجهة النظر هذه . فالتصور لا يعرف طريقة ما للتفسير اللهم الا باستنباط عين الشئ من ذاته . وعلى ذلك فلو صيغ العالم صياغة عقلية تصورية لما أمكن أن يأتى بجديد حقيقى . وتلك سمة من سمات افلاس المذهب التصورى التى أحصيتها فى الفصل الخامس . فالمذهب التصورى يمكن أن يسمى التغير والنمو ، ولكنه لا يستطيع أن يترجمهما فى حدود من عنده ، ويضطر أن يناقض ذلك الاحساس الذى لا مهرب منه ، أعنى الاحساس بالحياة عندنا بأن ينكر أن الواقع ينمو .

وقد يبدو لشباب الطلاب أن هذا لا شأن له بمشكلة امكان خلق ما هو جديد ، وأنه ذو صلة بمشكلة اللامتناهى ، ولكن هاتين المشكلتين مرتبطتان فى تاريخ النظر التأملى .

الجدة واللامتناهى

وقد يلوح أن الجدة تناقض الاستمرار ، كما يلوح أن الاستمرار ينطوي على تدرج لا متناه في درجاته ، واللامتناهى يرتبط بالعدد ، والعدد يرتبط بالواقع في عموميه . ذلك لأنه يلزم عد الوقائع . وعلى ذلك فقد سبق أن أقر الباحثون بأن عدم الوجود الخارجى لعدد لا متناه يستلزم أن يكون طابع تكوين الواقع طابعا متناهما . ويترتب على هذا أن تنقطع نشأة الكائنات ولا يكون لها نشأة واحدة مستمرة ، أو بعبارة أخرى أن يأتى الواقع الى الوجود بواسطة زيادات متميزة مما هو جديد ، وان تكن صغيرة .

ومن ثم ، فنحن نجد مشكلة اللامتناهى تقف فعلا في طريقنا ، ومن الأفضل عند هذه النقطة أن تنقطع مناقشتنا لمسألة الجدة بمعناها الواسع ، ونخرج المشكلات الصغيرة من طريقنا أولا .
فسأتناول اذن مشكلة اللامتناهى .

الفصل العاشر

ابجدة واللامتناهى

وجهة النظر التصورية (٨١)

تتمثل المشكلة فيما يلي : أيهما يعد فرضا أقرب الى العقل : اضافات مستمرة أو اضافات متقطعة الى الوجود الخارجى مهما يكن نوعه وميما يكن مقداره ؟ .

نظرية التقطع

فنظرية التقطع ترى أن الزمان والتغير .. الخ — يمكن أن تنمو ببراغم أو قطرات متناهية . فاما ألا شئ يأتى بالمرة ، أو أن بعض الوحدات تبرز للوجود بضربة واحدة . فكل قسمة من قسّمات العالم قد يكون لها — بمقتضى وجهة النظر هذه — تكوين عددى متناه . ومثلما تكون الذرات، لا نصف الذرات ولا ربعها ، هى الحد الأدنى للمادة التى تحتوى على عدد متناه من الذرات ، فكذلك أى قدر من الزمان أو المكان أو التغير .. الخ ، يمكن افتراض كونها مؤلفة من عدد متناه من مقادير غاية فى الضآلة من الزمان والمكان والتغير .

مثل هذا التكوين المتقطع للوحدات ، هو ما نحصل عليه فعلا فى

(٨١) وصف المؤلف فى مخطوطه هذا الفصل والفصول التالية بأنها «مشكلات فرعية» . وكان عنوان هذا الفصل : «المستمر واللامتناهى» .
— الناشر

تجربتنا الحسية . فاما أننا لا ندرك شيئاً ، أو ندرك شيئاً قائماً من قبل في كمية محسوسة . وهذه الحقيقة هي ما يعرف في علم النفس بقانون « العتبة » . واما ألا يكون لتجربتك مضمون ، ولا تغير فيها ، أو أن لها قدراً محسوساً من المضمون أو التغير . فمعرفتكم بالواقع تنمو — بالمعنى الحرفي — ببراغم أو قطرات من الادراك الحسى . ويمكنك بالنظر العقلى والتأمل أن تقسم هذه الى مكوناتها ، ولكنها كما تعطى مباشرة ، تأتي كلاً أو لا تأتي بالمرّة .

نظرية الاستمرار

ومع ذلك فإذا أخذنا الزمان والمكان من حيث هما تصوران ، لا من حيث هما معطيان حسيان ، فاننا لا نرى في وضوح كيف يكون لهما هذا التكوين الذرى . ذلك لأنه ما لم يكن للقطرات أو الذرات في ذاتها امتداد زمانى أو مكانى ، فلا يمكن أن تتصور أننا اذا أضفنا أى عدد منها معا ، نشأ لنا بذلك أزمنة أو أمكنة . واذا كانت ، من جهة أخرى ، امتدادات زمانية أو مكانية غاية في الصغر ، فمن المستحيل أن نعاملها كحدود دنيـا حقيقية . فلا بد أن يكون لكل قطرة زمانية نصف سابق ونصف لاحق ، ولكل وحدة مكانية نصف أيمن ونصف أيسر . ولا بد لهذه الأنصاف أن يكون لها أنصاف وهكذا الى ما لا نهاية . بحيث ترتبط فكرة التقسيم الى ما لا نهاية ارتباطاً لا فكاًك له بفكرة أن تكوين الأشياء مستمر لا تقطع فيه . هذا التقسيم اللامتناهى لبعض الوقائع مقرونا بالامتداد اللامتناهى للأخرى (المكان ، الزمان ، العدد) قد أثار أشد المشكلات الجدلية في الفلسفة عنادا . فلنتناول — بطريقة بسيطة قدر ما فى وسعنا — مشكلة اللامتناهى .

ثمة مشكلة زائفة : « كيف يمكن للمتناهي أن يعرف اللامتناهي ؟ » .
وقد عنت هذه المشكلة بعض مفكرى الانجليز (٨٢) . ولكن فى وسعنا أيضا
أن نصطنع مشكلة حول : « كيف يمكن للبدين أن يعرف النحيل ؟ » فحين
نكون بصدد النظر فى المعرفة ستختفى مثل هذه المشكلات . ان المشكلة
الحقيقية عن اللامتناهى تبدأ مع حجج « زينون » الاىلى المشهورة ضد
الحركة . فمدرسة « الفيثاغوريين » كانت مدرسة تعددية . يقول امامهم
« فيثاغوراس » : « ان الأشياء أعداد » . وهو يعنى بهذا فيما يلوح ، أن
الواقع يتألف من نقط يمكن للمرء أن يحصياها (٨٣) . لقد قصد بحجج
« زينون » أن تبين لا أن الحركة مستحيلة الحدوث فى الواقع ، بل أنها
لا يمكن على الحقيقة تصورها حادثة بأن يحل الجسم المتحرك فى النقط
على التعاقب .

نقائض زينون

فاذا كان السهم الطائر يحتل فى كل لحظة من الزمان نقطة محدودة من
المكان ، فان حركته لا تعدو أن تكون جملة السكنات ، لأن السهم لا يكون
خارج هذه النقطة أو تلك ، وهو اباى وجوده فى النقطة المعينة لا يتحرك .
فان الحركة لا يمكن حقا أن تحدث على هذا النحو اذا كانت مكونة من
نقاط منفصلة .

(٨٢) فى كتاب هـ . كولدروود . عن فلسفة اللامتناهى . مناقشة
للمشكلات الثانوية ، ويكاد لا يكون هنالك وعى ظاهر بالمشكلة الهامة .

H. Calderwood : Philosophy of the Infinite.

(٨٣) أتبع هنا « ج. بيرفيه » فى كتابه الفلاسفة اليونان الأوائل - الفصل
الخاص بالفيثاغوريين . وبول تانرى : التصور العلمى للمستم - فى المجلة
الفلسفية . مجلد (٢٠) ص ٢٨٥ .

J. Bunnet : Early Greek Philosophers

Paul Tannery «Le Concept scientifique de Continue in R. philosophique

وثمة تناقض هو أشهر من تناقض السهم ، وهو تناقض « أخيل » . لنفرض أن « أخيل » يسابق السلحفاة ، وأنه يتحرك بسرعة هي ضعف سرعة غريمته ، التي سمح لها بالتقدم عن نقطة البداية مسافة بوصة . ففي الوقت الذي يقطع فيه « أخيل » هذه البوصة ، أي حين يصل الى النقطة التي بدأت منها السلحفاة ، فإن السلحفاة تكون قد تقدمت عليه بنصف بوصة ، وحين يقطع « أخيل » نصف البوصة هذا ، تكون السلحفاة قد سبقته بربع البوصة ... الخ . بحيث ان النقط المتعاقبة التي يحتلها المتسابقان في آن واحد تشكل مجموعتين متلاقيتين من المسافات من نقطة بداية « أخيل » . فاذا قسنا هذه المسافات بالبوصة فانها تكون على النحو التالي :

$$1 + \frac{1}{2} + \frac{1}{4} + \frac{1}{8} + \frac{1}{16} + \dots + \frac{1}{2^n}$$

فيزعم « زينون » على هذا أن المكان لا بد أن يكون قابلا للقسمة الى ما لا نهاية . ولكن لو كان الأمر كذلك لما أمكن أن تحصى على التعاقب عدد النقط المحتلة . ذلك لأن المسلسلات التي بدأت ، كما بينا ، لا تنتهى . ففي كل لحظة يصل فيها « أخيل » الى آخر نقطة وصلت اليها السلحفاة ، نجد أن السلحفاة قد تحركت الى نقطة أبعد ، . وعلى الرغم من أن الفارق بين النقطتين ما ينفك يتناقص تناقصا سريعا حتى يبلغ حدا من الصغر لا نهاية له ، فانه من المستحيل رياضيا أن يصل المتسابقان الى نفس النقطة في أية لحظة . واذا كان على « أخيل » أن يلحق بالسلحفاة ، فان ذلك يكون في نهاية بوصتين ، واذا كانت سرعته بوصتين في الثانية ، تم له اللحاق في نهاية الثانية الأولى (٨٤) . ولكن العرض السابق يبين أنه لا يمكنه اللحاق بالسلحفاة .

(٨٤) يبين هذا مدى ضحولة التشهير الشائع عن سفسطة زينون ، اذ تنهم بانها تحاول البرهنة على أن سبق «أخيل» للسلحفاة يتطلب زمنا طويلا الى ما لانهاية .

لأنه لكيلا يفعل ذلك ، لابد له من قطع كل النقاط التي بينهما نقطة نقطة .
وهى سلسلة من النقاط لابد لها بحكم قانون تكوينها ألا تصل أبدا
الى نهاية .

وقد قصد بحجج « زينون » تأييد نظرية الايليين عن الوجود الحقيقي
الواحدى . فالاحساسات الدنيا التى يتألف منها ادراكنا للمكان والزمان
والحركة ، وللتغير ، ليست بوجودات حقيقية ، لأنها تنقسم بدورها
انقسامات فرعية الى ما لا نهاية . ان طبيعة الوجود الحقيقى هى أن يكون
كاملا أو مستمرا . ولما كان ادراكنا كثرة لا أمل فى توحيدها فهو ادراك
باطل .

ولقد أقام علماء الرياضة منا — منذ عهد « زينون » الى يومنا —
ما يعد عندهم مستمرا ملائما يتكون من نقط أو أعداد . وحين أتحدث
عن هذا الموضوع مرة ثانية ستتاح لى الفرصة للعودة الى ما يسمونه
أغلوطة « أخيل » . أما الآن ، فسأمضى دون ما انتقل ، الى الهجوم
التاريخى الضخم على مشكلة اللامتناهى . وهو القسم الذى تناول فيه
« كنت » فى كتابه « نقد العقل الخالص » مسألة النقائض .

نقائض « كنت »

وتحتاج آراء « كنت » الى بعض نقط قليلة تمهيدية على نحو ما يلى :
١ — القول بأن الوجود الحقيقى أو الموضوعى يجب أن يكون وجودا
محددا ، يمكن أن يعتبر قاعدة أولية من القواعد الأتولوجية . فقد تعشى
عيوننا دون معرفة كم عدد النجوم فى المجرة ، أو تأخذنا الحيرة من ذا
نصدق فى عددها ممن عدوها . ولكن النظر والاعتقاد مشاعر ذاتية ، ونحن
على يقين من أن النجوم بذاتها توجد فى أعداد محددة . وكذلك ، مع يقيننا

بأن شعرات رأسنا ذات عدد معين ، فلم يحدث أن انسانا أحصاها (٨٥) .
ان أية حقيقة موجودة اذا أخذت في ذاتها ، يجب على ذلك أن تكون مما
يقبل الحصر : ويجب أن يكون لكل مجموعة من هذه الحقائق عدد ينطبق
عليها .

٢ — ويعرّف « كُنْط » اللامتناهى بأنه « ما لا يمكن ألبته قياسه
قياسا كاملا بإضافة متعاقبة لوحدات » . وبعبارة أخرى ان اللامتناهى
يتحدى التعداد الكامل .

٣ — ويضع « كُنْط » كقاعدة أولية ، أنه اذا أعطى أى شيء على أنه
حقيقة موجودة ، فان المجموع الكلى للشروط المطلوبة لتفسيرها يجب
أيضا أن تعطى أو أن تكون معطاة من قبل . وعلى ذلك اذا أعطيت لنا ياردة
مكعبة من المكان ، فان جميع أجزائها يلزم أيضا أن تكون معطاة . واذا
كان تاريخ معين فى الزمن الماضى حقيقيا لزم أيضا أن تكون التواريخ السابقة
عليه حقيقية . واذا أعطى المعلول لزم أن تكون سلسلة علله كلها معطاة ..
الخ الخ .

يبد أن الشروط فى هذه الحالة تتحدى التعداد . نعم ان أجزاء المكان
تصبح بعملية العد أقل فأقل الى ما لا نهاية ، كذلك لحظات الزمن والعلل
— وهى مسلسلات — تتراجع تراجعاً لا متناهياً بحيث يستحيل علينا أن
نكمل احصاءها . ولا يمكن أن يتشكل كل من هذه المسلسلات اللامتناهية.
وكل سلسلة من هذه لها قيمة متغيرة ، ذلك لأن عدد الحدود لا يتحدد ،
بينما الشروط التى تدخل فى اعتبارنا يلزم أن توجد (تبعا للمبدأ (١)
المذكور آنفا) — اذا وجد مجموعها الكلى بالفعل — فى كمية معدودة (٨٥).

(٨٥) ينسب «كنط» التناقض بين اللامتناهى فى صورة الشروط ، وبين
التحديد العددي المنطوى فى واقع هذه الشروط، الى الشكل المتناقض لتجربتنا. =

ذلكم هو لغز اللامتناهى المحيّر كما بسطه « كنط » . ويلاحظ القارىء غموضا معييا في بيانه . فحين يتحدث « كنط » عن « الكل المطلق للمركب » من الشروط ، فإن كلماته توحى بأن مجموعا مستكملا منها يجب أن يوجد ، أو قد وجد . وحين نسمع قوله « ان الكل المجموع منها يجب أن يعطى » فأننا نفسر هذا القول بأنه يعنى أنها يجب أن تعطى فى شكل كل مجموع . بينما كل ما تتطلبه الحالة المنطقية هو أنه لا واحد منها يفتقد . وذلك مطلب مختلف تمام الاختلاف ويمكن أن يتحقق فى نمو لا متناه لسلسلة محددة .

غموض بيان «كنط» عن المشكلة

ونفس الأشياء يمكن أن تؤخذ دائما اما مجموعة أو موزعة . ويمكن أن نتحدث عنها بقولنا : « جميع كذا » « كل من كذا » أو « أى من كذا » : فهذه العبارات كلها تصدق على ما يوجد فى عدد متناه . و « كل ما هنالك » يعطى فى الحالتين . ولكن الأشياء التى تظهر فى شكل سلاسل لا تنتهى

= وقد كان حله للغز بطريقته «المثالية» ، وهو من أشد لمسات فلسفته جمالا . فما دامت الشروط لا يمكن أن توجد فى شكل كمية شاملة ، فيلزم ألا توجد مستقلة ، بل أن توجد كظواهر فحسب ، أو من أجلنا . وعدم تحدد المقدار لا يتنافى مع مجرد الوجود كظواهر . والظواهر الحالية ، سواء أكانت خاضعة للشروط أو فارضة لها ، هى هنالك من أجلنا فى مقدار متناه . والصورة اللامتناهية لها تعنى فقط أننا يمكننا أن نباشر الإدراك الحسى والتصور أو التخيل أكثر وأكثر بصدها ، وهذا عالم لا نهاية له . وهى لاتعنى أن ما نباشر تمثيله على هذا النحو كان قائما من قبل بذاته منفصلا عن وقائع تمثيلنا . وعلى ذلك فالتجربة فى نظر المثالية تنقسم قسمين ، جزء هو الظواهر المعطاة وهو متناه ، وجزء يضع الشروط وهو لامتناه وغير معطى لنا . ولكن من الممكن فحسب أن يدخل التجربة فيما بعد . ويميز «كنط» هذا الجزء الثانى بأنه متروك جانباً (أو موضوع أماننا كمهمة علينا أدائها) *Aufgegeben* من الجزء الأول المعطى (وهو موجود من قبل)

يمكن أن تحدث عنها موزعة فقط ، اذا شئنا ألا نترك أحدا منها . فحين نقول : ان « أيا من » أو « كلا من » أو جميع شروط « كنط » يلزم تحققه ، فنحن نقف ثمتند على أرض صلبة ، حتى وان كانت الشروط تشكل سلسلة لا تنتهى ، مثلها مثل سلسلة الأعداد الكاملة التى نستطيع دائما أن نضيف إليها واحدا . ولكن اذا قلنا ان كل هذه الشروط يلزم أن تتحقق ، وتخيّلنا أن « كل » تعنى حاصدا حصدهناه وجمعناه ، ومثلناه بعدد ، قاننا لا نكون فقط قد تطلبنا مطلباً لا تدعو اليه الضرورة اطلاقاً بحسب منطق الحالة ، ولكننا نخلق ألغازاً مستعصية على الفهم ، ما كانت لتوجد لولا ذلك . ويتطلب هذا ، للتخلص من هذه الألغاز بدورها فروضا لا تقل عنفا عن فروض المثالية الكنطية .

حل « رينوقيه »

وفى مؤلفات « شارل رينوقيه » ، وهو أقوى فيلسوف فرنسى فى غضون النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، نجد مشكلة اللامتناهى تلعب مرة ثانية ، دوراً محورياً . فهو اذ يبدأ من مبدأ التحديد المحصى للواقع — مبدأ العدد كما يطلق عليه — ويقر بأن سلسلة الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ... الخ لا تقضى الى أى عدد لا متناه فى النهاية ، يستخلص « رينوقيه » من هذا ، حقائق مثل الموجودات الحاضرة ، والأحداث الماضية والأسباب ، وخطوات التغير ، وأجزاء المادة ، يلزم أن توجد فى كمية محصورة . وقد جعل هذا من «رينوقيه» فيلسوفا تعدديا متطرفا . يقول « رينوقيه » : ان من الأفضل التسليم بأن الوجود يمثل لنا فجأة ، وأن هنالك بدايات أولى وأعدادا مطلقة واقطاعات محددة ، وان انبهمت هذه على عقولنا ، هذا أفضل لنا من محاولة تعليل الطريقة الجرافية التى

تقع بها هذه الأشياء تعليلا عقليا بأن ندخل عليها شروطا مفسرة ، وقد تنطوي في كل حالة على التناقض الذاتى للأشياء ، المائل في كونها تظهر مجزأة وتستكمل ، مع أنها لا متناهية من حيث التأليف الشكلى لها .

هذا الحل يجسد الجودة

بهذه المبادئ يمكن « رينوفييه » أن يعتقد في حالات من الجودة المطلقة ، وفي البدايات غير المسبوقة بفكر وفي المواهب ، والصدفة ، والحرية ، وأفعال الانسان . ان الواقع ، في نظره ، تتداخل أجزاءه بعضها في بعض ، ويقصر عنها التفسير التصورى . ويجب في نهاية الأمر أن نسعى الى الحقيقة الواقعية قطعة قطعة ، لا أن نستنبطها الى الأبد من حقيقة واقعية أخرى . هذه النظرة التجريبية المتميزة من النظرة العقلية ، هي الفرض الذى تقدمه في نهاية الفصل الأخير من هذا الكتاب (٨٦) .

(٨٦) أظن أن «رينوفييه» وقع في أخطاء ، والرأى عندى أن طريقته الفلسفية وأدوات تفكيره اسكولاستيكية الى أقصى حد . ولكنه كان أحد أعظم الشخصيات الفلسفية . ولولا تأثير دفاعه المجيد عن التعددية تأثرا حاسما في لما تهيأ لى أبدا أن اتحرر من خرافة الواحدية التى نشأت فى كنفها . وباختصار لما كان لهذا الكتاب أن يكتب البتة . وهذا هو السبب فى أننى لشعورى بالشكر الذى لاحد له قد أهديت هذا الكتاب الى ذكر «رينوفييه» العظيمة . وأعمال « رينوفييه » تشكل قائمة بالغة الطول . ونجد فى كتابه «المذهب الشخصى» (١٩٠٣) عرضا فلسفيا لأحدث آرائه ، بينما الفصل الأخير من كتابه تخطيط لتصنيف المذاهب :

Esquisse d'une Classification des Systèmes

(وعنوانه «كيف توصلت الى هذه النتائج») هو ملخص للخطوات التى قطعها فى تناوله لمشكلة اللامتناهى . و « الاحاديث الأخيرة » Dernies Entretien التى أملاها وهو على فراش الموت فى سن الثامنة والثمانين هى وثيقة ذات تأثير بالغ ، كما لو كانت آتية من لسان «بلوطارخ» .

الفصل الحادى عشر

ابجدة والامتناهى

وجهة النظر الحسية (٨٧)

ان تناول كل من « كـنـط » و « رينوقيه » للامتناهى ، مثل دقيق للطريقة التى اعتاد الفلاسفة اتباعها دائما فى استخلاصهم 'لأمر الواقع من اعتبارات تصورية . فبتناولهما تكون الجدة حقيقة واقعة ، وكذلك يكون المضمون العقلى للتجربة (٨٨) . ولكن « كـنـط » و « رينوقيه » يستخلصان هذه الوقائع من الاستحالة المنطقية البحت التى تمنع قيام عدد لا متناه من الشروط يتم تكاملها . وقد يبدو هذا وصولا للحقيقة من أقصر الطرق (٨٩) ، ولكن اذا كان المنطق هنا سليما يحتمل أن يكون طريقا سديدا ، وبن أجل هذا الاحتمال يلزمنا أن نفحص الحالة بعناية متزايدة . واذ نشرع فى هذا الفحص فائنا نجد مباشرة أننا يلزم فى فئة الأشياء المشروطة بشروط لا متناهية العدد ، أن نميز فئتين فرعيتين على ما يلى :

(٨٧) لم يكن هذا الفصل فصلا مستقلا بذاته فى المخطوط . - الناشر .

(٨٨) أحيل القارئ لعرض المنالية على فصل تال (لم يكتب هذا الفاصل

المشار اليه بالمرّة - الناشر)

(٨٩) ليسمح لى القارئ أن أقول اننا أنفسنا نستنتج أن التغير الذى

يستكمل بخطوات لامتناهية فى العدد ، أمر غير مقبول . وهذه واقعة تستخلص بالكاد من اعتبارات تصورية ، وهى تستخلص فحسب أن ثمة فرضا تصوريا يختص بواقعة التغير لايعمل عملا مرضيا . وعلى ذلك فالمجال مفتوح لآى فرض آخر ، والفرض الذى نؤثره هو ببساطة الفرض الذى يعرض به ظاهر التجربة الحسية .

١ — أشياء تتصورها « قائمة » مثل المكان ، والزمان الماضى ،
والموجودات الكائنة .

٢ — أشياء تتصورها « نامية » مثل الحركة والتغير والفاعلية .

اللامتناهى فى صورة كائنات قائمة

ففى فئة الكائنات القائمة ، يلوح أنه لا صحة للاعتراض على التسليم فى
أن واحد بوجود واقعى ، وبكثرة عددية تتطلب اللامتناهى لوصفه . فإذا
كنا مثلا نتأمل النجوم ونفترض أن عددها لا متناه ، فإنا نحتاج فقط أن
نفترض أن ثمة لكل حد على حدة من المجموعة التى لا نهاية لها ١ ، ٢ ،
٣ ، ٤ ... ن نجمة مقابلة . فالأعداد التى تنمو الى ما لا نهاية يستحيل حينئذ
أن تجاوز عدد النجوم القائمة هنالك لاستقبالها . فكل عدد عندئذ يجد
نجمة تنتظره منذ الأزل لكى تعدّ به ، وهذا يصدق الى ما لا نهاية . فكل
نجمة فى الوجود انما تطابق كل عدد سيستخدم لعدّها . وما دام لا يجمع
الأعداد « كل » . فكذلك لا تحتاج النجوم لأى « كل » يجمعها . ولست
أدرى كيف أن وجود هذه النجمة أو تلك يختم على الفئة الكلية « نجم »
أن يكون عددها عددا معينا وليس سواه ، أو يتطلب أن يكون لها أى
عدد محدود . وما أقوله هنا على النجوم ينطبق على الأجزاء المكونة للمكان
وللمادة ولأجزاء الزمان الماضى (٩٠) .

(٩٠) قد يشكل الزمن الحاضر صعوبة للطلاب كما يشكل نفس الصعوبة
لأناس أكثر ثقافة . لقد تحدد فى اللحظة الحاضرة ، صفى حسابه ، وكون
«مقدرا» . ٠٠ بيد أن هذا المقدار يحصى فى اتجاهين ، وفى كليهما قد يظن المرء
أنه يمكن أن يقضى الى نفس النتيجة . فإذا أحصى المقدار الى أمام لانهى فى
الحاضر ، ثم اذا احصى الى خلف ، للزم ، كما يقال ، أن يصل الى نفس النهاية
فى الماضى . وعلى ذلك يلزم أن تكون له بداية ، وأن تكون كميته متناهية . =

تعريفه البرجماطي

وما دما نأخذ بمثل هذه الوقائع قطعة قطعة وتحدث عنها توزيعاً .
بقولنا « كل من كذا » أو « أى واحد من كذا » فإن وجودها في شكل
لا متناه لا يترتب عليه أية صعوبة منطقية . ولكن ثمة ميلا نفسانيا للقفز من
طريقة الكلام الموزعة الى الطريقة الجامعة ، ويولد ذلك نوعا من الاضطراب
والزنج العقلي اللذين تنجم عنهما المصاعب الجدلية . فترانا نقول : « لو كان
كل شرط هناك لكان الكل هنالك أيضا ، لأنه لا يمكن أن تكون هنالك
أجزاء لا تشكل كلا » . واذا أخذنا العبارة « الكل هنالك » على صحتها
كانت تعنى فحسب أنه : « ليس هنالك جزء واحد غائب » ، ولكنها في
أفواه معظم الناس تدس خلسة فكرة الكل المحصور التي لا علاقة لها
بالموضوع .

وثمة التباسات أخرى مماثلة . فقد تتساءل بلسان « لوك » : كيف
يمكن أن يشغل مقياس نام في الاحاطة بجرم قائم ؟ فالوجود القائم لا بد
بعد حين أن يستغرق كله بسلسلة أعداد نامية ، أى أنه لابد أن ينتهي أو أن
يكون متناهما في تحديده العددي . ولكن هذا يدس مرة أخرى في فكرة
الحد الحاصر . غير أن ما نقرض أنه قائم في الحالات — التي هي الآن
موضع النظر — ليس هو « مجموعا مأخوذا كله دفعة واحدة » بل هو
أنجم فرادى ، وذرات فرادى ، ولحظات ماضية فرادى ، وهكذا ، فإذا
أطلقنا على هذه الأجزاء ما يدل على أنها « مجموع متماسك » كان ذلك

= فنهاية العد الى أمام هي بداية العد الى خلف ، وهي وحدها البداية المنضمنة في
المنطق . ونهاية مجموعة لاثير على أى نحو السؤال عما اذا كانت هذه المجموعة
دون بداية أولا ، وينطبق هذا بالمثل على أجزاء الزمن ، وعلى التراجع المجرد الذي
تشكله الأرقام «السلبية» .

مصادرة منا على النقطة التي هي موضع البحث . ولكن يحتمل أن يكون السبب الحقيقي الذي من أجله نعترض على لامتناه قائم ، هو عين السبب الذي جعل « هيجل » يتحدث عنه باعتباره لا متناها « باطلا » . ان هذه المطاردة التي تجلب لنا الدوار والتي نحاول بها أن نتعقب في المكان مزيدا من مكان ، وفي الزمان الماضي مزيدا من زمان ماض ، وفي تقسيم الوجود الى أقسام مزيدا من أقسام فرعية ، تبدو مطاردة حمقاء حمقا لا تحده الحدود . فما هي الحاجة الى ذلك وما فائدته ؟ ليس ذلك لأن أية كمية من أى شيء أكبر من أن توجد اطلاقا ، بل لأن بعض الكميات أكبر بكثير من أن يحيط بها خيالنا ، بحيث نرغب فيها ، ولذلك فنحن نعود ثانية بشعور من الراحة الى شكل أو آخر من الفروض التي تزعم تناهي الوجود .

اللامتناهى النامى

فاذا انتقلنا الآن من أشكال الوجود الثابتة الى أشكاله النامية ، فانا نجد أنفسنا نواجه بصعوبات أخطر بكثير . فجدل كل من « زينون » و « كنت » يصدق ، حيثما كان محتوما — قبل أن نبلغ نهاية معلومة — أن نجتاز حدودا متعاقبة تعاقبا لا متناها بحكم التعريف ، وأن يكون اجتيازنا لتلك الحدود « متواليا » . وهذه هي الحالة في كل عملية تغير مهما صغرت ، وفي كل حادثة تتصورها باسطة نفسها بسطا مستمرا . فما هو مستمر لا بد أن يقبل التقسيم الى ما لا نهاية . ومن قسم الى قسم لا نستطيع هنا أن نستخدم الاضافة (أو ما يطلق عليه « كنت » التركيب المتعاقب للوحدات) ونصل الى حد أبعد . نعم يمكنك أن تعرف ما ينبغى أن يكون عليه الحد ، ولكنك لا تستطيع أن تدركه « بهذه العملية » . فكون « أخيل » ينبغى أن يشغل « على التعاقب » جميع النقط في بوصة .

مستمرة من المكان لتصور لا يمكن التسليم به ، كما لم يمكن التسليم بكونه يعد مجموعات الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ... الخ الى ما لا نهاية ويصل الى نهاية . فالحدود في هذا الترتيب لا تقبل الاحصاء ، والترتيب هو الذى يخلق المشكلة كلها . والتراجع اللامتناهى ، كالنظر الى الزمان من خلف . لا يفضى الى مثل هذا التناقض ، لأنه لا يأتى فى ذلك الترتيب . فنهايته هى ما تبدأ به ، والمزيد الذى يضيفه خيالنا على التعاقب الى ما لا نهاية ، انما يرسم فى تصورنا على أنه قد ظهر فى الوجود فعلا ، لا على أنه ما يزال متوقع الظهور قبل أن نبلغ غاية معينة . وحين نبدأ من النهاية فاننا لا ننتظر شيئا ، فاللامتناهى هنا هو تنوع ثابت . هو فى عبارة « كنت » الاستعارية اعطاء gegeben لا نبذ aufgegeben وعلى العكس فى الحالة الأخرى وهى حالة العملية المستمرة التى لا بد من عبورها ، اذ هى تكون عندئذ نبذ ، هى مهمة ، ليس فقط لخيالنا الفلسفى ، ولكن أيضا لأى انسان فعلى قد يحاول محاولة مادية أن يطوق الأمر بتمامه . فمثل هذا الشخص مضطر منطقيا أن يجد دائما باقيا ، شيئا متوقع الحدوث دائما ، مثل كشف الحساب على دين نحن مدينون به ، حين نكون عاجزين حتى عن دفع فوائده .

يجب اعتبار اللامتناهى النامى متقطعا (٩١)

Infirritum in actu pertransiri nequit

« ينشأ اللامتناهى من فعل الاستمرار » .

هكذا قال الاسكولاستيكيون ، وكل كم مستمر يجتاز تدريجا

(٩١) سيلاحظ القارئ كيف أننى فى كل هذه المناقشة ألج الحاحا شديدا على وجهة النظر الموزعة أو المجزأة . والتوزيع يعدل التعدد ، كما يعدل المجموع التصور الواحدى . وسندرك ، بوضوح أكثر ، كما أظن ، كلما تقدمنا فى قراءة الوقائع توجد على أى حال موزعة فقط أو فى شكل مجموعة من الأجزاء لاحتياج (حتى فى العدد اللامتناهى) بأى معنى معقول أن تدخل التجربة ، أو أن يدخلها التجربة أى شيء آخر ، كأعضاء لكل .

انما يقع في تصورنا موقع هذا اللامتناهى النامى . وقد يبدو أن أسرع طريقة لاجتناب التناقض هي التخلي عن ذلك التصور ، والكف عن النظر الى عمليات التغير الحقيقية على أنها مستمرة ، فننظر اليها على أنها تحدث بخطوات متناهية وليست بخطوات لا متناهية في الصغر ، مثلما تملأ يرميل الماء بقطرات متعاقبة عندما تسقط فيه هذه القطرات كاملة أو لا تسقط بالمرة . هذا هو الموقف التعددى التجريبي أو الحسى الأصيل . وهو الذى حددت طابعه عند حديثي عن « رينوفييه » ، وسينتهى بالأخذ به من حيث المبدأ ، بعد أن نحوره تحويرا يجعله ملائما للخبرة الحسية ملائمة وثيقة .

اعتراضات

ولا تلبث أن تتصدى لنا مدرسة من النقاد الذين يظنون أن ما يطلق عليه في الرياضيات « اللامتناهى الجديد » قد سحق المتناقضات القديمة ، وهم يعتبرون أى شخص ما برحت تشغله فكرة لا متناه كاسل على أية صورة ، شخصا ساذجا غاية السذاجة . ومع كونى ساذجا في الرياضيات يجب على ، بصرف النظر عن جفاف الموضوع ، أن أضيف كلمة للرد على هذا النقد وبعضه كما يردد ذلك المحدثون ، ينحو في اصرار نحو الالغاز .

متصل العدد

ان « اللامتناهى الجديد » و « متصل العدد » ينجمان عن محاولة عامة لانجاز ما أطلق عليه من قبل ، رد الكم بكل أنواعه الى حساب (وأقصد بالحساب هذا العدد) . فبعض الكميات (كدرجات الكثافة أو غيرها من ضروب الاختلاف ، كامتدادات المكان) افترض كونها — حتى الى عهد

قريب — معطيات مباشرة للادراك الحسى أو الحدس ، ولكن فلاسفة الرياضيين قد نجحوا الآن فى الوصول الى معادل تصورى لها فى شكل مجموعات من الأعداد ينجم بواسطة ادماج الواحد منها فى الآخر دون تحديد . ففى وسعنا أن نقسم قسمين أى خط فى المكان ، ونقسم أنصافه الى نصفين وهكذا . ولكن بين هذه التقسيمات التى قسمناها وعدناها على هذا النحو ثمة مكان متروك لتقسيمات أخرى لا متناهية ينجم عن استخدام الرقم « ٣ » كمقسم ، ولتقسيمات أخرى لا متناهية أيضا باستخدام ٥ ، ٧ .. الخ . الى أن تتحقق جميع أقساط الخط الممكنة عقليا . فقد ظهر الآن أن عبور الفجوات الكائنة بين الأقسام والتى عدناها بأعداد « غير محددة المقدار » ما برح ممكنا الى ما لا نهاية . وبهذا العبور الذى تسد به الفجوات بين الوحدات نحصل فى النهاية على خط متصل (ملئ) وبغير فجوات (. فاتصال الخط يترجم حينئذ الى هذه الأقسام المحدودة وعددها لا متناه . ومن الصيغة المشهورة ، وهى أن الاتصال « يعنى الوحدة فى الكثرة » الكثرة وحدها تدوم وتختفى الوحدة ^(٩٢) . كما تفعل فى جميع التفسيرات التصورية . وهكذا يصبح ادراكنا الحدسى الذى أدركنا به امتداد الخط بادىء ذى بدء ، يصبح من وجهة النظر الرياضية « خليطا مهوشا من فكر تركناه من غير تمحيص » كما يقول « رسل » ، أو يصبح « ضربا من جمود العقيدة الدينية » على حد التعبير الساخر الذى قاله « كاتتور » ^(٩٣) .

(٩٢) انظر ص ٣٠ من : « بوانكاريه » ، العلم والفرض :

H. Poincaré : La Science et l'Hypothèse

(٩٣) انظر ص ٢٦٠ ، ٢٨٧ من : « رسل » فلسفة الرياضيات :

B. Russel : The Philosophy of Mathematics .

اللامتناهى الجديد

حسبنا هذا عن « المتصل العددي » ، أما عن « اللامتناهى الجديد » فهو لا يعدو أن يكون تعريفاً جديداً للامتناهى . فإذا قارنا مجموعات الأعداد التى تنمو دون تحديد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ... ن فى جملتها بأى جزء مكون لها مثل الأعداد الزوجية والأولية والتربيعية ، فإننا نواجه تناقضاً . فليس ثمة جزء من أجزاء مجموعات العدد — كما يطلقون عليها — مساو للكل ، مأخوذاً فى مجموعه . ومع ذلك فأى واحد من هذه الأجزاء « نظير » للكل بمعنى أنك يمكنك أن تقيم علاقة واحد بواحد ، بين عناصر الكل من ناحية وعناصر الجزء من ناحية أخرى ، بحيث أن الجزء والكل يثبت كونهما متممين لما يطلق عليه المنطقة نفس « الفئة » من الناحية العددية . وعلى ذلك فبالرغم من كون الأعداد الزوجية والأعداد الأولية والأعداد التربيعية أقل بكثير وأندر من الأعداد عموماً . ولا تشكل جزءاً من الأعداد كلها ، فإنها تظهر متعادلة من حيث مقدارها عندما يكون المجال مجال عد . وحدود كل مجموعة جزئية من هذه المجموعات يمكن عدها باستخدام الأعداد الطبيعية الصحيحة على التعاقب . فهناك مثلاً عدد أولى أول ، وعدد أولى ثان ، وهكذا ... الى ما لا نهاية . وأغرب من ذلك أيضاً ، كل عدد صحيح فردى أو زوجى يمكن مضاعفته ، فيبدو أن الأعداد الزوجية المتساوية التى تنتج على هذا النحو ، لا يمكن أن تكون فى طبيعة الأشياء أقل كثرة من مجموعات الأعداد الفردية والزوجية معا التى تتألف منها المجموعة الطبيعية كلها .

اللامتناهى الجديد متناقض

هذه النتائج المتناقضة انما تنتج ، كما يتضح لنا على الفور ، من أن لا تنهى المسلسلات العددية هو من نوع اللامتناهى النامى . وهى

لا متناهيات طالما نظر إليها على أنها مؤدية بنا إلى نتائج متناقضة ، وذلك بسبب ما كان يظن عنها من أنها مسلسلات لا متناهية يقابلها حقيقة لا متناهية في الواقع الخارجى ، أعنى أنها يمكن تحويلها من كونها لا متناهيات نامية إلى صورة تجعلها لا متناهيات قائمة أو كائنة كلها دفعة واحدة (٩٤) . غير أن علماء الرياضة المعاصرين أمسكوا بالثور من قرنيه . فبدلاً من النظر إلى هذه الخصائص المتناقضة التى تميز المسلسلات النامية إلى غير حد معلوم بحيث تجعلها مؤدية بنا إلى نتائج متناقضة ، فقد نظروا إليها على ضوء التعريف الصحيح وهو كونها فئات لا متناهية من أشياء . وكل فئة يطلق عليها الآن لا متناهية إذا كانت أجزاءها مماثلة عددياً لذاتها . أما إذا كانت أجزاءها غير مماثلة لذاتها كانت متناهية . وإن هذا التعريف الآن ليفصل تصور فئة الموضوعات المتناهية عن فئة الموضوعات اللامتناهية .

الأعداد المابعد المتناهي

يلى ذلك أن بعض التصورات التى يطلق عليها : « أعداد ما بعد المتناهي » ، قد ابتدعها هذا التعريف ، فقد أريد لها بحكم هذا التعريف أن تكون متممة إلى فئة اللامتناهى ، بيد أنها لا تكون بإضافة واحد إلى واحد إلى ما لانهاية ، بل بالأخرى يسلم بها من البداية على أنها ناشئة بعد أن

(٩٤) إن كون الحدود فى سلسلة لا نهاية لامتدادها - سواء أخذناها فرادى أو أزواجا أزواجا - تناظر الحدود فى سلسلة أخرى (أعنى أن يكون بين المجموعتين «تشابه») لا يتعارض قط مع أن يكون بين المسلسلتين تفاوت بعيد فى عدد الحدود فى كل منهما ، وما عليك - عند مناظرة أحدهما بالآخرى - إلا أن تجعل الفواصل بين الحدود فى إحدى المسلسلتين أوسع منها فى الأخرى ، لكى تحصل على مجموعتين متشابهتين من حيث العدد وإن تفاوتتا تفاوتاً بعيداً فى عظم فحواهما ، أضف إلى ذلك أنه بمجرد وقوف إحدى المسلسلتين عن النمو ، فإن « التشابه » بينهما لا يعود له وجود .

نفرغ من تكويننا للأعداد كلها عددا عددا بمثل هذه الأضافة (٩٥) . ويظن
« كاتتور » عبارة « الحد الأسفل » على أدنى حد ممكن من هذه الأعداد
التي تجاوز المتناهي . وقد يكون « الحد الأسفل » مثلا عدد النقطة التي
يلحق عندها « أخيل » السلحفاة — على فرض أنه يلحق بها — باستنفاد
جميع النقط الوسيطة على التعاقب . أو يكون هذا الحد الأدنى عدد النجوم
في حالة عدم انتهاء عددها عند حد ، أو قد يكون أيضا عدد الأميال التي في
آخر امتدادها تلتقي الخطوط المتوازية — لو التقت . هو باختصار حد
لفئة الأعداد التي تنمو واحدا واحدا ، وهو مثل سائر الحدود ينهض بمثابة
قنطرة تصورية مفيدة تنتقل بنا من مجال الى مجال آخر من مجالات الحقيقة.

فوائدها وعيوبها

وأول هذه المجالات الذي تنتقل اليه بمعونة هذه النظرة التصورية هو
« متصل العدد » أو « متصل النقط » الذي وصفناه فيما سبق ، على أنه
متولد من اقسامات فرعية متكررة الى ما لا نهاية . وان سيرنا في هذه
التقسيمات الفرعية لهو من قبيل السير النامي الى ما لا نهاية . غير أن عدد

(٩٥) ان فئة الأعداد التي تأتي قبل أول حد نجاو به الأعداد المتناهية، لاشك
تكون مفهومًا محددًا ، على شرط أن ننظر الى الأعداد على أنها وحدات نحصرها
وحدة وحدة ، أو نشير الى أية وحدة منها ، فعندئذ سنجد أن كل وحدة منها
— وأية وحدة نختار — لا بد بحكم التعريف أن تأتي «قبل» أن يأتي العدد الذي
يجاوز حدود الأعداد المتناهية — على الرغم من أن هذه الأعداد لا تكون كلا واحدا
ولا يكون لها حد هو آخر حدودها ، وعلى الرغم من أن ما يجاوز الأعداد المتناهية
لا يكون له عدد سابق عليه مباشرة ، وباختصار فان ما يجاوز الأعداد المتناهية
ليس ذا ترتيب في تسلسل الأعداد ، أو على الأقل هو لا يكمل ترتيب بقيّة
الأعداد .

هذه الأقسام الفرعية التي يمكن الوصول إليها إنما يبدأ بالحد الأسفل من عدد ما بعد المتناهي على نحو ما تصورناه وعرفناه منذ قليل . هكذا يمكن المماثلة بين الكثرة النامية والكثرة القائمة ، وهكذا أيضا يسوى بين عدد متغير وعدد ثابت (بفضل عملية انتقال الى مجال الحد الأسفل) . ومن ثم فنحن نتلافى قانون الاضافة غير المتحدة ، أو التقسيم الذي كان من قبل الطريقة الوحيدة التي يصبح بها اللامتناهى بنائيا ، ويصل الى لامتناه مطرد عند حد هذا العدد اللامتناهى يمكن أن نستعيض به عن أى كم متناه متصل ، وإن كان الأخير قد يبدو للادراك الحسى صغيرا .

وحين تحدثت عن الألفاظ كان في ذهني من جانب الطريقة المزدرة التي يتبعها بعض المتحمسين « للامتناهى الجديد » في النظر الى أولئك الذين ما برحوا يميلون الى الخرافة القائلة بأن « الكل أكبر من الجزء » . وذلك لأن أية نقطة أيا كانت في بوصة متخيلة تتصور الآن على أنها منازرة لنقطة ما في ربع البوصة أو نصف البوصة . وهذا التناظر العددي للكميات المختلفة مأخوذة من حيث النقط المكونة لها يفسر كما لو كان يعنى أن أنصاف البوصة وأرباع البوصة والبوصة ، هى على أية حال ، متعادلة من الوجهة الرياضية ، والاختلافات بينها وقائع يمكن اهمالها علميا . وقد أسىء فهم أولئك الذين يذيعون من جديد « سفسطة » « زينون » المشهورة ، ولكن ما يقولونه يكاد يبدو لى معادلا لهذا .

حل «رسل» لنقائص «زينون»

و « برتراند رسل » ، (الذى لا أتهمه بالالغاز ، فالله يعلم أنه يحاول أن يجعل الأشياء واضحة) يعالج لغز « أخيل » كما لو كانت المشكلة تكمن فحسب في رؤية كيف أن الطريقتين اللذين يعبرهما المتسابقان (وهما الطريقتان اللذان يقاسان بعد اتمام السباق ، ويفترض حينئذ أنهما

لا يحتويان الا على مراحل انتقال تساوق نقط الخط الذى سارا عليه ، ثم هما يقاسان بمقياس زمنى واحد) يمكن أن يكون لهما نفس المقياس الزمنى اذا لم يكونا ذاتيهما من نفس الطول . ولكن الطريقتين يختلفان طولاً ، اذ بناء على مبادرة السلحفاة بالسبق ، فإن طريقها ان هو الا جزء من طريق « أخيل » . فكيف اذن ، اذا كانت لحظّات الزمن هى أداة القياس ، كيف لا يمكن للطريق الأطول أن يستغرق الزمن الأطول ؟ .

وعند « رسل » أن العلاج — اذا كنت قد أصبت فى فهمه — لا يستند فى شىء الى أن مجموعات النقط هذه تتصور على أنها عديدة عددا لامتناهيا فى كلا الطريقتين ، وحيثما كانت الكثرة لامتناهية يكون من الباطل القول بأن الكل أعظم من الجزء . ذلك لأن لكل نقطة عبرها السلحفاة نقطة تقابلها عبرها « أخيل » ، وكل من العبورين يقع فى لحظة زمنية مطابقة للحظة زمنية فى العبور الآخر . وهذا التطابق الدقيق ، نقطة ازاء نقطة ، لأى مجموعة من المجموعات الثلاث للنقط ، مع المجموعتين الأخريين ، يجعلها متناظرة ومتكافئة من حيث الكثرة من وجهة النظر العددية . وعلى ذلك فليس ثمة بقية متتابعة للمسافة التى سبقت بها السلحفاة «أخيل» منذ البداية ، لا يستطيع « أخيل » أن يتداركها ، ويستطيع أن يختصرها ، ولكنه لا يمكنه أبدا أن يقضى عليها . على أن قوائم الحساب الثلاثة تتلاقى عنده فى نهاية واحدة . فأخر نقطة فى طريق « أخيل » ، وآخر نقطة فى طريق السلحفاة ، وآخر لحظة زمنية فى السباق ، كلها حدود متساوقة من الوجهة الرياضية . بهذا — وهو ما يبدو أنه طريقة « رسل » فى تحليل الموقف — ظنّ « رسل » أن اللغز قد انحل (٩٦) .

(٩٦) ان العبارات التى بسط فيها مستر «رسل» هذا اللغز وطريقة حله هى =

نقد هذا الحل

ويلوح لى مع هذا أن أحكام « رسل » تروغ من المشكلة الحقيقية ،
التى هى مشكلة اللامتناهى عندما يكون ناميا ، وليست مشكلة اللامتناهى
عندما يكون قائما . هذا النوع الأخير هو كل ما قصده حين زعم أن السباق
قد أنجز ، وظن أن المشكلة الوحيدة الباقية هى التعادل العددي للطريقين .
ان الصعوبة الحقيقية تكاد أن تكون مادية لأنها تتصل بعملية تكوين
الطريقين . أضف الى ذلك أننا لسنا بحاجة الى طريقين . اذ افترضنا أن
يكون لكل متسابق طريقه الذى يستقل به ، بل أن يكون هناك فترة زمنية
لا يجرى فيها سباق ، هو افتراض تكمن فيه المشكلة التى مؤداها بلوغ
الهدف بينما أن ثمة فاصلا يتطلب قطعه أولا يظل دائما متصديا فى الطريق .
وليس هنالك شك فى أن نفس الكمية يمكن أن تنتج بطرائق متنوعة .
فهذه الصفحة التى أكتبها الآن بمشقة ، حرفا بعد حرف ستطبع دفعة
واحدة . والله ، كما يعتقد الأرثوذكس ، خلق المتصل المكانى بأجزائه
اللامتناهية القائمة من قبل ، بفعل لحظى . فالزمان الماضى قائم الآن فى
منظور لا متناه ، ويمكن تصوره قد خلق على هذه الصورة — كما تخيل
« كنط » دفعة واحدة . الا أنه لا يبدو فى ذلك المنظور الا للانسان حين
ينظر الى خلف . لقد خلق الحد الأسفل بعد أن تجاوز سلسلة الأعداد ،
بقانون واحد ، بفعل واحد من أفعال التعريف فى ذهن الأستاذ « كاتتور » .
ولكن كل من يستطيع أن يجتاز بالفعل متصلا ، فانما يستطيع ذلك لا عن
طريق السير المتصل بالمعنى الرياضى لهذه الكلمة . لكن سواء كان الطريق

= مسرفة فى الفنية حتى ليتعذر متابعتها حرفا بحرف فى كتاب كهذا ، فكما وجد
ألا مناص من شرحه للغز فى عبارة من عنده فانى كذلك أجد ألا مناص من شرح
عبارته فى عبارة من عندى ، آملا باخلاص ألا أحدث بذلك شيئا من الجور عليه .

قصيرا أو طويلا فلا بد للسائر فيه أن يجتاز كل نقطة منه في ترتيبها الذى تجيء به في تعاقب النقط . فإذا كانت تلك النقط بالضرورة لامتناهية كان بلوغ آخر نقطة منها محالا . ذلك لأن الباقي في مثل هذا السير ما لانستطيع أن نغض النظر عنه . فالتعداد هو ، باختصار ، المنهج الممكن الوحيد لشغل مجموعات المواقع المتضمنة في السباق المشهور . وحين يحل «رسل» اللغز كما فعل بقوله : « تعريف الكل والجزء دون تعداد هو مفتاح اللغز كله » (٩٧) يبدو لى أنه قد تخلى عامدا عن الأمر (٩٨) .

(٩٧) فلسفة الرياضة فقرة ١ ص ٣٦١ - يكمل مستر «رسل» «مفارقة» «أخيل» بمفارقة «ترسترام شاندى» (وهى شخصية فى قصة كتبها ستيرن) فلما كان «ترسترام شاندى» قد استغرق عامين يكتب تاريخ اليومين الأولين من حياته (وكانت خطته أن يكتب تاريخ كل يوم من حياته فى عام) فإن الإدراك السليم ليحكم بأنه لو سار على هذه النسبة لما استطاع أبدا أن يكتب تاريخ حياته ، لكن مستر «رسل» يبرهن على عكس ذلك ، لأنه بإدامت الأيام والأعوام ليس لها حد أخير ، ثم مادام اليوم الذى عدده الترتيبى هون سيكتب فى العام الذى عدده الترتيبى هون ، فإن كل يوم معين سيقابله عام يكتب فيه ، ولا يبقى يوم واحد بغير أن يدون تاريخه ، غير أن برهان مستر «رسل» يستحيل انطباقه على العالم الحقيقى بغير الفرض المادى الذى افترضه حين قال : «إذا عاش «ترسترام شاندى» الى الأبد ولم يمل من عمله» ففى كل الحالات الفعلية للتغير المستمر لابد من فرض غير معقول كهذا ، أى أنه لابد أن يعيش محدث التغير الى الأبد ، بمعنى أن يعيش بعد زوال مجموعة من اللحظات الزمنية ليس لها نهاية ، و «دون أن يمل» أداء مهمته التى يستحيل أداؤها .

(٩٨) لما كنت أوشك على العمى من الناحية الرياضية والناحية المنطقية فاننى لأحس بخجل عظيم حين أخالف مثل هذه العقول الممتازة ، ومع ذلك فماذا فى وسع المرء أن يصنع سوى أن يتبع ضوءه الخافت ؟ فما كتب عن اللامتناهى بمعناه الجديد فنى الى الحد الذى يستحيل معه أن تذكر تفصيلاته فى كتاب لرياضى كهذا الكتاب ، فمن يهمهم الأمر من الطلاب عليهم أن يراجعوا فهرس الموضوعات فى كتاب رسل «فلسفة الرياضة» وفى كتاب ل . كوتيراه «اللامتناهى الرياضى» أو فى كتابه «أسس الرياضة»، وعلى صرامة هذه الكتب =

نتائج

بعد هذه المجادلة المكروهة ، أخلص بأن الالامتناهى الجديد لم يعد يسد طريق الرأى التجريبي الذى وصلنا اليه مؤقتا من قبل . فعلى الرغم من أنه لا شأن للحقائق الواقعة التى تجيء ظروفها من النوع الذى وصفناه بأنه « قائم » (أعنى أنه غير نام) ، نجد أن نقد « لينيز » و « كسط » و « كوشى » و « رينوفييه » وغيرهم ، ينطبق انطباقا مشروعا على جميع حالات النمو أو التغير المتصل . اذ فى مثل هذه الحالة لا بد بالضرورة أن تكون « الظروف » من نوع المسلسلات المتابعة . واذا كانت المسلسلات التى تكونها لا نهاية لها فان حدثها — اذا كان « التأليف المتعاقب » هو الطريقة الوحيدة للوصول اليها — لا يمكن ببساطة أن نصل اليه . فاما أن يتختم علينا ، ثمثد أن نحتمل التناقض المنطقى فى هذه الحالات ، أو يجب علينا التسليم بأننا نبلغ الحد فى هذه الحالات المتعاقبة بطريق الوحدات المتناهية المحسوسة ، — كالقطرات ، والنبضات ، والخطوات ، أو ما يروق لنا من ألفاظ نطلقها عليها — وهى وحدات تغير تأتى جميعها

= فهناك ما هو أشد صرامة وهو العرض الذى عرض به أ.ف. هنتنجتون فى كتابه « المتصل من حيث هو نمط من الترتيب » وفى كتابه « قصص عن الرياضة » ج ٦ ، ٧ (أعاد طبعهما للبيع مكتب النشر بجامعة هارفارد) وراجع كذلك « تنسى . س . پيرس » فى بحثه المنشور فى مجلة مونست ، مجلد ٢ ص ٥٣٧ - ٥٤٦ ، وراجع محاضرة الافتتاح التى ألقاها ١٠ و٠ هوبسون وهى فى « محاضرات جمعية لندن للعلوم الرياضية » مجلد ٣٥ — فاذا أردت مناقشة للموضوع أيسر تناولا فارجع الى كتاب ج . رويس « العالم والفرد » ج ١ فى مقالاته الملحقه به ، والى كيزر فى « مجلة الفلسفة » الى مجلد (١) ص ٢٩ ، وفى « مجلة هبرت » مجلد ٧ ص ٣٨٠ - ٣٩٠ ، والى « واترتون » فى « محاضرات الجمعية الأرسطية » ١٩١٠ . والى « ليتن » فى « المجلة الفلسفية » ج ٨ ص ٤٩٧ ، وأخيرا الى فهرس كتب « ه . بوانكاريه » الثلاثة . التى ظهرت حديثا : « العلم والفرض » . باريس . =

حين تأتي ، أو لا تأتي بالمرة . تلكم كما يبدو طبيعة التجربة المحسوسة التي تتغير دائما بمقادير ملموسة أو تظل غير متغيرة . والطابع اللامتناهي الذي نجده فيها يتداخل بتصورنا الأخير في أن نكرر الى غير حد فعل التقسيم لمقدار ما . والوقائع لا تقاوم طريقة التناول التصوري الذي يترتب على ما أسلفنا ، ولكننا لسنا في حاجة الى الاعتقاد بأن هذه الطريقة من التناول تولد بالضرورة العملية التي بفضلها ظهرت الوقائع الى الوجود .

التحول التصوري للتجربة الحسية يجعل اللامتناهي مشكلة

والتناقض في النمو الرياضي المتصل ليس الا طريقة من تلك الطرق العديدة التي يجعلها تحويلنا التصوري للتجربة الحسية أقل فهما من قبل . فكون الوجود ينبغي مباشرة وبكميات متناهية ، أن ينضاف الى وجود آخر ، قد يكون هذا شيئا يفشل العقل المتبصر في فهمه ، ولكن أن يكون الوجود مثيلا لذلك الاتمام لسلسلة لا نهاية لها من الوحدات (مثل النقط) ، فلا أحد يتوقع أن ينجم ذلك فيما يحويه أى مقدار من الوجود (مثل المكان) . ذلك شيء لا يفشل عقلنا في فهمه فقط ، بل يجده متناقضا كذلك . فان الاستعاضة بالتعداد الحسابي عن الحدس يبدو حينئذ ، اذا أخذ به على أنه وصف للواقع ، نجاحا جزئيا . ومن الأفضل ، كما قال « رينوفييه » الأخذ بوقائع الادراك الحسى برغم انبهامها ، من الأخذ بتصورات تحمل في داخلها التناقض (٩٩) .

= و «قيمة العلم» (ترجمة مراجعة قام بها الى الانجليزية ج.ب. هالستد) نيويورك ١٩٠٧ ، و «العلم والمنهج» باريس ١٩٠٨ ، على أن أملا هجمة بالحياة ، هي الهجمة التي هاجم بها «ج.م. فولرتن» اللامتناهيات التي تكتمل بعمليات تأليفية متتابعة ، وذلك فى كتابه «نسق من ميتافيزيقا» فصل ١١ .

(٩٩) ان المتصل المؤلف من نقط ليوضح أجمل توضيح شكواى =

هذا التحول يترك مشكلة الجدة حيث كانت

حسبنا هذا عن مشكلة اللامتناهي ، وعن تفسير التغير المتصل ،
بالتعريف الجديد للامتناهي . ونحن نجد أن صورة الحقيقة الواقعية التي
تتغير بخطوات متناهية في العدد ومنفصلة ، تظل هذه الصورة مقبولة
للعقل ، ملائمة لخيالنا كما كان شأنها من قبل ، ولذلك بعد هذه الفصول
الجافة العقيمة ، نتناول من جديد موضوع بحثنا حيثما تركناه من قبل .

هل تنمو الحقيقة الواقعية بزيادات فيها جدة أو لا ؟ ان التباين بين

= من أن طريقة العقل في تناول الموضوع من شأنها أن تحول ماهو بطبيعته
سيال فتجعله سكونيا ومفكك الوحدات ، فالنقاط أو الخطوات التي تتألف منها
السيرة الواحدة المتصلة والتي يقبلها الإدراك الحسى على أنها هي المعطيات
الأولية من الوجود ، انما تقابل منطقيا «اللامتناهيات في الصغر» (أى أصغر
كميات تتألف منها فكرة أو تغير أو ما شابه ذلك) وهى ما قد تخلصت منه
الرياضة في أحدث ما وصلت اليه ، ولذلك يجد مستر « رسل » نفسه مضطرا
— مثله في ذلك مثل «زينون» — أن يصف الحركة بأنها وهمية ، ويقول : « ان
«فيرشتراس» بمحوه محوا تاما للامتناهيات في الصغر جميعا قد بين لنا آخر الأمر
أننا نعيش فى عالم لا متغير ، وأن السهم فى كل لحظة من لحظات انطلاقه هو فى
حقيقة أمره ساكن» (نفس المرجع ص ٣٤٧) «فعلينا أن نرفض رفضا تاما الفكرة
القائلة بوجود حالة من حالات الحركة» هكذا يقول فى موضع آخر ، وكذلك
يقول : «ان الحركة ما قوامها الا ملء أماكن مختلفة فى أزمنة مختلفة ...
وليس ثمة انتقال من مكان الى مكان ، وليس ثمة لحظة تالية ولا وضع مكانى تال،
ولا ما يسمى بالسرعة الا بمعنى عدد حقيقى يكون حدا أقصى لمجموعة معينة من
الحدود (ص ٤٧٣) وهكذا يصبح ما يسمى «بالتصل» الرياضى منفصلا مطلقا
بكل معنى مادى أو خبرى لهذه الكلمة ، وبهذا يلتقى الطرفان النقيضان ، وعلى
الرغم من أن رسل وزينون يتفقان فى انكار الحركة المدركة ادراكا حسيا ، فان
الوحدة الخالصة تحل محلها عند أحدهما ، على حين تحل الكثرة الخالصة محلها
عند الآخر ، ويجوز أن يكون انكار رسل للتغير الخ منصبا فقط على العالم
الرياضى ، وقد يكون من الاجحاف به أن نتهمه بأنه انما يكتب ميتافيزيقا فى
هذه الفقرات ، ولو أنه لا يحذرنا من أن الأمر ليس كذلك .

عدم الاتصال والاتصال يواجهنا الآن في شكل آخر . فالتعريف الرياضى للكمية المستمرة على أنها « بين أى عنصرين أو حدين ثمة حد آخر » تعارض مباشرة الفكرة الأقرب الى التجربة والادراك الحسى ، وهى أن أى شئ متصل حين تظهر أجزاؤه متجاورة ، متلاحقة مباشرة ، دون أن يكون ثمة شئ ما بينهما على الإطلاق .

وعلى ذلك فمميتنا تنصب على التفسير الحسى ، ولكن قبل أن نفرغ نهائيا لمناقشته ، ثمة مشكلة كلاسيكية من مشكلات الفلسفة من الأفضل أن نخرجها من طريقنا : تلك هى مشكلة العلية .

الفصل الثاني عشر

الجدّة والعليّة

وجهة النظر التصويرية

لو كانت الحقيقة الواقعية تتغير بخطوات متناهية محسوسة ، لظل دون جواب تساؤلنا : ما اذا كانت قطع هذا الواقع الصغيرة التي تأتي ، هي قطع جديدة جدّة كاملة . وليذكر القارئ الحالة التي كنا عليها في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، حيث رأينا أننا بوجه عام لم يكن في وسعنا أن نستخلص شيئا . ذلك أن ما نبحت عنه أو نجده يظل في نظر عقلنا مجرد كمّ مرضيّ طارئ ..

فهل نلتمس الحقيقة الواقعية قطعة قطعة كما تنضاف بذاتها ؟ أم يجب أن نلتمسها دفعة واحدة فحسب بأن نفترض كونها اما أزلية أو حدثت في لحظة تضمنت بالتبع سائر الزمان ؟

مبدأ العليّة

« هل أول صباح في الخلق كتب ما سيقروّه آخر فجر في القدر أم لا ؟ » . بهذا السؤال وغيره تواجه كل من الواحدية والتعددية الواحدة منها الأخرى . والعقبة الكلاسيكية في وجه التعددية كانت دائما ما يعرف باسم « مبدأ العليّة » . فقد فهم هذا المبدأ على أنه يعني أولا أن العلول يوجد

(١٠٠) عنوان هذا الفصل في مخطوط المؤلف - « مشكلة فرعية ثانية - العلة والمعلول » - الناشر .

من قبل على نحو ما في العلة . فاذا كان الأمر كذلك لا يمكن أن يكون المعلول جديدا على الاطلاق ، ولا يمكن للتعددية أن تكون صادقة بالمعنى الأصيل : ولذلك وجب علينا أن نراجع حقائق العلية . فلنستعرض اذن حقائق العلية ، وسأتناول تلك الحقائق في شكلها التصوري قبل أن ننظر اليها في شكل ادراك حسي . وقد قام أرسطو^(١٠١) بأول بحث محدد في العلل .

دراسة أرسطو للعية

يقول أرسطو ان سبب أى شىء يتمثل في أربعة مبادئ : علته المادية : (فالبرونز هو العلة المادية للتمثال) ؛ علته الصورية : (كنسبة الاثنين الى الواحد تشكل وحدة موسيقية) ؛ والعلة الفاعلية (فالأب هو العلة الفاعلية للابن) ؛ والعلة الغائية : (فالصحة هي العلة الغائية للتمرينات البدنية) . وقد أخذت الفلسفة المسيحية بالعلل الأربعة ، ولكن ما يعنيه الانسان عامة بعلته شىء من الأشياء هو علته الفاعلية . وفيما يلى سأتحدث عن هذه العلة فقط :

الاسكولاستيكية والعلة الفاعلية

تعرف العلة الفاعلية بالطريقة الاسكولاستيكية على النحو الآتى :
« هي العلة التى تولد شيئا آخر بنشاط حقيقى يصدر منها » .

هذه ، دون منازع ، هي وجهة نظر الحس المشترك ، والاسكولاستيكية ليست الا حسا مشتركا نما نموا متميزا تمام التميز . وبصرف النظر عن

(١٠١) الكتاب الثانى والكتاب الخامس ، الفصل الثانى ، من كتاب الطبيعة لأرسطو يزودانا بما هو جوهرى فى آرائه .

الأنواع العديدة للعلّة الفاعلية التي تعينها الفلسفة الاسكولاستيكية ؛
ما حصى ثلاثة مبادئ فرعية هامة ، يفترض كونها مندرجة من التعريف
السابق على ما يلي :

١ — ليس ثمة معلول يمكن أن يأتي الى الوجود دون علّة . ويمكن
أن يؤخذ بهذا أخذا حرفيا ، ولكن اذا تجنبنا كلمة معلول ، فيمكن أن
تؤخذ بمعنى ألا شيء يمكن أن يحدث من غير علّة ، وهذا هو مبدأ العلّة
المشهور ؛ وهذا المبدأ حين ينضاف الى المبدأين الآخرين يفترض كونه
أساسا لكتلة العالم ، ويجعل فرض التعدد متناقضا .

٢ — المعلول متناسب دائما مع العلّة والعلّة مع المعلول .

٣ — ما يكون في المعلول يجب بطريقة ما أن يكون في العلّة ، سواء
أكان ذلك صوريا أو على التقريب أو رفعة شأن («فصوريا» هنا تعنى أن
العلّة تشبه المعلول ، كما عندما تسبب حركة حركة أخرى ؛ وعلى التقريب
تعنى أن العلّة تتضمن على نحو ما المعلول ، مثلما عندما ينشئ فنان ما
تمثالا ، ولكن هو نفسه لا يملك جماله ؛ ورفعة شأن تعنى أن العلّة وان
كانت لا تشبه المعلول ، فهي أعلى منه في الكمال ، كما عندما يتغلب
إنسان على قوة الأسد ، بقدر أكبر من الدهاء) .

و « فاقد الشيء لا يعطيه Nemo dat quod non habet هو المبدأ
الذى تنبع منه الفلسفة العلّية . والقضية « العلّة تساوى المعلول Causa
aequat effectum تلخص ، عمليا ، جملة هذه الفلسفة (١٠٢) .

(١٠٢) من أجل بيان دقيق عن مذهب مدرسة العلّية ، طالع
عرض « ريكبي J. Ricby » في كتابه : الميتافيزيقا العامة - الكتاب
الثاني ، الفصل الثالث . ولقد أغفلت في صلب كتابي هذا ذكر عدد من التعاليم =

وواضح أن كل لحظة من لحظات العالم ، يجب أن تحتوى على جميع علل المعلولات التى تشملها اللحظة التالية ، أو ، اذا وضعنا الأمر بغاية الدقة — من اليين أن كل لحظة فى جملتها تسبب اللحظة التالية (١٠٣) . ولكن اذا كانت القاعدة تؤيد : أن كل ما يكون فى المعلول يجب أن يكون أولا ، على نحو ما ، فى العلة *quidquid est effecta debet esse prius rliquo* ترتب على ذلك أن اللحظة التالية لا يمكن أن تحتوى شيئا طريفا على الحقيقة ؛ وأن الابتكار الذى يبدو منبثا فى حياتنا انبثاا لا ينقطع ، لابد أن يكون وهما معزوا لضحولة وجهة النظر الحسية .

وقد احترمت الاسكولاستيكية دائما الحس المشترك ، وفى هذه الحالة ثفلت من الانكار الصريح لكل ابتكار حقيقى بالكيفية الغامضة على نحو ما *aliquo modo* ويتيح هذا للمعلول أن يختلف أيضا ، على نحو ما *aliquo modo* عن علته . ولكن الضرورات التصورية قد حكمت الأمر ، واتته كالمعتاد الى شل الطبيعة والادراك الحسى . فالعلة والمعلول هما تصوران منفصلان عدديا . بيد أن الأولى يجب أن تولد الثانى بطريقة ما لا يمكن استكناهما . فكيف تفعل العلة ذلك عقليا اللهم الا اذا كانت

= الثانوية التى لعبت دورا كبيرا فى الفلسفة العلية ، مثل : « علة علة هى علة معلولاتها » — « نفس العلة تنتج نفس المعلولات » « تعمل العلة حين تكون حاضرة فحسب » — « يجب أن توجد العلة قبل أن تعمل » — الخ . . .

(١٠٣) تنجم هذه الفكرة أيضا من اعتبار الملابس الشارطة قائمة فى القاعدة ، بحيث تكون لازمة لزوم العلة لانتاج المعلولات : « ان العلة ، مفسرة تفسيرا فلسفيا ، هى الملخص الشامل لجميع الشروط الايجابية والسلبية . » هكذا يقول چون ستيوارت مل . ويعدل هذا الحالة الشاملة للعالم فى اللحظة التى تسبق حدوث المعلول . ولكن ليس المعلول فى تلك الحالة هو الحادثة الجزئية التى يستخلصها انتباهنا من البداية تحت ذلك الاسم ، انما هى تلك الجزئية ، معا مع ما يقارنها — أو بعبارة أخرى هى الحالة الشاملة للعالم فى اللحظة التالية المرغوبة .

تخفى الثانى فى ذاتها من قبل ؟ ومع أن العلة والمعلول هما اثنان من الوجهة العددية فهما من ناحية التكوين واحد رغم المظاهر الحسية . وتغير العلية ، على ذلك ، من علاقة محسوسة مجربة بين الأشياء المختلفة الى علاقة واحدة بين المتماثلات ، يظن من الناحية التجريدية أنها أكثر حقيقة^(١٠٤) .

الاتفاقية

وقد اقتضى قهر التصور للادراك الحسى زمنا طويلا لكى يكتمل فى هذا الميدان . فالخطوة الأولى كانت نظرية « الاتفاقية » التى خط « ديكارت » الطريق اليها بنظريته فى الجوهر العقلى والجوهر المادى . فالأول يتألف من الفكر البحت والثانى من الامتداد الخالص ؛ وهما مختلفان اختلافا مطلقا . فاذا كان الأمر كذلك فإن أية علاقة عليه ندركها ادراكا غريزيا بين الذهن والبدن ، تتوقف عن كونها علاقة عقلية . و « الله » فى نظر مفكرى ذاك العصر هو المذيب العظيم للمتناقضات . ففى وسعه أن يتغلب على كل تناقض ؛ وتبعا لذلك أنكر تلاميذ « ديكارت » « رچى » و « كوردموا » وبخاصة « چيلنكس » التفاعل النفسانى انكارا كليا ، ففى

(١٠٤) يعبر سير «وليم هاملتون» عن هذا تعبيرا محكما فيقول : « ماهو قانون العلية ؟ هو ببساطة مايل : عندما يمثل موضوع كظاهرة تبدا ، فلا يسعنا الا أن نفترض أن الوجود المكمل (أعنى المقدار) الذى يحتويه الآن كان موجودا من قبل – بعبارة أخرى ان كل ما نعرفه الآن كمعلول يلزم أن يكون موجودا من قبل فى علله ، وان لم يكن فى مقدورنا حتى أن نتخيل ما عسى أن تكون هذه العلل (نهاية المحاضرة ٣٩ من كتابه عن الميتافيزيقا) . فالعلة تغدو سببا والمعلول نتيجة ، ومادامت النتيجة المنطقية تنجم فحسب من المثل الى المثل ، فقد تطورت الفلسفة القديمة للعية الى عقيدة عقلية قاطعة ، وهى أن العلة والمعلول اسمان لموجود واحد ثابت ، وأنه اذا كانت اللحظات المتعاقبة للعالم مرتبطة ارتباطا عليا ، فليس ثمة ابتكار حقيقى مناسب فيها .

نظرهم أن « الله » يسبب تسبباً مباشراً التغيرات في ذهننا ، وهى التى تنجم عنها أحداث فى بدننا ، والتغيرات فى بدننا التى تنجم عنها أحداث فى ذهننا . ويبدو أن هذه التغيرات هى العلل ، ولكنها فى الواقع لا تعدو كونها علامات أو اتفاقات .

لينز

ويخطو « لينز » الخطوة التالية الى أمام ، حين ينكر أن تكون ادراكاتنا الحسية حقيقية . وقد حرر « لينز » الله من واجب اسداء عونه ساعة بعد أخرى ؛ وذلك بافتراض أن الله قد شرع فى يوم الخلق أن تساوق التغيرات فى أذهاننا التغيرات فى أبداننا ، بنفس الطريقة التى تحافظ بها الساعات ، التى ملئت فى نفس اليوم ، على دقة الوقت . وبهذا التناغم المقدور ، كما يطلقون عليه ، نجد أن الترجمة التصورية للمعطى المباشر ، ترجمة كاملة . ويترب على ذلك ، دون تخلف ، انكار النشاط والاستمرار معا . فبدلاً من ذلك التيار الدرامى للحياة الشخصية هنالك محض تطابق بين الواحد والآخر ، من حداثى مجموعتين من العلل لا ارتباط بينهما . فالله هو العلة الوحيدة لأى شئ ، وهو علة كل شئ فى آن واحد . والنظرية هنا واحدة بقدر ما ترغب النزعة العقلية ، والابتكار — اذا كان حقيقياً — مستحيل بالطبع .

هيوم

وقد خطا « هيوم » الخطوة التالية فى فضح العلية المتعارف عليها بالحس المشترك . ففى فصوله عن « فكرة الرابطة الضرورية » فى كتابه « رسالة فى الطبيعة البشرية » و « مقالاته » على حد سواء ؛ كان

« هيوم » يبحث عن صورة وضعية لفعالية القوة التى يفترض أنها ناجمة عن العلل ، وفشل فى ذلك . وقد أبان « هيوم » أننا لا نستطيع أن نستخلص أو نزل الطاقة التى تنتقل من العلل الى المعلولات سواء فى العالم المادى أو العالم العقلى . ويصدق هذا على الإدراك الحسى صدقه على الخيال . « أن جميع الأفكار مستمدة من انطباعات ومثلة لها . وليس لدينا ألبتة أى انطباع يحتوى على قوة أو فعالية ، ومن ثم فليس لدينا أبداً أية فكرة عن القوة » . و « ليس فى وسعنا ألبتة ، بغاية ما نستطيع من بحث أن نكتشف شيئاً ما ، اللهم الا حادثة واحدة تعقب حادثة أخرى ، دون أن يكون فى مقدورنا معرفة أية قوة أو طاقة ، تعمل بها العلة ، أو أى ارتباط بين العلة وبين معلولها المفترض ... ويلوح أن النتيجة الضرورية لهذا أننا ليس لدينا فكرة عن الارتباط أو الطاقة بالمرّة ، وأن هذه الكلمات ليس لها على الإطلاق أى معنى حين تستخدم فى الاستدلالات الفلسفية أو فى الحياة العامة » . « وليس ثمة أوضح من أن الذهن لا يستطيع أن يشكل فكرة موضوعين بحيث تتصور فيها ارتباطاتهما أو نفهم بتميز الطاقة أو الفاعلية التى يتحدان بها » .

ويضى « هيوم » ليبين أن فكرة الارتباط المزعومة التى لدينا ليست إلا تفسيراً سيئاً للعادة العقلية . فعندما تتمرّس أحياناً كثيرة بنفس تتابع الأحداث « تحملنا العادة عند ظهور الحادث الأول الى توقع ما يقترب به عادة ، والى الاعتقاد فى أنه سيحدث ... هذا الانتقال المعتاد للخيال هو الشعور أو الانطباع ، الذى تشكل منه فكرة القوة أو الرابطة الضرورية . وليس ثمة ما هو أكثر من ذلك فى هذه الحالة . « فالعلة هى موضوع متقدم ومقترن بموضوع آخر ، ومن ثم فهو متحد به بحيث أن فكرة أحدهما تحدد فكرة الآخر » .

ولا يمكن أن يكون هنالك ما هو في جوهره أشد تعددية من عناصر
فلسفة « هيوم » . فهو يجعل الأحداث يقرع بعضها البعض الآخر كما
لو كانت زهر نرد في صندوق . وكان في وسع « هيوم » ، لو ثابر ، أن
يعتقد بابتكارات حقيقية ، ويسلم بالارادة الحرة . ولكنني ، ذكرت من
قبل ، أن التجريبيين كانوا فاترى الهمة ، وربما كان « هيوم » في هذا
أشدهم فتورا في همته . ففي مقاله عن « الحرية والضرورة » ، يصر على
أن المتتاليات التي تترس بها ، وان كانت تمضى بين أحداث منفصلة اطلاقا،
فهي مع ذلك متسقة تماما ، وليس ثمة شيء جديد بالمرّة ينبثق من حياتنا .

نقد « هيوم »

وسيميز القارئ في صفحات « هيوم » المشهورة مثلا حيا للطريقة التي
تعامل بها الترجمات التصورية الواقع معاملة سيئة دائما . ان العلية من
الزاوية الادراكية أو الحسية (كما سنوضح ذلك تفصيلا فيما بعد) تعنى
الطريقة التي تدخل بها بعض ميادين الشعور ميادين أخرى . والعلية ليست
الا شكلا من الأشكال التي تظهر فيها التجربة كتيار مستمر . والأسماء
التي نطلقها تبين الى أى حد ننجح في التميز في صميم التيار . ولكن
القاعدة التصورية هي افتراض أنه حيثما كان هناك اسم منفصل وجب أن
تكون هناك واقعة منفصلة . واذا اتبع « هيوم » هذه القاعدة ، واذا لم
يجد واقعة مطابقة لكلمة « قوة » فقد انتهى الى أن الكلمة لا معنى لها .
وطبقا لهذه القاعدة فكل حرف عطف أو جر في اللغة الانسانية لا معنى
له — في ، على ، عن ، مع ، لكن ، و ، لو ، لا معنى لها ؛ مثلها مثل : من
أجل ، بسبب .. والحقيقة أنه لا عناصر الواقع ولا معانى كلماتنا منفصلة
انفصال الكلمات فالشكل الأصلي الذي يأتى فيه الواقع هو التيار الحسى

الذى يشتمل فى آن واحد على الحدود والعلاقات ، منفك بعضها عن البعض الآخر أو مندمجة وملتصقة . ويجدد تفكيرنا جوانب متعددة ، كما يحدّد الانسان ، بالنظر من خلال منظار انتباهه على جزء بعد آخر فى دائرة منظورة . ولكن ليس التجريد هو العزل ، وهو لا يهشم الواقع ، كما أن المنظار لا يحطم دائرة المنظور . ان التصورات هى ملاحظات ، نظرات مأخوذة عن الواقع^(١٠٥) ، وليست أجزاء من الواقع ، كما أن قوالب الطوب أجزاء من منزل . وباختصار ، يمكن للنشاط العلى أن يلعب دوره فى نمو الواقع ، وان لم يكن ثمة انطباع اسمى عنه يقف بذاته . وزعم « هيوم » أن أى عنصر من عناصر الواقع يلزم أن يكون منفصلا يفضى الى رايه البعيد عن الصواب ، وهو أن أية علاقة لا يمكن أن تكون حقيقية . يقول « هيوم » : « ان جميع الأحداث تلوح مفككة تماما ، منفصلا بعضها عن البعض الآخر . فحادثة تتبع الأخرى ، ولكننا لا يمكننا ألبتة أن نلاحظ أية رابطة بينهما . وهى تبدو مقترنة ولكنها لا تبدو أبدا مرتبطة » . وباختصار ، ليس ثمة شىء ينتمى الى شىء آخر ، وبذلك يسحق المنهج العقلى الادراك الحسى وينتصر على الحياة .

ولقد اعتنق « كنط » وأخلافه جميعا رأى « هيوم » فى أن المعطى المباشر هو تعدد لا ارتباط فيه . ولكنهم لعدم رغبتهم فى قبول التعدد ببساطة ، كما فعل « هيوم » ، توسلوا بعميل أعلى ، فى صورة ما أطلق عليه « كنط » « الأنا المتسامى للادراك » ، لرتق أجزائه معا بالمقولات التأليفية . ويسجل « كنط » مقولة العلية بين هذه المقولات ؛ وفى كثير من النواحي ، يعتبر « كنط » مصلحا للدمار الذى تركه « هيوم » .

(١٠٥) هذه تعبيرات « برجسون » .

والفصل الذى عقده « كَنت » على العلة^(١٠٦) هو أشد أجزاء كتابه المشهور « النقد » غموضا واضطرابا ؛ ومن الشاق فى أغلب الأحيان ادراك معناه . وحسبنا فهمت من نصه ، يترك « كَنت » الأشياء حيث تركها « هيوم » ، اللهم الا حيثما يقول « هيوم » عادة يقول « كَنت » قاعدة . وكل من « كَنت » و « هيوم » يلغى فكرة أن الظواهر التى نسميها ظواهر عليّة تخرج منها قوة ما . وبعبارة أخرى ، يناقض « كَنت » الحس المشترك مثلما فعل « هيوم » ، ومثل « هيوم » يترجم العليّة الى محض تعاقب زمنى . ونقطة الخلاف بينهما هى أنه بينما سياق الزمن عند « هيوم » مفكك فى جوهره ويتسق فحسب اتساقا ذاتيا ، نجد أن « كَنت » يدعو سياق الزمن « موضوعيا » من حيث أنه يتبع قانونا يتلقاه الادراك الحسى من العقل . فالنتائج غير العليّة يمكن قلبها رأسا على عقب ، بينما النتائج العليّة وحدها تتبع القاعدة فى توافق^(١٠٧) . وكلمة العقل Verstand

(١٠٦) عنوانه « التمثيل الثانى للتجربة » ، ويبدأ فى صفحة ٢٣٢ من الطبعة الثانية لكتاب « كَنت » : نقد العقل النظرى الخالص .

(١٠٧) فكرة « كَنت » الشاملة عن « قاعدة » فكرة غير متسقة فى نظرى ، فماذا أو من تربطه القاعدة ؟ اذا كانت القاعدة تربط الظاهرة التى تنجم (المعلول) ، فاننا نقع ثانية فى النظرة الشعبوية الدينامية ، وكل حالة واحدة يمكن أن تعرض لنا فعلا عليا ، حتى وان لم يكن فى العالم أية حالات أخرى ، أو أنها تربط الملاحظ للحالة الواحدة . ولكن احساساته الخاصة للتعاقب هى التى تربطه . فالتعاقب ، سواء كان عليا أو غير على ، اذا كان محسوسا فان المرء لا يستطيع أن يعيله الى الخلف كما نفعل بأفكاره . الا أن القاعدة تربط التعاقبات المستقبلية ، وتهيئها لكى تتبع نفس النسق الملاحظ فى التعاقب الأول ؟ ولكن لما كان من الواضح أنها لا تفعل ذلك حين يحكم الملاحظ خطأ أن التعاقب الأول تعاقب على ، فان كل

في كلام « كنت » يجب ألا تؤخذ كما لو كانت القاعدة المفترض كونها موضوعة للاحساس تجعلنا نفهم الأشياء فهما أفضل ، وانما هي قاعدة خام لتتابع لا يكشف عن أية رابطة . وعدم معقولة مثل هذه المقولة يتركها غير ذات قيمة لأغراض البصيرة . فانها تنحى جانبا العلية الحركية ، ولا تستعيز عنها بأي تفسير للتتابعات الموجودة . انها تحمل فحسب أوصافا خارجية وتسوى جميع الحالات بالحالات التي لا تكتشف فيها أى سبب للقانون المؤكد .

الوضعية

ان « قوانين الطبيعة » التي لدينا هي بالفعل مجرد احصاء لتساوقات وتعاقبات . فالصفرة والقابلية للطرق تتساوقان في الذهب ، والحرمة تعقب غليان الجنبرى ، والتجمد يعقب غلى البيض ، وعلى من يسأل عن هذه الاتساقات يجيب العلم : ريثا ! ان القوانين لا تلبث أن تغدو قادرة على التنبؤ . وكثير من الكتاب في العلم يذكرون لنا أن هذا هو كل ما يمكننا أن نطمع فيه . وشرح الأمر بطريقة التفكير التي يطلقون عليها الطريقة الوضعية ، هو فحسب الاستعاضة بقوانين أوسع مجالا وأكثر الفا ، عن قوانين أضيق مجالا وأقل الفا . والقوانين في أوسع نطاق لها تعبر فقط عن اتساقات توجد تجريبيا . لِمَ ترفع المضخة الماء ؟ ذلك لأن الهواء يضغط عليها في اسطواناتها ! ولِمَ يضغط الهواء ؟ ذلك لأن الأرض تجذب كل شئ . وهذا الجذب لا يعدو في نهاية الأمر أن يكون واقعة أكثر شمولاً .

= ما يستطيع قوله انها قاعدة ، حيثما كانت توقعاته عن الانسان تتبع أحكامه العلية ، سواء أكانت هذه الأحكام صادقة أو كاذبة . ولكن أين يختلف هذا عن الموقف الانساني ؟ ان « كنت » باختصار ، يتخبط ، ولا يستطيع المرء بأي معنى صحيح أن يعود الى القول بأن « كنت » قد دحض « هيوم » .

والتواين بمقتضى وجهة نظر الوضعيين ، تعمّم فقط الوقائع ، وهى لا تربط بينها بأى معنى عميق (١٠٨) .

النظرية الاستنباطية فى العلية

وفى مواجهة هذه الطريقة الاستقرائية الخالصة فى النظر الى التابع العلى ، ثمة تفسير أقرب الى الاستنباط العقلى ، وجد أخيرا أنصارا كثيرين . فاذا كان آخر طرف فى التعاقب يمكن أن يستنبط بالمنطق من أول عضو فى تال خاص ، فان « الرابطة » لا تخفى . ولكن الروابط المنطقية تحملنا فقط من متماثلات الى متماثلات : وعلى ذلك فالمرحلة الأخيرة للمنهج العلمى هى فى قاع المبدأ الأسكولاستيكي : « العلة تساوى المعلول » ؛ وقد وضع فى بؤرة أدق وصور تصويرا محسوسا . وهذا المبدأ واحدى تماما فى أهدافه ، واذا استخدم تفصيلا ، فانه سيحول العالم الواقعى الى عملية من الهوية الأبدية ، ندرك مظاهرها ادراكا حسيا ، تحدث كنوع من الاتاج بالتبع لا نعلق عليه أهمية علمية ما (١٠٩) . وفى أية حالة ، ليس

(١٠٨) يستطيع الطالب أن يرجع لتعبيرات عن هذه النظرة فى :

J.S. Mill : System of Logic, B. 3, chap. xii.

W.S. Jevons : Principles of Science, B. 6.

J. Venn : Empirical Logic, chap. xxi.

K. Pearson : Grammar of Science, chap. III.

(١٠٩) يقول «كوتورا» M.Coarurat ونحن نسوق هنا تعبيرا ميسورا عن هذا الضرب من التفكير : «الوعى ، اذا شئنا الدقة ، هو ميدان اللاواقعى ... وما يبقى فى وعينا الذاتى بعد أن مرت كل الوقائع وشغلت زمانا ومكانا ، هو سقط المتاع من بناء العالم ، هو كتلة لاشكل لها من صور عجزت عن الدخول فى نسق الطبيعة ، وارتدت ثياب الحقيقة» . Revue de Métaphysique etc, v, 244 .

ثمة نمو واقعي ، ولا ابتكار حقيقي يدخل في الحياة (١١٠) .

(١١٠) نتجنب هنا تضخيم هذا التصور للعلّة والمعلول . ويمكن مع ذلك شرح عدد ضخم من الوقائع العلية شرحا شافيا بافتراض أن المعلول هو فحسب آخر وضع من أوضاع العلة . أما المتبقى فيمكن أن نلجأ فيه إلى التفسير التقريبي الذي أراحنا في الماضي . مثل هذا التفسير للطبيعة يمكن بالطبع أن يلقي بالتنوع والنشاط والابتكار في سجن الأوهام ، بأسرع وقت ممكن بقدر نجاحه في أن يجعل تصورات الثابتة تخفي الوقائع الحية . ومع ذلك فمن الصعب أن نكون مخلصين في اتباع المنهج التصوري اتباعا جائرا . أما عن الكتاب الذين يظنون أن العلية في العلم يجب أن تعني الهوية ، ويقر البعض منهم بأن مثل هذا التفسير لا يخلو من قدر كبير أو صغير من الاصطناع . وإن الجزئيات والذرات المتماثلة هي مثل الأبطال والبارادات المتماثلة ، بمثابة مشاجب في التنظيم التصوري ، يعلق عليها المدركات الحسية تجمع بين كل منها والآخر علاقات بحيث يتنبأ بالواقع بطرائق متناسقة أو رشيقة .

تلكم هي النظرة إلى العالم التصوري الذي ألحنا عليها في مناقشتنا ، وليس ثمة ضرر في أخذ المنطق العلمي على هذا النحو . ولا يكاد أحد يغالي في استخدام المنطق العلمي استخداما ميتافيزيقيا . ويمكن للقراء الراغبين في مناقشة أوسع لوجهة النظر الواحدة في العلة أن يرجعوا إلى :

G.H. Lewes : Problems of Life and Mind

المشكلة الخامسة - الفصل الثالث

A. Fiehl : Der Philosophische Kriticismus (1879).

2 ter Absn., Kap. 2

G. Heymans : Die Gesetze u. Elemente d. wissenschaftl. chun Denkens par. 83-85.

قارن أيضا :

B.P. Bowne : Metaphysics

طبعة مراجعة ، الباب الأول - الفصل الرابع .

وربما كانت أكثر المناقشات العامة في العلية تثقيفا في كتاب :

G. Sigwart : Logic 2d. ed. par. 73.

والفصل الخامس للكتاب الثالث من المنطق «لجون ستيوارت مل» يمكن أن يعد كلاسيكيا .

تلخيص ونتائج

وهذا الانكار للابتكار الحقيقى يبدو نتيجة الفلسفة التصويرية عن العلية . وذلك هو السبب فى أتنى دعوتها (فى ص ١٥٣ من هذا الكتاب)
العقبة الكلاسيكية فى قبول الاضافة التعددية للعالم . فمبدأ العلية يلوح مولدا بين الحس المشترك والنزعة العقلية . يقول هذا المبدأ ، ان ما ينتج معلولا يلزم « بطريقة ما » أن يحتوى على القوة التى تمكنه من ذلك من قبل . ولكن لما لم يكن هنالك شىء ما يطابق تصور القوة يمكن عزله ، فان وجه النشاط فى التعاقب لا يلبث أن يختفى . ويتطور الكمون الغامض للمعلول الذى يوشك تولده — والمفترض وجوده على نحو ما فى الظاهرة العلية — الى علاقة هوية ثابتة بين تصورين يستعيز بهما الذهن عن المدركات الحسية التى عثر فيما بينها فى الأصل على الرابطة العلية (١١١) .
والحالة الناجمة عن « رأى المستنير » فى العلة هى ، كما دعوتها من قبل ، مضطربة غير كافية . وقلة من الفلاسفة يتشبثون أصلا بوجهة نظر الهوية . ومن الأيسر الاعتقاد فى وجهة نظر منطقة العلم ، ولكن الاعتقاد بها ميتافيزيقيا ليس أيسر من ذلك ، لأن هذا الاعتقاد ينتهك الغريزة بنفس

(١١١) لقد أغفلت ذكر شىء فى كتابى هذا عن الطاقات الفعالة. ويبدو على عامة الكتاب فى كثير من الأحيان أنهم يظنون أن العلم قد برهن على مبدأ واحد يسمى «الطاقة» ، يربطون بينه وبين « النشاط من ناحية وبين الكم من ناحية أخرى » .
وبقدر فهمى لهذا الموضوع الصعب ، أرى أن الطاقة ليست مبدأ بالمرة ، وأقل من ذلك أن تكون مبدأ فعلا . ان هى الا اسم جمع لبعض مقادير من الواقع الحسى المباشر ، حين نقيس مثل هذا الواقع بطرائق محددة تتيح لنا أن نسجل تغيراته بحيث نصل الى مجموعات مطردة . وليست هذه بالمرة نظرية أنتولوجية ، بل حيلة مقتصدة رائعة ، للاحاطة بالتحويلات الوظيفية للظواهر البادية على السطح . وهى بوضوح حالة من الفروض لم تشكل وتنصقل بعد ، وما دامت هذه الحالة تجيز الواقع الادراكي الحسى ، فينبغى أن نعتبرها محايدة فى مناقشتنا العلية .

القوة . ويستخدم علماء الرياضة الفكرة العامة للوظيفة ، للربط بين كميات يعتمد بعضها على البعض الآخر . ف (أ) وظيفة ، (أ = ب) تعنى كل تغير فى قيمة أ يرتبط به دائما تغير فى قيمة ب . فاذا عمنا على هذا النحو ، بحيث ندمج الاعتمادات الكيفية ففى وسعنا أن نتصور أن العالم لا يتألف الا من عناصر لها علاقات وظيفية فيما بينها ؛ ولذلك فمهمة العلم الوحيدة هى تسجيل العناصر ، ووصفها فى أبسط حدود من العلاقات الوظيفية^(١١٢) . فالتغيرات ، باختصار ، تحدث وتؤثر خلال الظواهر ، ولكن لا الأسباب ولا وجوه النشاط بمعنى العملاء ، لها أى مكان فى هذا العالم من المنطق العلمى الذى ، عند مقارنته بعالم الحس المشترك ، يبلغ من التجريد مبلغا يجعله محض طيف ، ويستحق التسمية التى تروى كثيرا عن « برادلى » : « باليه سماوى من مقولات ناضبة من الذكاء » .

W. Jerusalem : Einleitung in die Philosophie 4te HufL. 145. : انظر (١١٢)

الفصل الثالث عشر

الجدّة والعليّة

وجهة النظر الحسية

ومعظم الأشخاص يتشككون حين يخبرون بأن المبدأ الفعلي للعليّة قد دمر اعتقادنا الذاتي في نشاط ساذج كشيء واقعي ، وافترضنا أن واقعة جديدة يمكن أن تنجم بطريقة تلقائية عن عمل نهض به . « فإن احساس الحياة الذي يستنكر المناقشات العديدة » يتقظ فيهم ويستهيء بوجهة النظر « النقدية » . وكاتب هذه السطور أطلق من وقت يسير على وجهة النظر النقدية أنها تجريد غير كامل . بيد أن القوانين الوظيفية لوجهة النظر هذه ومناهجها ، مفيدة الى أقصى حد ؛ وانكاراتها صادقة في أحيان أكثر مما يظن عامة .

فنحن نشعر كما لو كانت ارادتنا تحركها مباشرة أعضاؤنا ، ونحن نجهل خلايا المخ الذي لا بد أن يكون أول ما تثيره هذه الارادة . فنحن نظن أننا نسبب دق الجرس ، ولكننا نطلق فحسب دائرة الاتصال الكهربائي ، فيدق الجرس . ونحن نظن أى ضوء نجمة ما ، هو السبب في أننا نراها ، ولكن سبب ذلك هو الموجات الأثيرية ، وقد تكون النجمة معتمة منذ عهد بعيد . ونحن ننسب الى تيار الهواء السبب في اصابتنا بالبرد ، ولكن بدون تعاون بين الميكروبات لم يكن في وسع التيار أن يأتي منه أذى ما .

النقائص في وجهة النظر الحسية لتأويد الشك

ويقول « ميل » ان العلل يجب أن تكون سوابق غير مشروطة ، ويقول

« فَرِنْ Venn » انها يجب أن تكون مرتبطة . وفي التعاقبات المتعددة في الطبيعية ثمة حلقات كثيرة جدا محجوبة ، بحيث اننا يندر أن نعلم بدقة أى سابق غير مشروط وأى سابق « مرتبط » . وفي كثير من الأحيان تخلى العلة التي نعنيها السبيل لعلة أخرى لاتاج الظاهرة . وكثيرا ما تكون الأشياء ، كما يقول « ميل » غاية في النشاط حين نزع أن ثمة نشاطا يجرى عليها .

هذا القدر الضخم من الخطأ في احساساتنا الغريزية عن النشاط العلى يعزز وجهة النظر التصورية . ان هي الا خطوة أخرى ، زيادة على ذلك ، حتى نرتاب في أن افترض النشاط العلى أينما كان ، قد يكون خطأ ، وأن التسلسلات والتعاقبات هي الواقعية فحسب . مثل هذه الشكية المكتسحة ليست بنا حاجة اليها على أية حال . فأجزاء أخرى من التجربة تعرضنا للخطأ ، ولكننا لا نقول مع ذلك انه ليس ثمة حقيقة فيها . فنحن نرى القطارات تتحرك في المحطات ، مع أنها في الواقع لازالت واقفة في مكانها ، أو نشعر — باطلا — بأننا أنفسنا نتحرك بينما نحن مصابون بالدوار . ولولا مثل هذه الأخطاء لأنكرنا أن ثمة حركة موجودة هنا أو هناك . ان الحركة توجد هناك ولكن المشكلة هي في أن نضعها في موضعها الصحيح . وكذلك الشأن بصدد جميع حالات الخداع الحسى الأخرى .

فهناك دون ما شك تجربة حسية أصلية لهذا النوع من الأشياء الذى نعنيه بالعلية . ونحن نضع هذا النوع في أماكن أخرى متنوعة وضعا صحيحا أو باطلا حسبما تكون الأحوال . فأين الآن التجربة النمطية التى نصل اليها فى الأصل ؟

التجربة الحسية للعلية

وواضح أننا نجد هذه التجربة الأصلية فى حالات نشاطنا الشخصى .

ففى كل هذه الحالات ، هو أن مجالا سابقا « للوعى » يحمل (فى وسط تعقده) فكرة النتيجة ، ينمو تدريجيا فى مجال آخر . اما أن تظهر فيه هذه النتيجة على أنها منجزة ، أو تمنع بواسطة عوائق ، نشعر أننا نقاومها . فكما أنني أكتب الآن ، فأنا فى حالة من حالات النشاط هذه . أنا « أكافح » بحثا عن الكلمات التى أكاد أتخيلها ، ولكنها حين تأتى يجب أن تتم بطريقة مرضية المعنى الناشئ الذى لدى عما ينبغى أن تكون عليه . ان على الكلمات أن تجرى من قلمى . الذى أجد أن يدي تحركه مطيعة لرغبة لا أكاد أعياها ، بالمقاومة أو بالمجهود . فتأتى بعض الكلمات خطأ ، وحينئذ أحس مقاومة ، وهى ليست مقاومة عضلية بل عقلية ، وهذه المقاومة تدفع نشاطى دفعة جديدة ، مصحوبة باحساس أشد أو أقل من الجهد . ولو كانت المقاومة فى وجه عضلاتى لاحتوى الجهد على عنصر من الضغط أو القبض ، أقل حضورا حين تكون المقاومة عقلية فقط . فاذا كانت المقاومة ملحوظة فى أى نوع ، أمكن أن أتخلى عن محاولتى للتغلب عليها ، أو من جهة أخرى ، قد أدمم محاولتى الى أن أنجح فى تحقيق هدفى .

ويبدو لى فى مثل هذه المجموعات من التجارب المستمرة النامية أننا نجد أن ثمة عملا فعليا لاحساسنا بالعلية . فاذا كان للكلمة أى معنى ما ، فانها يجب أن تعنى ما نعيش خلاله . ان ما نعرفه عن الفعالية والنشاط ، هو ما يدوان عليه .

فى التجربة الحسية تجتمع العلية الغائية والعية الفاعلية

والمجرب لمثل هذه الحالة يشعر بالدفع ، والعقبة والارادة ، والضغط ، والنصر ، أو الاستسلام ؛ كما نشعر بالزمان والمكان ، وسرعة التكثف ، والحركة والوزن ، واللون ، والألم ، واللذة ، والتعقد ، أو أية خصائص

قائمة يمكن أن تنحصر عليها الحالة . وهو يمضى خلال كل ما يمكن أن تتخيله حيث تفترض انشراط . وليس للكلمة « نشاط » مضمون سوى هذه التجارب للعملية ، والمنع ، والكذب والقبض ، والبسط ، والكيفيات النهائية كما هي معطاة في الحياة لنعرفها على ما هي عليه . وبصرف النظر عما يمكن أن يكون قائما بالفعل في هذا العالم الشاذ ، من « مؤثرات » ، فمن المستحيل تصور أية وحدة منها ، سواء عشنا خلالها أو عرفناها معرفة دقيقة ، اللهم الا في هذه الصورة الدرامية لشيء يؤيد غرضا محسوسا ضد عقبات محسوسة ، ويتغلب عليها أو تغلب عليه . وما تعنيه « يؤيد » أمر واضح لكل من عاش خلال التجربة ، لا لأحد آخر . كما أن « مرتفع » ، « أحمر » ، « حلو » تعني شيئا للكائنات التي لها آذان ، وعيون ، وألسنة . والاحساسات في هذه الأصول في التجربة هو الوجود esse ، وسترتجها هي صورتها . فإذا كان ثمة شيء محجوب في بطاقتها ، فلا يجب أن ندعوه عاملا عليا . بل يجب أن يتخذ اسما آخر . والطريقة التي نشعر بها أن مياديننا المتعاقبة يواصل الواحد منها الآخر في هذه الحالات هي بوضوح ما تعنيه النظرية الأرثوذكسية حين تقول في غير ما وضوح ان العلة تحتوى « بطريقة ما » على المعلول . فهي تحتوى عليه اذ تفترضه الغاية المطلوبة . وما دامت الرغبة في هذه الغاية هي العلة الفاعلية ، فاننا نرى أن العلة الفاعلية والعلل الفاعلية تتحد في النشاط الشخصى كله . بيد أن المعلول محتوى عليه في معظم الأحيان على نحو ما فقط ، ويندر التنبؤ به تنبؤا صريحا . فالنشاط يفضى الى عدد من المعلولات أكثر مما يفترضه افتراضا حرفيا . وتعرف الغاية سلفا في معظم الحالات ، على أنها اتجاه عام فقط ، تنتظر على جانبيه جميع ألوان الابتكارات والمفاجآت .

وتنشأ الابتكارات

وهذه الكلمات التى أكتبها الآن تبعث فى الدهشة ، ومع ذلك فأنا أختارها كمعلومات لعلها هى خطى فى الكتابة . فكونها « محتواة » يعنى فحسب انسجامها واتصالها مع هدفى العام فهى تنفى بالمطلوب ، وأنا أقبلها ، ولكن يبدو أن ما يحدد شكلها الدقيق شىء خارج عن ارادتى الصريحة .

فاذا نظرنا الى كتلة الأشياء التى تمضى حياة الناس بين ظهرانيها ، وتساءلنا : « كيف جاءت هذه الأشياء هنا ؟ » فإن الاجابة الوحيدة الواسعة ، هى أن رغبات الانسان تسبقها وتتبعها . فاذا لم تكن الرغبة والارادة هما العلتان الكافيتان تماما ، فانهما على أية حال — حسب قول جون ميل J. Mill — علتان غير مشروطتين ، لازمتان على التعيين ، وبدونهما لا يكون للمعلومات وجود بالمرّة . فنشاط الانسان العلى هو السابق الوحيد للامشروط لآثار المدنية . وعلى ذلك فنحن نجد — كما يقول « ادوارد كاربنتر E. Carpenter — شيئا من قبيل قانون الطبيعة ، فالقانون القائل بأن الحركة تمضى من الشعور الى الفكر ، ومن ثم الى العمل ، من دنيا الأحلام الى دنيا الأشياء ، هو القانون السائد فى كل مكان . وما دامت الابتكارات تظهر فى كل مرحلة من مراحل هذه الحركة ففى وسعنا أن نتساءل مع « كاربنتر » ما اذا لم نكن نشاهد هنا فى تجربتنا الشخصية ما هو بالفعل عملية الخلق الجوهرية . ما اذا لم يكن العالم ينمو على الحقيقة فى هذه الوجوه من نشاطنا نحن ؟ وأين تؤكد النشاط على غير هذا النحو ، اذا كان لنا الحق فى افتراض أى اختلاف فى النوع عن ذلك ؟

العلية الحسية تضح مشكلة

الى مثل هذه الرؤية الغامضة تتأدى ، حين نأخذ تجربتنا الحسية فى الفعل من حيث قيمتها الظاهرية وتتابع التمثيلات التى توحى بها .

وأقول رؤية غامضة ، ذلك أنه حتى لو كانت رغباتنا عاملا عليا غير مشروط في ذلك الجزء من العالم الذى نكون فيه على ألفة وثيقة بالطريقة التى يتم بها ابداع الأشياء ، فإن الرغبة هى أى شئ ولكنها ليست عاملا ملاصقا مرتبطا حتى هناك . فالجزء من العالم الذى تلاصقه رغباتنا هو كما يوافق علماء الفسيولوجيا سحاء المخ ، وإذا كانت رغباتنا تعمل عملا عليا ، فإن معلولها الأول هناك ، ومعلولها النهائى الذى تستهدفه بوعى يظهر للوجود وخلال عدد لا يحصى من الوسائط العصبية والعضلية والآلية . فتقننا في وجه القيمة للادراك الحسى ، بدت ثقة مضللة . وليس ثمة مثل هذا الاتصال يظهر بين العلة والمعلول في تجارب نشاطنا . هنالك بالأحرى انقطاع ، وما نفترضه بسذاجة على أنه متصل هو منفصل بتعاقبات عليّة لا يكون الادراك الحسى على بينة بها البتة .

وقد تبدو النتيجة المنطقية أنه حتى في نوع الشئ الذى هو عليّة ، والذى ينكشف لنا في نشاطنا ، قد نخطئ في العتبة ذاتها اذا افترضنا أن واقعها هنالك . وبعبارة أخرى يبدو أننا في هذا الخط من التجربة نبدأ من خداع مكاني . فهي أشبه بطفل وُلِدَ في مسرح من الحيل الضوئية والحركية . وتجاربه الأولى كانت عن خداعات الحركة التى تسود المكان . ومع ذلك فيمكن أن تنكشف له الطبيعة الحقيقية للحركة . ولكن عليه أن يبحث في الخارج عن وقائع الحركة الحقيقية . وكذلك الشأن فإن أفعالنا الارادية يمكن أن تكشف عن طبيعة العلية . ولكن مكان وقائع العلية ، هذه مشكلة جديدة^(١١٣) . ومع هذه المشكلة الجديدة ، تتخلى الفلسفة عن

(١١٣) توجد مع العلة والمعلول علاقة يطلق عليها علاقة انتقالية مثل: «الأكثر من الأكثر» أو «الأقل» . وعلى ذلك «فعلة العلة هى علة للمعلول» . وفي سلسلة =

مقارنة التجربة التصويرية بالتجربة الحسية الإدراكية ، وتبدأ في البحث في الوقائع المادية والنفسانية .

وهي مشكلة العلاقة بين الذهن والمخ

فالادراك الحسى قد زودنا بفكرة وضعية عن العميل العلى ، ولكن بقى أن تتأكد من أن ما يظهر في الأول على أنه كذلك هو في الواقع كذلك . أو أخيرا ما اذا لم يكن لمثل هذا وجود حقيقى . وما دنا بهذا تتأدى مباشرة الى العلاقة بين الذهن والمخ ، وما دامت هذه مهمة معقدة ، فخير لنا أن نقطع دراستنا للعلية مؤقتا عند النقطة الحاضرة ، معترمين استكمالها حين نستعرض مشكلة العلاقة بين الذهن والبدن .

نتائج

ان ما خرجنا به يبدو فحسب أن محاولة استخدام العلة لأغراض تصويرية ، على أنها حلقة منفصلة ، قد فشلت تاريخيا ، وأفضت الى انكار العلية الفاعلية والى الاستعاضة عنها بالفكرة الوصفية العارية لتتابع متسق بين الأحداث . وعلى ذلك ولمرة أخرى يكون على الفلسفة العقلية أن تدمر حياتنا الإدراكية الحسية لكي تجعلها « مفهومة » . وأثناء ذلك يزودنا التيار الادراكى ، مأخوذا على ما هو عليه ، في أحوال نشاطنا بأمثلة مفهومة تماما للعميل العلى . والعلية المنتقلة بينها ليست ، على الحقيقة ، بارزة كقطعة منفصلة من الواقعة يتركز عليها التصور . وبالأحرى ثمة ميدان تال ينمو

= من العلى يمكن تنحية الوسائط جانبا (على الأقل منطقيا) وتظل العلاقة حافظة بين الطرفين النهائيين ، أوسع مسافة عليّة دون أن تبدل العلاقة الأوثق . وقد يخفف هذا الاعتبار مؤقتا انطباع الباطل الذى يجده النقد السيكلوجى الفيزيقي لوعينا بالنشاط. وسنعرض للموضوع بتفصيل أكثر فيما بعد .

باستمرار من ميدان سابق . لأنه يبدو حائلا لوجود جديد للطبيعة مستدعى ،
بينما الشعور بالعلية القائمة بالعمل يجعل للتعاقب الحسى مذاقا ، مثلما
يجعل الملح مذاقا للماء الذى يذوب فيه .

واذا أخذنا هذه التجارب كنموذج لما تكون عليه العلية الحالية ، كان
علينا أن ننسب لحالات العلية خارج حياتنا ، الحالات المادية أيضا ، طبيعة
تجريبية باطنة . بعبارة أخرى ينبغى لنا أن تبنى ما يسمى بفلسفة نفسانية .
هذا النعقد ، والواقعة القائلة بأن الأحداث المحجوبة فى المخ وكأنها
معلومات أوثق من تلك التى يستهدفها الوعى مباشرة ، هذه الواقعة تمضى
بنا الى أن نوقف الموضوع عند هذا الحد مؤقتا . ان النتيجة التى نهدف
اليها ، حتى هذه النقطة ، هى ذلك التعارض بين النظرة الادراكية الحسية ،
والنظرة العقلية لها (١١٤) .

(١١٤) لايكاد فيلسوف يقر بأن الادراك الحسى يمكن أن يزودنا تزويدا مباشرا
بعلاقات . فقد أطلق على العلاقات دائما أنها عمل الفكر ، ومن ثم فالعلة يلزم أن
تكون «مقولة» . وقد أظهرت النتيجة اظهارا طيبا دراسة «شادورت هيدجسن»
adworth Hodgson للموضوع فى بحثه المتقن عن «ميتافيزيقا التجربة» : « ان
ما ندعوه نشاطا واعيا ليس وعيا بالنشاط بمعنى أنه ادراك حسى مباشر له . حاول
أن تدرك النشاط أو المجهود ادراكا مباشرا ، فستبوء بالفشل ، ولن تجد هنالك
شيئا لادراكه» . ولما لم يكن ثمة شيء أيضا لتصوره بالطريقة المنفصلة التى
يريدها «هيدجسن» كان عليه أن يستخلص ان العلية فى ذاتها (ولم يطلب أن تكون
فى ذاتها ؟) ليس لها مبرر علمى أو فلسفى فجميع الحالات العلية فى الحس
المشترك تنتهى بالتحليل الى حالات هى هنا كما كانت هنالك تحدث على ماهى
عليه . post hoc, cum illo evenit istud. ومن ثمة فنحن نقول ان
البحث عن العلل موجود فى العلم وجوده فى الفلسفة ، وقد استيعب عنه
بالبحث عن الشروط الحقيقية (أعنى الظواهر السابقة فحسب) والقوانين
التي تضع هذه الشروط .

= ويجب أيضا أن نقر بأن الحقائق الواقعية التي تقابل لفظي العلة والعلية في ذاتها ، مستحيلة ولا وجود لها » . 374-378, ii
والكاتب الذي تشبه مناقشته مناقشتي (باستثناء برجسون الذي سأحدث عنه بإفاضة فيما بعد) هو الأستاذ «وارد» Ward في كتابه Naturalism and Agnosticism «النزعة الطبيعية والفلسفة اللاأدرية» (أنظر إلى كلمتي «نشاط» و «علية» في الكشف) . وارجع أيضا إلى فصل عن «النشاط العقلي» في كتاب «ستوت» علم النفس التحليلي ج ١ .

G.F. Stout : Analytic Psychology

ويمكن أيضا الرجوع إلى كتاب «عالم متعدد» لوليم جيمس – ملحق ب .
ويبدو أن بعض الكتاب يظنون أننا يمكن أن يكون لدينا تصور مثالي للنشاط الحقيقي الذي لا تتسق معه أية تجربة من تجاربنا ، على الأقل تجاربنا الشخصية. ومن ثم – وليس لأن النشاط فكرة زائفة في جملتها – فكل وجوه نشاطنا التي نتخيلها باطلة . ويبدو أن «برادلي» يقف مثل هذا الموقف ، وإن لم أكن متأكدا من ذلك .

ملحق

الايمان وحق الاعتقاد (١١٥)

« المذهب العقلي » هو الايمان بأن عقلنا يأتي الى عالم تام في ذاته ، وأن واجبه التثبت من محتوياته ، ولكن ليس لديه قوة ما لاعادة تحديد طابعه ، لأن هذا الطابع قد تحدد من قبل .

ويمكننا أن نميز في أصحاب المذهب العقلي فريقين : أصحاب المذهب العقلي المحللين ، وهم يلحون على الحجج الاستنباطية و « الجدلية » ، ويستخدمون على نطاق واسع التصورات والمنطق البحت (ونذكر منهم : هيجل ، برادلي ، تايلور ، رويس) ؛ وأصحاب المذهب العقلي التجريبيين ، وهم أكثر ارتباطا بالعلم ، ويظنون أنه ينبغي البحث عن طابع العالم في تجاربنا المحسوسة ، وأن هذا الطابع قائم في الفروض المؤسسة على هذه التجارب وحدها دون غيرها (ومنهم : كليفورد ، وبيرسون) .

والفريقان يصران على أن إثاراتنا الشخصية لا تلعب أى دور في النتائج التى نصل اليها ، وأن ليس ثمة حجة مما ينبغي أن يكون تصح لما هو كائن . و « الايمان » من حيث هو ترحيب طبيعتنا بكافتها بنوع من العالم متصور على أنه متوافق مع هذه الطبيعة ، ايمان مجرم ، ما لم يكن

(١١٥) وجدت الصفحات التالية - وهى جزء من دراسة مجملّة أعدت للطلاب ضمن محاضرات فى المدخل الى الفلسفة - مع مخطوط هذا الكتاب ، وقد سجل عليها «وليم جيمس» بخطه الملاحظة التالية : «تنشر كجزء من المدخل الى الفلسفة ، . ناشر الاصل الانجليزى»

هنالك بيئة عقلية على أن هذا بالفعل هو العالم الحالى . وحتى اذا حدث أن برهنت البيئة على أن ايماننا ما صادق ، فان الصدق ، كما يقول « كليفورد » قد يكون « صدقا مسروقا » اذا كان صدقا مزعوما مأخوذا به فى عجلة .

فرفض الاعتقاد بشئ ما لم تقم البيئة عليه ، هو قاعدة المذهب العقلى . والواضح أن هذا المذهب يضع بعض شروط لا تحتاج بالضرورة — على قدر ما نرى — الى أن تطبق على جميع معاملتنا مع العالم الذى نتمنى اليه .

١ — فهو يضع كمسلمة ، أن الافلات من الخطأ ، هو واجبنا الأول . فالايمان قد يجنى الحقيقة ، وقد لا يجنيها . وبمقاومته دائما نكون على ثقة من النجاة من الخطأ . واذا كنا بنفس الفعل نبتذ حظنا فى الحقيقة ، فان هذه الخسارة أخف الشرور ، ويمكن تجشّمها .

٢ — والمسلمة الثانية ، هى أن العالم فى كل جانب من جوانبه يتم تكوينه قبل أن تتعامل معه . ومعرفتنا على ذلك بما يكون عليه العالم يحصل عليها ذهن سلبى مستقبل ، ليس لديه حس أصيل بالاحتمال ، ولا ارادة طيبة نحو أية نتيجة خاصة .

وتلك «البيئة» لا تحتاج فحسب الى ارادة طيبة لاستقبالها ، ولكنها قادرة أيضا ، اذا انتظرناها بصبر ، أن تشمل الارادة السيئة .

٣ — والمسلمة الأخيرة ، أن اعتقاداتنا وأفعالنا المؤسسة على هذا النحو ، وان تكن أجزاء من العالم ، وان يكن العالم بدونها غير متته ، لا تعدو كونها أشياء خارجية ، بحيث لا تعدّل على أى نحو ، فى مغزى سائر أجزاء العالم حين تنضاف اليها .

وفي تعاملنا مع كثير من تفاصيل الواقع ، تؤدي هذه المسلمات عملها على وجه طيب . فمثل هذه التفاصيل توجد قبل أن يكون لنا رأى فيها . والحقيقة المتصلة بها ليس لها في الكثير من الأحيان أهمية ملحة . واذ لا نعتقد في شيء فأننا ننجو من الخطأ ، بينما ننتظر . ولكن حتى هنا ، لا نستطيع في كثير من الأحيان أن ننتظر ، بل لا بد لنا من أن نعمل ، على نحو ما ، ولكن نعمل على أكثر الفروض رجحانا ، واثقين أن ما يحدث سيدل على أننا حكماء . زد على ذلك أن عدم الفعل على أساس اعتقاد واحد ، يعدل في كثير من الأحيان الفعل كما لو كان الاعتقاد الآخر صادقا . وعلى ذلك فعدم الفعل قد لا يكون دائما « سلبيا » كما يزعم أصحاب المذهب العقلي . وإنما هو موقف واحد من مواقف الإرادة .

بقى على الفلسفة والدين أن يفسرا الطابع الشامل للعالم ، وليس واضحا على أى نحو يمكن لمسلمات أصحاب المذهب العقلي أن تصل الى ذلك . فقد يكون صحيحا ، هذه اللحظة ، (حتى ان كانت البيئة غير كاملة) أن النظام الطبيعي ، كما يقول « بولسون » هو في قاعدة النظام الأخلاقي . وقد يكون صحيحا أن العمل لا يزال جاريا في العالم ، ونحن مدعوون أن نهض بنصيبنا في هذا العمل . وطابع نتائج العالم قد تعتمد في جزء منها على أفعالنا . وقد تعتمد أفعالنا على ديننا — على عدم مقاومتنا لنزعاتنا الايمانية ، أو على تأييدنا لها رغم كون « البيئـة » غير تامة . هذه النزعات الايمانية لا تعدو بدورها أن تكون تعبيرات عن الإرادة الطيبة تجاه بعض أشكال النتيجة .

مثل هذه النزعات الايمانية هي قوى نفسانية فعالة الى أقصى حد ، لا تكف عن أن تبرز البيئـة . ويمكن أن نطلق على الخطوات التالية « سلم الايمان »

١ — ليس ثمة تناقض في كون وجهة نظر خاصة بالعالم صادقة ،
فليس ثمة شيء متناقض في ذاته .

٢ — فقد تكون — وجهة النظر هذه — صادقة في كنف شروط
معينة .

٣ — وقد تكون صادقة حتى الآن .

٤ — وهي صالحة لأن تكون صادقة .

٥ — وينبغي أن تكون صادقة .

٦ — ويجب أن تكون صادقة .

٧ — ستكون صادقة على أية حال بالنسبة لى .

ومن الجليّ ، أن هذه ليست سلسلة عقلية لاستنتاجات كما هو شأن
الأقيسة المتسلسلة في كتب المنطق . بيد أنها منحدر الارادة الطيّبة الذي
يعيش فيه الناس عادة ، في مسائل الحياة الأوسع نطاقا .

ومناداة المذهب العقلي بأن ارادتنا الطيّبة أو ارادة الاعتقاد لا تعدو
مجرد مشوّش للحقيقة ، هذه المناداة ذاتها هي فعل من أفعال الايمان،
من أشدّ أنواعه تزمنا . فهي تتضمن ارادة الالاحاح على عالم من تكوين
عقلي ، و ارادة الوقوف في طريق نجاح عالم متعدد . مثل هذا النجاح الذي
يستلزم الارادة الطيّبة والايمان الفعّال ، في النظر والعمل على حد سواء ،
لكل ما يتصل به بحيث « يجعله صادقا » .

فالمذهب العقلي ، على ذلك ، يتناقض مع ذاته . وهذا اعتراض كاف
عليه : اذا كان العالم المنظم تنظيما تعدديا ، وتعاونيا متجها نحو التحسين،
اذا كان ذلك العالم عالما حقيقيا هنا ، فان « اعتراض المذهب العقلي بالثيتو »

على أن نسمح لارادتنا الطيبة ، أن يكون لها حق التصويت ، وهذا الاعتراض يمنعنا من أن نسلم بأن يكون هذا العالم « حقيقيا صادقا » .
ويبقى الايمان على ذلك حقا من الحقوق الثابتة النابعة من ذهننا .
ويجب ، يقينا ، أن يظل الايمان واقفا موقفا عمليا ، لا موقفا دجماطيا قطعيا .
وينبغي لأيماننا أن يقف موقف تسامح مع ألوان الايمان الأخرى ، مع البحث عما هو أشدها احتمالا ، ومع الوعي الكامل بالمسئوليات والمخاطر .
وقد ينظر الى هذا الايمان على أنه عامل شكلي في العالم ، اذا كنا نحن أجزاء داخلية في هذا العالم ، واذا كنا بسلوكنا نحدد معالمة ، ونشكل ما يكون عليه طابعه الكلي .

كيف نتصرف مع الاحتمالات

في معظم الطوارئ يتحتم علينا أن نتصرف مع الاحتمال ونخاطر بالوقوع في الخطأ . و « الاحتمال » و « الامكان » تعبيران يطبقان على الأشياء حين نجهل شروط حدوثها (الى درجة ما على الأقل) .

فاذا كنا نجهل جهلا تاما الشروط الكفيلة بحدوث شيء ما ، فاننا نطلق على حدوثه « امكانا بحتا » . واذا كنا نعلم أن بعض الشروط قد وجد من قبل ، فان هذا يكون لنا بمثابة امكان مدعّم . وفي هذه الحالة يكون الشيء محتمل الحدوث بقدر ما تكون الشروط الواقعة عديدة ، وسائر الشروط القليلة المتبقية وشيكة الظهور .

وحين تكون الشروط عديدة ومختلطة ، بحيث اننا نتبعها بمشقة ، فاننا ننظر الى الشيء كأمر محتمل الحدوث بقدر كثرة تكرار حدوث الأشياء من قبيلة . ولما كان تكرار الحدوث جزئيا فان الاحتمال يأتى احتمالا جزئيا ،

وعلى ذلك فاذا كانت حالة وفاة بين كل ١٠٠٠٠ حالة تأتي نتيجة انتحار ، فاحتمال وفاتي منتحرا هو احتمال واحد بين ١٠٠٠٠ . واذا كان منزل واحد بين ٥٠٠٠ منزل يحترق سنويا ، فاحتمال احتراق منزلي هو $\frac{1}{5000}$ وهكذا :

ويظهر لنا الاحصاء ، أن تكرار الحدوث يكاد يكون منتظما في معظم أنواع الأشياء . وتعتمد شركات التأمين على هذا الانتظام ، وتعهد بأن تدفع مثلا ، ٥٠٠٠ دولار لكل شخص يحترق منزله ، في مقابل أن يدفع هو وأصحاب المنازل الأخرى مبلغا يعطى المبلغ الذى ستدفعه الشركة مضافا اليه مكاسبها ونفقاتها .

واذ تعمل شركة التأمين على العدد الكبير من الحالات التى تتولاها ، وتعمل على المدى الطويل ، فانها لاتخاطر بالخسارة فى الحرائق الفردية .

والمالك الفرد تعنيه حالته فحسب . فاحتمال احتراق منزله $\frac{1}{5000}$ فقط ، ولكن اذا وقع هذا الاحتمال الواحد فقد كل شىء دفعة واحدة ، فليس لديه « مدى طويل » يعتمد عليه اذا اشتعلت النيران فى منزله ، ولا يمكنه أن يكون فى مأمن — شأن شركة التأمين — فيفرض ضريبة على جيرانه الأسعد حظا منه . ولكن الشركة تغيثه بالفعل فى هذا النوع الخاص من المخاطرة . فان خسارته التى تمثل خمسة آلاف دولار هى بالنسبة للشركة خسارة مقسمة على خمسة آلاف حالة مؤمنة لديها . والأمر حينئذ عادل للطرفين . وواضح من ثم ، أن الأفضل للرجل أن يفقد ، يقينا ، جزءا ، من أن يعتمد على ، ٤٩٩٩ احتمال عدم خسارة ، ويقع المحذور ويصيبه الاحتمال الوحيد بالخسارة .

ولكن فى أغلب الطوارئ التى تواجهنا فى حياتنا ، ليس هنالك شركة تأمين طوع بناتنا ، والحلول الجزئية مستحيلة . فنادرا ما نستطيع أن نعمل

عملا جزئيا . فاذا كان احتمال انتظار صديق لك في «بوسطن» هو $1/4$ ، فكيف ينبغي لك أن تسلك على أساس هذا الاحتمال ؟ الأفضل لك أن تلزم بيتك . أو اذا كان احتمال أن يكون شريكك شريرا هو $1/4$ ، فكيف ينبغي لك أن تسلك على أساس هذا الاحتمال ؟ ، هل تعامله كشرير يوما ، وتضع مالك وأسراك بين يديه في اليوم التالي ؟ ان هذا لأسوأ الحلول . في جميع هذه الحالات يجب أن نسلك سلوكا شاملا بالنسبة لهذا الطرف أو ذاك من طرفي المآزق . فيجب علينا أن نذهب الى الطرف الأكثر احتمالا كما لو لم يكن للطرف الآخر وجود . ونعاني بذلك مغبة وقوع الأمر على غير ما توقعنا .

والآن ، ان الأطراف المتناوبة في الدين والميتافيزيقا هي من هذا النوع على أوسع نطاق . فليس أماننا الا حياة واحدة يجب أن نتخذ فيها موقفنا ازاء هذه الأطراف . فليس ثمة شركة تأمين تسندنا ، واذا أخطأنا فان خطأنا ليس بجسامة نار الجحيم كما يزعم اللاهوت القديم ، وحتى ان كان خطيرا . ففي مثل هذه المسائل ، من قبيل طابع العالم ، والحياة من حيث هي أخلاقية في معناها الجوهرى ، والدور الحيوى الذى تلعبه فيها ... الخ . في مثل هذه المسائل قد يلوح أن ثمة شمولاً معيناً ضرورياً في إيماننا . واذا حسبنا الاحتمالات ، وسلطنا سلوكاً جزئياً ، فنظرنا الى الحياة يوماً على أنها أكذوبة كبرى ، ويوماً آخر على أنها عمل جاد غاية الجدّ ، فاننا نجعل منها أسوأ ما يمكن من خلط وفوضى . فالجمود يقوم في معظم الأحيان مقام العمل . وفي طرق عديدة قد يعوق جمود عضو نجاح الكل مثلما يعوقه معارضته له . فاذا رفضنا دفع الشر كان معنى ذلك أننا نعيّنه عملياً على أن يسود (١١٦) .

(١١٦) انظر كتاب «وليم جيمس» : ارادة الاعتقاد ص ١ - ٣١ ، ٩٠ - ١١٠
Wm. James : The Will to Believe

عالم متعدد أو متحسن

وأخيرا فإذا كان العالم المتحسن قائما هنا بالفعل ، فإنه يستلزم الارادة الطيبة الفعالة عند كل منا ، في ايماننا كما في وجوه نشاطنا الأخرى لكى نمضى به الى طريق النجاح والازدهار .

ويتصور العالم الماضى نحو التحسن ، تصورا اجتماعيا ، كتعدد لقوى مستقلة . فإنه سينجح بقدر ما تعمل معظم هذه القوى على نجاحه . فإذا لم تعمل قوة منها ، حق عليه الفشل . فإذا بذل كل منا أقصى ما يستطيع امتنع الفشل . فمصير العالم متوقف ، اذن ، على « لو » أو مجموعة من « لو » — ومعنى هذا (فى لغة المنطق الفنية) ، أنه ما دام العالم لم يكتمل بعد ، ففى وسعنا أن نعبر عن طابعه الكلى ، بقضايا شرطية فقط ، لا بقضايا حملية .

(والمذهب التجريبي ، اذ يعتقد فى الامكانيات ، فإنه مصمم على صياغة عالمه فى قضايا شرطية . أما المذهب العقلى ، فهو اذ يعتقد فى الاستحالات والضرورات ، يصر ، على العكس من ذلك ، على أن يصوغ عالمه فى قضايا حملية) .

ونحن من حيث كوننا أفرادا أعضاء فى عالم متعدد ، يجب أن نقرر بأننا ، وان كنا نبذل خير ما لدينا ، فللعوامل الأخرى أيضا صوتها فى النتيجة فإذا أبت هذه العوامل أن تتعاون معنا باءت ارادتنا الطيبة بالفشل وذهب جهدنا هباء . فليس ثمة شركة تأمين هنا يمكن أن تحمينا ، أو تنقذنا من المخاطر التى تتعرض لها من حيث كوننا نشكل جزءا من عالم كهذا .

يجب علينا أن نتخذ موقفا من بين أربعة مواقف تتخذ ازاء القوى الأخرى :

١ — فاما أن تتبع نصيحة المذهب العقلى فنتنظر البينة ، وبينما ننتظر لا تفعل شيئا .

٢ — واما أن نفتقد الثقة فى القوى الأخرى ، واذا نكون على يقين من فشل العالم ، ندعه يفشل .

٣ — أو أن نثق بالقوى الأخرى ، وببذل باى ثمن قصاراانا رغم أنفس « لو » .

٤ — أو أخيرا ، نتخبط فننشق يوما متخذين موقفا ، ويوما آخر متخذين موقفا آخر .

فهذه الطريقة الرابعة ليست حلا منهجيا . والطريقة الثانية ترمى بالايما ن بين أحضان الفشل . والطريقة الأولى قد لا تتميز عمليا عن الطريقة الثانية . فيلوح أن الطريقة الثالثة هى وحدها الطريقة الحكيمة .

« فاذا بذلنا خير ما نستطيع ، وكذلك فعلت القوى الأخرى حقق العالم الكمال » . هذه القضية لا تعبر عن واقعة قائمة فعلا ، بل عن ملامح واقعة يظن كونها ممكنة الحدوث . وهذه القضية كما هى ، لا يمكن أن تستخلص منها نتيجة ايجابية . فنتيجة كهذه تتطلب مقدمة أخرى للواقع نحن وحدنا نستطيع تقديمها . فالقضية الأصلية ، ليس لها من حيث هى قيمة برجماتية ما ، اللهم الا قدرتها فى تحدى ارادتنا لكى ننتج مقدمة الواقعة المطلوبة . وينبثق العالم المكتمل ، مع ذلك ، كنتيجة منطقية .

انا نستطيع ، اذن ، أن نخلق النتيجة . فنحن نستطيع ، وقد يمكننا أن نقفز بقدمينا نحو عالم نثق بأن أجزائه الأخرى ستلتقى بنا فى قمزتنا . — وبهذا وحده يمكن النهوض بالعمل لانشاء عالم مكتمل من نمط تعددى . فانه لا يقيض له وجود الا من خلال ثقتنا السابقة .

وليس فى هذا اضطراب ما ، ولا يفضى الى « دائرة مغلقة » ، الا اذا اعتبرنا أن خصى العرض يشكّلان « دائرة مغلقة » بميلهما ، أحدهما على الآخر . أو أن راقصين تشابكت أيديهما يغلّقان الدائرة .

ان دائرة الايمان تناسب بذلك الطبيعة الانسانية ، الى حد أن التفسير الوحيد لاعتراض أصحاب المذهب العقلى « بالقيتو » ، يمكن أن نلتمسه فى الضرر الذى تجلبه اليهم ألوان الايمان عند بعض الأشخاص .

وامكانيات هذا الضرر ، قد وضعت مع ذلك جنبا الى جنب مع المبادئ التجريبية . ان التجربة على طول المدى يمكن أن تستأصل ألوان الايمان الحمقاء . فأولئك الذين تورطوا فيها قد وقعوا فى القشل : ولكن بدون ضروب الايمان الأكثر حكمة عند الآخرين ، لا يمكن للعالم أبدا أن يكتمل (١١٧) .

(١١٧) قارن فى ذلك - المقدمة والفصلين الثالث والرابع من كتاب :

G Lowes Dickinson : Religion, a Criticism, and a Forecast.



مطبعة مصر

الشمس ٣٠ قرشا